ذاكرة الشعوب ٢٩

خوليو كورتاثار

الأسلحة السرّيّة

ترجمة: محمّد عيتاني

مؤسسة الأبحاث العربية

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الأسلحة السرية

fb/mashro3pdf

خوليو كورتاثار

الأسلحة السرّية

ترجمة:

محمّد عيتاني

fb/mashro3pdf

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ٥٠٥٧-١٣ (شوران) بيروت، لبنان

* خوليو كورتاثار: **الأسلحة السرية**
* الطبعة العربية الأولى، ١٩٨٨
* جميع الحقوق محفوظة ولا يجوز إعادة النشر بأية طريقة إلا بموافقة خطية مسبقة من الناشر:
مؤسسة الأبحاث العربية، ش. م. م
ص. ب: ٥٠٥٧/ ١٣ ـ (شوران) بيروت ـ لبنان
هاتف: ٦/ ٨١٠٠٥٥، تلكس: ٢٠٦٣٩ دلتا ـ لبنان

* تنضيد الأحرف والماكيت: **المجموعة الطباعية** ش. م. م. (ناصر عاصي)
* تصميم الغلاف: نجاح طاهر
* هذا النص هو الترجمة الكاملة لكتاب:
JULIO CORTAZAR: **LES ARMES SECRETES**

fb/mashro3pdf

المنفى حقيبة كبيرة

لم نجد كمقدمة لأول عمل أدبي ينقل إلى العربية لكورتاثار، أفضل من هذا الحوار الذي أجراه الياس خوري وشوقي عبد الأمير معه، ونشر في العدد الثالث من مجلة «الكرمل» (١٩٨١). فهو الحوار الوحيد الذي أجراه كورتاثار بالعربية وفيه يقدم نفسه وهمومه الكتابية ورؤيته للأدب والعالم.

الناشر

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

التقيناه في باريس . .

قامة طويلة، وحديث طويل في بيته الذي تغطي جدرانه مكتبة تضم الكثير من الأسطوانات، والقليل من الكتب .

خوليو كورتاثار، الكاتب «الأرجنتيني جداً» كما يسمي نفسه، المقيم في باريس، المشبع بالثقافة الأوروبية، الذي لا يكتب بغير اللغة الاسبانية، هو واحد من كبار أدباء أميركا اللاتينية .

في رواياته وقصصه، يبحث عن الأجواء والمناخات والحالات، كتابة تمزج بين نوعين من التجربة : المناخ الذي تتحرك فيه الشخصيات والأحداث، واللغة التي تصبح إطار بحث وتجريب، ولكنها لا تصير موضوع اللغة، يخبىء تجريبيته إلى أن تصفى لغته وتحقق غايتها الكبرى : الاتصال بين الكاتب والقارىء، الاتصال الذي يشبهه كورتاثار باللحظة الرائعة والمتعة التي تشبه المتعة الجنسية .

إنه الكاتب الذي قدم نموذجاً عن الكيفية التي يمكن فيها للبعد التجريبي في العمل الإبداعي أن ينضج، أن لا يبقى أسير ذاته، وإلا ـ يقول ـ أصبحت اللعبة الكتابية تخلياً عن كل التزام بالتاريخ وإفلاتاً من الحضور التاريخي .

لذلك، ليس كورتاثار كاتباً محايداً . إنه كاتب في التاريخ . من الصعب

fb/mashro3pdf

أن يكون المرء روائياً في عصر الانقلابات الكبرى التي نعيش ويكون محايداً. لكنه، لا يحيل الكتابة الإبداعية إلى رسالة سياسية مباشرة، لأنها بذلك تفقد طبيعتها وخصوصيتها، كما أنه لا يتخلى عن الدور السياسي التاريخي، لأن اللغة ليست قيمة مجردة.

وكورتاثار، الذي قدم مجموعة كبيرة من الروايات والقصص الهامة، استطاع أن ينقل أجواء النضال والقمع في أميركا اللاتينية دون أن يتورط في اللعبة الانتروبولوجية في «غرب» يتعامل مع كتابات «العالم الثالث» على أنها فولكلور روحي.

كورتاثار، الذي تأثر بكتاب «ألف ليلة وليلة»، والذي لا يعرف عن الأدب العربي المعاصر شيئاً، يتحدث لأول مرة إلى القارىء العربي عبر «الكرمل»:

■ إذا سالك أحد أن تتحدث عن كورتاثار.. فماذا تقول؟

□ لو سألني أحد أن أتحدث عن كورتاثار سأحرج قليلاً، وذلك لأني أفضل الكلام عن أشياء اخرى وعن أناس آخرين، ولكنني لست نرجسياً باتجاه معاكس بالرغم من أني لا أحب كثيراً الحديث عن نفسي، غير أن مثل هذا النوع من الرفض هو تواضع زائف. إنني أعتقد أنه بما أنني قد نشرت ١٣ أو ١٤ كتاباً وقد قرئت كتبي كثيراً في العالم وترجمت إلى عدد كبير من اللغات، فأنا أشعر أن من واجبي أن أقدم للقراء معلومات عن نفسي خاصة القراء الذين لا يعرفونني أو يعرفون الشيء القليل عني.

والآن، بكل السعادة التي تغمرني في لقائي معكم وفي أنكم ستكتبون عني باللغة العربية، هذه اللغة التي كنت دائماً منفصلاً عنها فأنا مستعد أن أتحدث عن نفسي وعما تريدون..

أنا أرجنتيني. هذا البلد في أميركا اللاتينية الواقع على ساحل القارة أي بعيداً عن أوروبا، بعيداً عن لبنان، بعيداً عن كل العالم. والأرجنتين بلد غريب جداً. بلد يضم أجناساً مختلفة، بلد هجين. لقد عرفت في الأرجنتين مثلاً الكثير من اللبنانيين ويسمونهم هناك «سوريولبنانيين» كما تعارف الناس أيضاً على تسميتهم بـ «الأتراك». وهكذا منذ طفولتي التي قضيتها في ضواحي مدينة بيونس إيرس تعرفت على الكثير من «السوريولبنانيين» الذين كانوا يعملون كعادتهم في التجارة. وقد تعودت نتيجة لمخالطتي بهم على أسلوب حياتهم وطريقة كلامهم وكان لي صديق في المدرسة من أبناء هؤلاء المغتربين.

وأنا أيضاً ابن مهاجر ولكن من جيل ثالث للمغتربين، فمن طرف أبي انتسب إلى الباسك الأسبانيين ومن طرف أمي لي نسب فرنسي ألماني مشترك.

وهكذا ترى نحن في الأرجنتين نوع من الكوكتيل. لا يمكن أن نقول عن أنفسنا اننا

fb/mashro3pdf

جنس أصيل لحسن الحظ. لأنني اعتقد أن الهجانة في الجنس هي شيء مفضل وأن أسطورة الجنس الأصيل هي أسطورة فاشية نازية. ذلك لأن الهجانة عامل يقرب بين الناس والثقافات، ويعرف الناس على بعضهم البعض بشكل أفضل كما يعمل على تبادل الثقافات.

لم أولد في الأرجنتين. ولدت في بلجيكا في بروكسل من أبوين ارجنتينيين، وكان أبي قد عين لتوه في سفارة الأرجنتين في السنة الأولى لزواجه، ولدت في بداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤. ولأنني ولدت هناك تعلمت في سنوات الطفولة اللغة الفرنسية وكنا نتكلم بها طيلة تلك السنوات حتى بعد أن نقل والدي إلى سويسرا. بعدها عدت إلى الأرجنتين. وحال عودتي نسيت الفرنسية وتعلمت الاسبانية. لغة أميركا اللاتينية ما عدا البرازيل. ولكنني بعد عشرة أعوام أو اثني عشر عاماً عندما عدت إلى تعلم الفرنسية من جديد استطعت أن أتعلمها بسرعة لأن اللغة تظل في اللاوعي. ومن هنا جاء ميلي لكل ما هو فرنسي وحبي للأدب والثقافة الفرنسيين. كما اطلعت على الأدب الأنكلوسكسوني بعد تعلمي للإنكليزية.

ونتيجة لحبي الكبير للأدب الفرنسي ـ وطبعاً الأدب الأرجنتيني والاسباني فهو أدبي ـ فقد قررت بعد أن بلغ عمري ٣٥ عاماً أن أترك الأرجنتين لأنني لم أكن مرتاحاً هناك واخترت فرنسا لأنني أعرف اللغة والأدب الفرنسيين وكنت أعرف أنه حال وصولي إلى باريس فإنني سأصبح باريسياً جيداً بعد بضعة أشهر. وفعلاً حدث هذا. فأنا أعيش في فرنسا منذ ثلاثين عاماً ولكنني طيلة تلك الفترة كنت دائماً أعود إلى بلادي لأنني أرجنتيني جداً وعلى الأخص أميركي لاتيني. وأنا أؤكد على هذا وسأكون سعيداً جداً لو نشرتم هذا لأن الشوفينية والقومية تثيران المتاعب في كل مكان وفي أميركا اللاتينية بشكل خاص. لقد كانوا يعلموننا ونحن أطفال في المدارس أن الأرجنتينيين هم الأفضل وفي نفس الوقت في شيلي يعلم الأطفال الشيليون بأنهم هم الأفضل وفي البرازيل كذلك، وهكذا يوجد نوع من التنكر للآخرين، ولهذا فقد تكون لديّ إدراك سياسي تاريخي وأؤكده لكم الآن بأنني أميركي لاتيني وأن كل أميركا اللاتينية هي وطني.

إنني سعيد جداً وفخوراً أن أكون أرجنتينياً، فالأرجنتين بلادي ولكن بلادي لا تنتهي عند حدود الأرجنتين. إن بلدان أميركا اللاتينية بالنسبة لي هي بلدان موحدة لأنها تتكلم الاسبانية وهذا شبيه الوحدة التي يشعر بها العرب لأنهم يرتبطون بشيء مشترك هو اللغة. إننا ندرك هذا خاصة عندما نكون في المنفى في بلدان لا تفهم فيها شيئاً ولا يفهمك الناس. إنك لتحس بمتعة هائلة عندما تزور قارة تنتقل فيها بين بلد وآخر وأنت تتكلم مع الناس لغتك الأصلية ـ طبعاً مع فوارق اللهجات المحلية.

■ **قبل أن تغادر الأرجنتين كنت قد نشرت مؤلفاً واحداً على ما أعتقد. كيف كانت حالتك، عملك، كتاباتك؟**

□ حسناً سأعود إلى سنوات الأرجنتين. لقد أنهيت كل دراساتي في الأرجنتين، الابتدائية، الثانوية وقد بدأت الدراسة الجامعية ولم أنته منها أبداً. بدأت فيها بدراسة الأدب، وبما أنني أنتمي إلى عائلة فقيرة، نوعاً ما، لأنه على الرغم من أن أبي كان دبلوماسياً فإنه انفصل عن أمي عندما كنت صغيراً جداً وظلت أمي معنا بعد أن هجرنا أبي جميعاً. كانت أمي تناضل من أجل معيشتنا. وهكذا تربيت في بيت فقير نوعاً ما في ضواحي بيونس إيرس.

fb/mashro3pdf

وبعد أن حصلت على شهادتي الأولى كان يتوجب علي أن أرد إلى أمي كل ما قدمته لي ولهذا لم أنه دراستي الجامعية وبدأت أعمل مدرساً في ثانوية داخل قرية صغيرة في الأرجنتين. وقد قضيت هذه الفترة الأولى من حياتي في القراءة الكثيرة، وكنت وحيداً جداً، فالوحدانية هي طبيعتي بشكل ما. كنت أقرأ الكثير بالاسبانية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية.. أقرأ كل ما يقع تحت يدي.

وفي حدود العشرين من عمري بدأت الكتابة وأدركت شيئاً فشيئاً أنني إما أن أكون كاتباً أو لا شيء. لم تكن المهن الأخرى تجذبني ولم يكن لي أي طموح فيها. إن ما كنت أرغب فيه فعلاً هو أن أعبر عما أريد وقد بدأت بكتابة القصص والقصائد والروايات. ولم أكن أنشر لأنني كنت أمارس النقد الذاتي بشكل حاد لذا فقد بدأت النشر فقط في السنوات الأخيرة التي سبقت رحيلي من الأرجنتين إلى فرنسا. كانت مجموعة القصص القصيرة الأولى التي نشرتها بعنوان «غرفة الملابس» وقد نشرتها وأنا أغادر الأرجنتين.

■ **لقد تركت الأرجنتين عام ١٩٥١. هل كان ذلك لأسباب سياسية؟**

□ في جانب منها.

■ **وهل كنت ملتزماً سياسياً؟**

□ لا. ولهذا قلت لك في جانب منها. فأنا لم أكن ملتزماً سياسياً قط. كنت على المستوى السياسي لا مبالياً. وكان اهتمامي أدبياً وفنياً. أحب الموسيقى كثيراً وهكذا كان عالمي. وفي ذلك الوقت كان هناك في الأرجنتين أول حكومة للجنرال بيرون ولم أكن أفهم هذه الحركة بالذات لأنني طبعاً لم أكن مهتماً بالسياسة، وقد كانت تبدو لي أنها حركة سلبية، نوعاً من زعزعة للوضع دون أية إيجابيات وكان لا بد من أن يمر عشرون عاماً لكي أدرك أنها كانت شيئاً ذا أهمية. لم أكن مرتاحاً في بيونس إيرس وسط أجواء لم تكن أجوائي، يضاف إلى هذا أنني كنت مشدوداً جداً إلى أوروبا وكنت أرغب في التعرف إلى دول أخرى.

■ **هل أنت معروف في الأرجنتين أكثر منه في فرنسا وأوروبا بشكل عام خاصة وأنك نشرت مؤلفاتك تقريباً خارج أميركا اللاتينية؟**

□ أنا معروف في أميركا اللاتينية بشكل أفضل، ولهذا أسباب. فأنت ترى أولاً أن المواضيع التي تعالجها كتبي هي في الغالب مواضيع أميركية لاتينية، تمس بشكل خاص القراء هناك، وثانياً فأنا أكتب بالاسبانية، ومن هنا فإن أفضل ما أقدمه هو في متناول القارىء الاسباني أولاً. نحن نعرف ما هي الترجمة، فقد تكون جيدة جداً ولكنها تبقى شبيهة برؤيتك لشيء من خلال المرأة. فأنت لا ترى الشيء نفسه إنما ترى انعكاساً له.

لقد بدأت أعرف قليلاً بشكل جيد هنا في فرنسا وفي بلدان شرق أوروبا كبولونيا مثلاً. لقد ترجمت كل كتبي تقريباً إلى البولونية ولي فيها عدد كبير من القراء. ولكن أخيراً أهم قرائي هم الأميركيون اللاتينيون.

■ **لقد جئت إلى باريس لتستقر فيها نهائياً. أي عندما تركت الأرجنتين كان ذلك واضحاً لديك وقد اتخذت قرارك النهائي بهذا الصدد...**

fb/mashro3pdf

□ لا . . لا . . لا يوجد شيء واضح لدي. إنني أعتقد أن الناس الذين يتصورون أن لديهم أشياء واضحة جداً معرضون لاحتمالية الوقوع في الخطأ. أنا أعتقد أن على الكائن الإنساني أن يواصل نقده الذاتي وأن يحتفظ في داخله بالقبول والرفض، وأن يملك الشجاعة على تغيير رأيه إذا ما اقتضت الضرورة ذلك/ ، ولهذا لا أحب كلمة: نهائي.

عندما جئت إلى فرنسا، جئت لمعرفة ما سأجده فيها. ولو لم أحب فرنسا لعدت إلى الأرجنتين، أو ربما سافرت إلى البرازيل أو غواتيمالا أو السويد. لا يمكن أن أجزم بهذا الآن فأنا لم أقم به ولكن لم يكن هناك أي شيء حاسم، وكنت في البداية أعود إلى الأرجنتين كل عامين، أمكث هناك شهرين أو ثلاثة أو أربعة أعود بعدها إلى فرنسا حيث أحس بأن وضعي فيها جيد.

لقد جئت إلى باريس كطالب بعثة. لم يكن معي نقود مطلقاً. وكانت سفارة فرنسا في بيونس أيرس تعطي منحاً فقيرة جداً ولكنها كانت تساعد على الاستقرار هنا. ومن أجل الحصول عليها أعددت بحثاً عن موضوع فرنسي قدمته وحصلت على البعثة. كانت ظروفي سيئة في بادىء الأمر ولكن السعادة الغامرة التي تملأني كانت تنسيني هذه الظروف. لقد اضطررت حينها إلى القيام ببعض الأعمال اليدوية لمجرد العيش.

■ **نعود إلى مشاكل العيش في الخارج وواقع أن تكون أرجنتينياً جداً، ومقيماً في الخارج، ما هي الأخطار التي يمكن أن تنجم عن مثل هذه الحالة؟**

□ إنها حالة فردية جداً. يمكنني أن أجيبك بأن هناك أناساً وهم أصدقاء لي قد جاءوا إلى هنا تقريباً في الفترة نفسها، وذهب بعضهم إلى إنكلترا أو الولايات المتحدة، وبعد أربع أو خمس سنوات أصبحوا فرنسيين وانكليز وأميركان. وظلت الأرجنتين طيفاً بعيداً. وغيروا لغتهم وغيروا شخصياتهم نتيجة لذلك. أما أنا فقد كتبت طيلة ثلاثين عاماً ١٤ كتاباً كلها كانت بالاسبانية أو بالأرجنتينية. إنني أعتقد أن هذا لدليل كان يمكنني أن أقدمه على أنني استطعت أن أحافظ على شخصيتي الأميركية اللاتينية والأرجنتينية.

■ **إذن اللغة بالنسبة للكاتب هي أرضه؟**

□ هذه مشكلة قديمة. يوجد في الأدب العالمي أمثلة شهيرة لأناس قد غيروا كلياً لغتهم وقد كتبوا مؤلفات رائعة جداً كالبولوني كونراد الذي انتقل إلى الإنكليزية.

■ **ربما لأن كونراد حالة نادرة جداً؟**

□ توجد أمثلة أخرى مثل ميلوش، ليس الحاصل على جائزة نوبل ولكن عمه لوبيك ميلوش فقد كان شاعراً كبيراً في اللغة الفرنسية وقد اختار الكتابة بها. يمكننا أيضاً أن نذكر يونسكو فهو من أصل روماني وكل مسرحه بالفرنسية.

■ **ولكنهم يظلون ندرة.**

□ هذا صحيح.

■ **إن يونسكو على سبيل المثال هو كاتب فرنسي لا مجرد كاتب باللغة الفرنسية وكذلك**

fb/mashro3pdf

كونراد. وبهذا الصدد يمكننا ذكر جورج شحادة. إن كلا من شحادة وكونراد كاتبان الأول فرنسي والثاني إنكليزي لأنهما اندمجا داخل اللغة والحياة الأدبية للغة الأخرى ولكن حالتك تختلف. فأنت مستمر في البقاء أرجنتينياً ألم تكن لديك إغراءات من هذا النوع؟ أم أن هناك مساومة من نوع ما. كيف استطعت التوصل إلى مثل هذه المساومة في العلاقة بين اللغة والأرض؟ لقد أدركتها بالتأكيد، أين تقع؟

□ نعم ولكنها مساومة خاصة جداً. فقد وجدت نفسي هنا في فرنسا أتكلم وأكتب الفرنسية بشكل جيد في مراسلاتي وحياتي الخاصة، ولكنني في نفس الوقت عندما أجلس أمام الآلة الكاتبة لأكتب أدباً فإن الإسبانية هي اللغة الأولى التي تحضرني وبشكل خاص الاسبانية الأرجنتينية. لقد كنت أمارس هذا في الأيام الأولى من وصولي فرنسا وأنا أقوم به منذ ثلاثين عاماً.

■ هذا الأمر يقودنا إلى سؤال دقيق وهو علاقة الروائي بالواقع اليومي. إنني أفهمك عندما تقول إنك حينما تريد كتابة رواية أو عمل أدبي فأنت تكتبه بالأرجنتينية، لأنه يوجد الحوار واللاوعي ولكن يوجد أيضاً الواقع اليومي الذي تعيشه منذ ثلاثين عاماً في باريس. وهنا أود أن أعرف كيف تحس العلاقة بين هذا الواقع اليومي الباريسي لديك وبين الواقع الأرجنتيني في الماضي؟ أي بين الوعي واللاوعي؟

□ انني أفهم سؤالك وأجيبك بصراحة. فهذا الوضع شكل لي حالة إغناء خاصة. فهما تجربتان لا تتعارضان ولا تنفصلان. فمثلاً عندما كتبت روايتي التي عنوانها (ماريولا) التي تتحدث على أرجنتينيين وأرغوانيين في باريس يتكلمون الفرنسية إلى جانب شخصيات فرنسية فقد كتبت هذه الرواية بالاسبانية ولكن الشخصيات الفرنسية كانت عندما تتكلم تطرح وجهة نظر فرنسية وطريقة فرنسية للاختيار. لقد كتبت قصصاً قصيرة تتحدث بكاملها عن شخصيات أوروبية بالاسبانية.

■ إنني ألاحظ أن هناك حركة أو توجهاً يسير باتجاه معاكس لما أنت عليه وهو يلقي ضوءاً بشكل ما على هذه الحالة، يوجد أوروبيون يبحثون عن مواضيع ومشكلات تولد وتعيش في واقع يومي هناك في الأرجنتين، في بيونس إيرس. وهم أوروبيون، يعيشون هنا ويذهبون في أسفار أو إجازات ليصطادوا مشاهد من الواقع اليومي هناك ثم يعودون ليكتبوها أدباً. وهذا بالضبط عكس ما أنت عليه. وهنا تجدر ملاحظة مهمة وهي لا بد وأنك تجد مادتك في التعويض عن غياب الواقع اليومي الأرجنتيني في اللغة. وعندما تحدثت قبل قليل عن مساومة ما فقد كنت أقصد هذا. وأخيراً فإن هذا العامل خطر جداً. لأن مجرد تواجد اللغة وحدها لا يمكن أن تكون تعويضاً. لا بد من الإبداع لكي تنتشر وتصير أفقاً.

□ إنني متفق تماماً معك. ولكنني لو أخذت المثال الذي ذكرته حول الكاتب الفرنسي أو الأوروبي الذي يذهب إلى بلد متخلف ليبحث عن الحكايات الغريبة ويعود ليكتب كتاباً، فأنا أسألك هل تعرف كتاباً عظيما كتب على أساس هذه التجربة؟ إنها الصحافة الواسعة..

■ طبعاً. يمكننا أن نذكر إن شئت حول الأرجنتين بالذات رحلات الكاتبتن كوك لفيليب سوبو وهي من أجمل قصائده. توجد أيضاً أسفار أندريه جيد في أفريقيا. وليس المقصود

fb/mashro3pdf

بهذه الأمثلة قيمتها الفنية المجردة، فمهما اختلفنا حولها تبقى الصورة التي يقدمها كورتاثار عن واقع غائب عنه طيلة ثلاثين عاماً ـ بالرغم من أنه كان يسافر باستمرار ـ استثنائية وبحاجة إلى الكثير من الإيضاحات.

□ ربما... فأنت محق لدرجة أن أحد الأسباب التي كنت أذهب من أجلها كل سنتين إلى الأرجنتين كانت على وجه التحديد لغرض شحن البطاريات. أي لكي أغوص من جديد في تلك الأجواء لأنه حتى وإن كانت لنا ذاكرة جيدة ـ ولي ذاكرة جيدة ـ فإن هناك أشياء كثيرة تختفي وتتضاءل مع مرور الزمن. والآن يمر عليَّ سبع سنوات ولم أزر الأرجنتين وأنا أعتبر نفسي منفياً من قبل النظام القائم. ليس لدي ما أعمله هناك والنظام لا يريدني. ولدي شعور الآن بأنني لو أردت كتابة نص عن بيونس إيرس بروائحها وأجوائها وطعمها فإن من المحتمل أنني سأغش وسيكون النص سيئاً. هذه مشكلة قائمة وأنا أقر بذلك خاصة عندما يتعلق الأمر بالأرجنتين. وأنا عندما أسافر إلى دول أميركا اللاتينية أحاول دائماً أن أبحث فيها عما أفقده في بلادي. وقد كتبت قصصاً تجري أحداثها في كوبا ونيكاراغوا أو المكسيك لأنني أجد فيها شيئاً يعود لي أيضاً وهو أميركا اللاتينية. إنها لغتي وبشكل عملي هم أبناء وطني أما بالنسبة للأرجنتين فإن هناك مشكلة وأنا متفق معك.

■ **بصدد الحديث عن المشاعر الأرجنتينية، كان تشي غيفارا هو الآخر أرجنتينياً وقد جسد هذا التدفق الثوري في أميركا اللاتينية. ما هو حجم تأثيرات تشي غيفارا عليك؟**

□ للحديث عن هذا الموضوع سنحتاج إلى الكثير من أشرطة التسجيل. إن حجم تأثيرات تشي غيفارا عليَّ هائل ومتنوع. لقد كتبت قصة قصيرة عنوانها «اجتماع» الشخصية المركزية فيها تشي غيفارا. لم أسمه باسمه غير أن القارىء يتعرف عليه في الحال والقصة تتحدث عن نزول تشي غيفارا وفيدل كاسترو يرافقهم ٨٢ من الرفاق إلى الساحل الكوبي وبداية المرحلة الأولى من النضال ضد الطاغية باتيستا. لقد اخترت هذا الموضوع وحاولت أن أضع نفسي موضع تشي غيفارا في تلك اللحظات وأجعله يتكلم ويفكر بطريقتي.

لم ألتق قط بتشي غيفارا. في أول زيارة قمت بها إلى كوبا كان في الريف. رأيته في التلفزيون ومن ثم لم تحن أي فرصة للالتقاء به. أكن له في نفسي بذكرى كبيرة وإعجاب. إنني أعتقد أنه كان من أكثر الثوريين صفاء وأهمية في هذا القرن.

■ **أهذا كل ما تقول عنه؟**

□ أتظنه قليلاً؟

■ **لا بالطبع ولكن لو تحدثنا عن حجم تشي غيفارا لدينا وعلى سبيل المثال في الثورة الفلسطينية، فقد أصبح بعد موته ـ كما هو الحال في كل مكان ـ قديس الثورة العالمية وكان حجم تأثيره كبيراً على المثقفين، وهذا يعني أن النموذج الثوري لغيفارا قد أعطى زخماً ذا طابع إنساني داخل الثورة نفسها.**

□ في العالم العربي وفي العالم أجمع حيث ما كانت هناك جماعات تناضل من أجل الثورة وتغيير العالم. إنني متفق مع كل ما تقول ولكن حديثك يجرنا إلى سؤال ذكرناه في البداية، وهو نحن المثقفين، الناس غير الفاعلين بشكل مباشر كان نموذج تشي غيفارا بالنسبة

fb/mashro3pdf

لنا هائلاً، وذلك لسبب بسيط هو أن غيفارا لم ينظر إلى الثورة على أنها عملية السيطرة على السلطة ولكنه كان يراها ابتداء من المسألة التي أسماها: «الإنسان الجديد». ما هو هذا الإنسان الجديد؟ ليس هو فقط الإنسان الذي ينتصر على العدو ويستلم السلطة، ففي الغالب نجد هؤلاء الناس الذين يستلمون السلطة، يستلمونها بكل العيوب والنواقص والمشاكل التي كانت قائمة سابقاً، وهكذا هم عوضاً عن أن يمارسوا الثورة ويواصلوها سرعان ما تراهم يتراجعون. أما غيفارا فقد ناضل كل حياته وعندما نقرأ كتاباته ـ نشر الكوبيون كل كتابات غيفارا ـ فإننا نجده دائماً يعاني ويقلق من هذه الحالة. وهو ينطلق من مبدأ الإنسان الجديد. هذا الإنسان الذي لا يحمل السلاح فقط ويناضل من أجل قضية عادلة، ولكنه الإنسان الذي يواصل مسيرته إلى الأمام داخل أعماقه عبر مساره الخاص به، يمارس النقد الذاتي والتحليل الذاتي والقراءة. الإنسان الذي لا ينساق وراء شعارات وقتية، إنه صورة لفرد واع. واع تماماً.

إن تعاليم غيفارا لم تضع، على العكس ففي كل مرة أذهب إلى نيكاراغوا ـ إنني أحمل لها حباً كبيراً وأسعى لأن أقدم كل ما أستطيعه لهذا البلد الصغير الذي ما زال مهدداً بالخطر بعد ثورته ـ أرى أن كل القادة والزعماء والشعب يتحلى بهذا النموذج الذي هو غيفارا. فالناس معجبون به كمناضل وكمحارب، ولكنهم معجبون أيضاً بما كان يقوله غيفارا ولو أحياناً بطريقة قاسية جداً عندما كان يخاطب المحاربين على سبيل المثال بقوله: «لا يكفي أن تطلقوا الرصاص إنما لا بد من القيام بعمل متكامل من التفكير والتحليل». وهكذا فأنت ترى أن هذا يتفق مع ما يمكن أن يفكر به الكاتب.

لقد كان هو الآخر كاتباً ومثقفاً وشاعراً. كان يقرأ الكثير، ومهنته كطبيب تشير إلى ذلك.

■ **بالنسبة لك أولاً، ماذا يعني أن تكون روائياً؟ من وجهة النظر النقدية الرواية هي الملحمة الحديثة. والملحمة كما هي عليه تعبير كلي، أي انها التجربة التاريخية، الفنية والسياسية. إن الرواية في عصرنا هذا لا تقدم رؤية موسعة نوعاً ما للعالم ولكنها تبقى مع ذلك التعبير المباشر للعصر. ما هي العلاقة إذن بين الرواية والحياة التي تعبر عنها، وبشكل خاص بين الروائي والمؤرخ لأننا لو قبلنا صيغة باختين بأن الرواية هي ملحمة العصر الحديث، فإن الروائي سيكون مؤرخاً بشكل ما؟**

□ بشكل عام أعتقد أنني أتفق معك في وجهة النظر هذه. ولكن لا بد من فرز بعض العناصر، لأن العلاقة بين الرواية والتاريخ معقدة جداً. وقبل أن أتحدث عن هذه النقطة بالذات تجدر الإشارة ـ وعلى أي حال هذه هي وجهة نظري الشخصية ـ إلى أن الرواية بين كل الأنواع الأدبية هي النوع الأدبي الموجه والقائم إلى وعلى مجمل العالم؛ تاريخه، حياته، الجمهور والفرد، كل ما يحدث وما يمكن أن نتصوره في الحياة، وهي النوع الأدبي الذي يعكس كل هذه العناصر بأفضل أشكالها.

كل الأنواع الأدبية الأخرى بحكم الضرورة محدودة، القصة القصيرة تتناول شريحة صغيرة والقصيدة ـ الشعر شيء هائل طبعاً ويمكن أن يشكل ملحمة ـ غنائي في غالب الأحيان وخاصة الشعر الحديث. والشعر الغنائي يعكس بشكل خاص أعماق الإنسان ومشاعره وآماله من وجهة نظر هي بالأحرى نفسية. التاريخ يمر إلى جانب الشعر إن صح هذا التعبير. أما

fb/mashro3pdf

الرواية فهي هذه الخزانة الكبيرة التي يمكن للروائي أن يضع داخلها أشياء متعارضة أحياناً، ويمكنه أن يضع فيها حتى الشعر، يمكنه أن يتحدث عن أشياء شخصية كلياً وأيضاً أن يكشف من خلال حالة فوتوغرافية عن مجمل الوقائع، هذا ما حاول أن يقوم به فكتور هيجو في «البؤساء» حيث بدأ بالحديث عن جماعة من البؤساء في باريس ولم يتوقف عند باريس إنما صارت فرنسا كلها ثم العالم أجمع وحتى مصير الإنسانية. وأذكر نموذجاً آخر هو ديستويفسكي الذي أخذ حالة شخصية في «الجريمة والعقاب» وتتضمن حدثاً عادياً هو أن يطعن شاب عجوزاً، ولكنه أعطاه بعداً يمكن أن نصفه كونياً. هذه هي الأعجوبة الهائلة في الرواية التي بإمكانها أن تقدم نماذج إنسانية عميقة من خلال أحداث مبتذلة.

أما مشكلة التاريخ التي تحدثت عنها قبل قليل، فإن هناك روائيين يحملون طموحاً تاريخياً إلى جانب طموحهم الأدبي. إنني أعتقد مثلاً أن «الحرب والسلام» لتولستوي تعتبر مثالاً جيداً في هذا الجانب لأن هذه الرواية التي هي في واقعها قصة حب أو حدث مركز على أشخاص معينين تحمل وراءها تاريخ روسيا. في مثل هذه الروايات يكون الروائي مؤرخاً. ولكن أي نوع من المؤرخين؟ هذه مشكلة أخرى.

■ ولكن بالنسبة لك؟

□ لم أكتب قط روايات تحاول إدخال التاريخ بشكل واسع جداً. لقد كتبت رواية عنوانها «كتاب عمانويل» وهي رواية صغيرة جداً تجري أحداثها في باريس حول مجموعة من الأشخاص تحاول اختطاف شخص ما وقد رويت بنوع من المبالغة، ولكنني من وراء كل هذا كنت أحاول أن أتطرق إلى وضع الأرجنتين في فترة الدكتاتورية العسكرية الأولى، وهي مرحلة حكم الجنرال لانوبسي. وكنت أقصد بالذات الكشف عن وضع الشباب الثوريين الذين كانوا يريدون الثورة على ذلك الحكم. ولكنني لم أقم بعمل تاريخي في هذا الجانب. ربما كان عملاً لمحلل اجتماعي.

■ **في بلدان العالم الثالث بشكل خاص لا توجد علوم متطورة كعلم النفس والأنتروبولوجيا وحتى التاريخ. وبهذا المعنى ألا تعتقد أن الدور الإيجابي للروائي هو أن يحاول إعادة إبداع الأبعاد المتعددة للحياة اليومية في بلاده. أي ان اللعبة الشكلية، لعبة اللغة في الأدب الفرنسي اليوم أستطيع أن أفهمها شخصيا، لأنه يوجد في فرنسا الشيء الكافي في التخصص في كل الميادين. كأن تراهم في المسرح - على سبيل المثال - يحاولون القيام بمسرحيات دون نص مكتوب في عملية للبحث عن جذر العمل الأدبي وجوهره. ولكن عندنا...**

□ هذا غير ممكن عندكم، كما هو الحال عندنا..

■ **غير ممكن ولكن والحالة هذه لماذا لا يوجد في رواياتك هذا البعد التاريخي؟**

□ لا يوجد في رواياتي بعد تاريخي لأنني لست موهوباً في هذا الجانب. هذه قضية خاصة بطبيعة الكاتب. لقد تحدثت على سبيل المثال عن تولستوي فقد كان موهوباً في هذا التخصص، وكذلك هو الحال بالنسبة لشولوخوف. هؤلاء الناس قادرون تماماً على الكشف عن حقبة تاريخية من خلال رواية. ولهذا فهم يؤدون عملاً اعتبره فوق الاعتيادي وهو ليس

fb/mashro3pdf

في استطاعة الجميع. في نفس الوقت يوجد رسامون يمكنهم أن يرسموا لوحات كبيرة جدارية وآخرون مجبرون على الرسم في حدود صغيرة؛ ومن خلال هذه الحدود يمكنهم تقديم أعمال كبيرة ولو حاولوا توسيع هذه الرقعة لفشلوا. يمكنك أن تعتبر هذا العمل التاريخي واجباً وأن عليَّ ضمن هذا الواجب أن أكتب روايات تصور تاريخ أميركا اللاتينية، ولكنني أعتقد أن الرواية هي عمل فني جمالي، وأن لهذا مستلزماته أيضاً ولو حاولت الكتابة بالشكل التاريخي لأخفقت. لأنني لست قادراً على الكتابة بمثل هذا العمل، غير قادر على الكتابة بشكل مختلف عما أكتب عليه.

■ **إذن ليس في موقفك هذا خيار خاضع لمفهوم خاص بالرواية؟**

□ لا، أبداً فلو كنت أشعر أنني قادر على كتابة الرواية التاريخية لتناولت شخصية محرر أميركا اللاتينية على سبيل المثال، الجنرال سيمون بوليفار الفنزويلي الذي قاد بلداناً عديدة نحو التحرر في القرن التاسع عشر، شخصية هذا البطل الكبير، وهي شخصية روائية هائلة لو تناولها تولستوي لجعل منها عملاً روائياً ضخماً وقدم من خلالها تاريخ تلك الفترة. هذا بالرغم من أنني أحب كثيراً شخصية بوليفار ولكنني أدرك أنني لا أستطيع ذلك. يجب أن نعرف حدودنا وأنا أعرف حدودي وأضع نفسي ضمنها ولا أتجاوزها لأن الأدب ليس برمجة إنما موهبة وإمكانية.

■ **في هذه الحالة، ما هي العلاقة بين الرواية والحياة اليومية؟**

□ هنا جئت إلى اختصاصي. أي ليس التاريخ بمجمله إنما التاريخ الصغير. يتفق قرائي والنقاد بشكل عام على تحديد رواياتي وقصصي القصيرة بكونها تعالج أحداثاً يومية؛ طريقة تعامل الشخصيات فيما بينها، حركتها، عملها، رقصها، أسلوب تعايشها، العلاقات بينها. وهذه الأبعاد بالنسبة لي شيء أساسي. إنني أعيش بهذا الشكل. إنني قريب جداً من الحياة. أحبها وأحاول أن أتناولها وعندما أكتب تأتي هذه الحياة إلي. يمكنني أن أتصور طفلاً أو طفلة وفي الحال أراها وأجد نفسي أنني أعرفها وأجعلها تتكلم وتمشي وتحيا. ولكن لكل هذا حدوده فلا يمكنني تصور مجاميع بشرية كبيرة بهذه الطريقة.

■ **حسناً ولكن في هذه العلاقة مع الواقع؟ هل هذا يعني أنك تخلق الشخصيات أم تعمل نوعاً من الكولاج؟ أي عندما تفكر في كتابة رواية ما وتبدأ باختيار شخصية معينة، فهل هذه الشخصية متصورة تعيدها إلى الواقع أم أنها واقعية وتبدأ بتغييرها عبر مسار الرواية؟**

□ هذا سؤالٌ مهم. الحالتان معاً. يمكنني أن أتصور شخصية ما لم أرها قط وليس لدي. أي تصور عنها كأن أرى على سبيل المثال وبشكل مفاجيء امرأة تشرب الشاي. لا أعرف مطلقاً من هي هذه المرأة ولم أرها قط. لم أنقلها عن الواقع. ويحصل لي أيضاً أن أخلق شخصية واحدة منكما الاثنين مثلاً. يمكنني إيجاد شخصية متكاملة منكما معاً أو حتى من أربعة أو خمسة أشخاص وهنا يدخل عنصر تصوري. لو عدنا إلى رواية «ماريل» فإن الشخصية المركزية والتي اسمها «أواسيو» الأرجنتيني الذي يتجول في باريس، هي في ٣٠ ٪ من أبعادها أنا. أشياء معينة حصلت له في الرواية حصلت لي أنا شخصياً ولكن ما تبقى تصوري. إذن لست كاتباً واقعياً مثل أولئك الكتاب الذين ينحصر عملهم في نقل العناصر التي يمنحها لهم الواقع. إن ما أقوم به هو خلق بين التصور والواقع.

fb/mashro3pdf

■ في الحديث عن العلاقة بين الروائي والمؤرخ والرواية اليوم، ذكرت أن ثمة ضرورات تفرضها طبيعة النوع الأدبي نفسها لتحدد علاقة النوع الأدبي نفسه بالتاريخ. ولكنني أعتقد أنه يوجد أيضاً عامل العصر. إن طبيعة تطورنا الحضاري اليوم هي التي تؤهل الرواية في أن تطغى على كل الأنواع الأدبية خاصة الشعر. وهكذا عندما تصبح الرواية كلاً تقريباً فإننا نجد فيها كل شيء تقريباً كما نلاحظ ذلك في كتابات روائيين أو بالأحرى ناثرين مثل لوكليزيو وسولبرس ـ وهم يكتبون بشكل مختلف كلياً عنك ـ ضمن هذا المنظور أود أن أعرف وجهة نظرك حول أثر هذا التطور الحضاري اليوم على مستقبل كل الأنواع الأدبية التقليدية، ربما أن الرواية صارت تطغى على كل هذه الأنواع فما هي إذن صورتها الأخيرة ومستقبلها؟

□ هذا جانب مهم جداً خاصة ومنذ فترة طويلة أفكر بهذه المشكلة. والغريب أنني في بداية اللقاء معكم كنت قد تطرقت إلى البعثة التي حصلت عليها من السفارة الفرنسية من أجل المجيء إلى فرنسا، ولكن السبب في الواقع وراء مجيئي إلى هنا كان هذه المشكلة. في تلك الفترة وحيث كان عندي المزيد من الوقت أكثر من الآن، كنت أقرأ الكثير من النقد الأدبي وعرفت شيئاً عن تطور الأدب في عدد من اللغات؛ يمكننا أن ندرك وبسهولة أن الرواية أصبحت منذ بداية القرن التاسع عشر النوع الأدبي الأكثر طغياناً وهكذا صارت أنواع أدبية أخرى كالشعر في المستوى الثاني. هذا إذا أردنا أن نتحدث عن «نوع» أدبي، فأنا أجد أن هذه صيغة ضبابية نوعاً ما. يجب أن نعرف مؤلفات الأدب الإنساني الأولى كالإلياذة والأوذيسة اللتين كتبهما هوميروس كانتا قصائد موزونة وفي نفس الوقت هما عملان روائيان لأنهما ترويان ملحمة ونضالاً. أي أن لغة الإنسان الأولى كانت شعرية. ولأسباب يعرفها النقد أكثر مني فإنه خاصة ابتداء من القرن التاسع عشر حصل هذا الانقلاب بالاتجاه المعاكس وانحصر الشعر على الجانب الغنائي واحتلت الرواية مقدمة المشهد. إذن فإن الناثرين ـ كما تقول ـ في عصرنا يستغلون كل الوسائل الممكنة، وأنت ترى أنه غالباً ما توجد روايات تحتوي على كمية هائلة من الشعر كرواية «موت فرجينيا» للألماني بلوخ؛ إنها رواية قصيدة كبيرة في الوقت نفسه. كل شيء متناول بطريقة شعرية. وكذلك الرواية التي كتبها الكوبي ليساماليما بعنوان «بارالبز و» فهي تحكي قصة عائلة كوبية ولكنها مع ذلك قصيدة غير عادية، على الرغم من أنها كتبت نثراً. لا أدري إلى أي مدى يقنعك جوابي هذا إذا كان ما قلت جواباً، إنه بالأحرى تعقيب..

■ إنني في هذا الاتساع والتضخم الذي تعيشه الرواية اليوم حركة تسير باتجاه القديم. فلو أخذنا الكتابات الأولى للإنسانية كالكتابات المقدسة مثلاً وحتى الكتابات التي سبقتها كالسومرية والبابلية في «جلجامش» فإننا نجد أن نوعاً من الانفصام غير الاعتيادي قد أدى إلى تبلور وتحصص الأنواع الأدبية. وقبل هذا التاريخ كانت هناك الكتابة فقط وكانت هي لغة الدين، وكانت شعراً، بحكم ارتكازها على محور العلاقة الغنائية بالضرورة بين الكائن والعالم. ومن هنا اعتقد أن ميزة حضارتنا اليوم هي بوادر هذه العودة أو محاولات العودة إلى ما أسميه بالنص، ولست بصدد الحكم على هذا التطور إنما هو يضعف أمام جوهر العلاقة بين التاريخ والإنسان حيث نتساءل متى يكتب التاريخ الإنسان ومتى يكتب الإنسان التاريخ؟ أي متى نروي؟ ومتى نروى؟

fb/mashro3pdf

□ صحيح أن النصوص الأولى للإنسانية كانت قصائد. لا نعرف بالضبط إذا كانت كتابات هيراقليطس نثراً؟ إن ما وصلنا من مقاطع من كتاباته غير كافية لتحديد ذلك، ولكنها تعطينا انطباعاً بأنها مقاطع شعرية أيضاً.

إنه ابتداء بأفلاطون الذي كان هو الآخر شاعراً ايضاً، أخذنا نميز في حواره عنصراً شعرياً، لأن كل العناصر والتفسيرات الميتولوجية التي يعطيها لبعض الأشياء كانت تكشف نوعاً من الشعر الذي سبق مرحلة الـ ما قبل سقراط، مرحلة هيراقليطس وديمقرطس. ولكننا نميز فيها أيضاً اكتشاف النثر كأسلوب للتطور في بحث أفكار ومواضيع ذات طابع تخصصي، أي في حل مشاكل سميت في وقتها بالمشاكل الفلسفية، ولا بد من إيجاد طريقة لها، وهنا يأتي أرسطو فأنت لا تجد عند أرسطو أي سطر شعري، في الواقع إنه أول فيلسوف كبير، ناثر بشكل كلي، ولا أقول هذا انتقاصاً منه. فإنه بمجيء أرسطو حصلت قطيعة ولا أدري إذا كان وجودها ضرورياً أو أنها كانت شكلية ولكنها كانت بداية التخصص لعصرنا اليوم. لا أعتقد أن بإمكاني إضافة شيء آخر على هذا ولو أردت ذلك لتطلب مني العودة إلى الوراء بعيداً. .

■ عندما نكتب رواية أو قصيدة يحصل نوع من الانعكاس على الآخر. ولا يمكن أن تكون كاتباً حقيقياً دون أن تغير اللغة والأبعاد. إن كل الكتاب الكبار قد حاولوا إبداع لغتهم. واليوم بصدد ما يجري في فرنسا والولايات المتحدة من محاولات روائية جديدة تسميها أنت بالاستمناء الروائي. ألا تعتقد أنها نتيجة لأزمة تاريخية تتماشى مع الآلية المطبقةعلى المجتمع الرأسمالي. وبهذا المعنى فإن كل الأشياء قد أخذت جانباً من التخصص الحاد لدرجة أنها لم تعد تتجاوب فيما بينها. وإذا واصلنا هذا التحليل السوسيولوجي كأن نأخذ على سبيل المثال محللاً اجتماعياً مثل ألان تورين الذي يتحدث عن مجتمعات ما بعد الرأسمالية، وسيعرض إلى دور العلماء في هذه المجتمعات فهو يذكر أنه سيكون هناك العلماء في جانب والذين لا يملكون المعرفة في الجانب الآخر. أي سوف تنتهي هذه الديمقراطية البرجوازية. وأنا أعتقد أننا لو أردنا أن نحلل عملاً لشخص مثل سوليرس يجب أن نبدأ بهذه النقطة فهي الوسيلة الوحيدة لشرح هذا النوع من العمل على اللغة. وإن كانت النتيجة ستقدم شيئاً جديداً أم لا، لا أدري إنما على الصعيد التجريبي يبقى عملاً مهماً.

□ لا أشك بذلك. بل أعتقد أنه على هذا الصعيد سيكون مهماً. وأعتقد أن كل كاتب وأنا أولهم يستفيد من الاكتشافات التي تتم على مستوى اللغة. ولكن ما يزعجني ويمنعني من مواصلة هذا النوع من الكتابات هو أن أرى هذه التجارب تخفي وراءها نوايا أخرى، كأن تخفي وراءها عملية التخلي عن كل التزام عبر التاريخ.

لقد عرفنا هنا في فرنسا في السنوات الأخيرة نوعاً من الكتاب الذين يكتبون مؤلفاتهم فقط في اللحظات التي تجري فيها أحداث مهمة في تاريخ الإنسانية وكأنه لم تكن لهم علاقة بها من قبل. إنني أطالبهم بنوع من الحضور التاريخي، هذا الحضور الذي لا أراه في الغالب. وإن ما أرى باستمرار هو انغلاق أشخاص في مكاتب للكتابة يجعلون منها سبباً لمعيشتهم. ولكنها دائرة مغلقة وبالرغم من ذلك فإنهم يجدون قراء لهم، هؤلاء القراء هم بدورهم يسعون إلى الإفلات من الحضور التاريخي. أما أنا فلا أريد ذلك.

■ لا بد إذن على الكاتب أن يكون داخل التاريخ. .

fb/mashro3pdf

□ نعم.

■ كاتب في التاريخ ماذا يعني هذا؟

□ الكاتب في التاريخ يعني أشياء عديدة. لا يعني بالضرورة أنه لا بد أن يكتب عن التاريخ. إن للكاتب سيادته المستقلة وله الحق في كتابة ما عليه إحساسه وميله ومن هذا الجانب يحق لسوليرس الكتابة فيما يريد وليس لي أن أعترض عليه. ولكن ابتداء من اللحظة التي ينشر فيها الكاتب فإنه يخلق نوعاً من الصلة بينه وبين جمهور القراء ومن هنا تأتي المسؤولية لكاتب مقروء.

■ يمكن أن يكون كاتباً غير مقروء. هناك العديد من الكتاب غير المقروئين.

□ طبعاً.

■ أي إن الجوهري في الكاتب ليس في أن يكون مقروءاً؟

□ لا أقول ذلك. إنني أتحدث عن حالة يكون فيها الكاتب مقروءاً كما هو الحال بالنسبة إلى سوليرس الذي يكتب منذ عشرين عاماً وله الكثير من القراء. والذي يحصل هو أن يدخل كاتب مثله في حلقة يمارس فيها لعبة مع قرائه، هذه اللعبة تقع خارج الاهتمامات التاريخية كلياً.

■ ولكن من يحدد هذه الاهتمامات، وما هي الموازين؟

□ لقد تحدثت عن الإحساس بالمسؤولية وهنا إلى واقعي كأميركي لاتيني. أنت تعرف الوضع في أميركا اللاتينية، هذه القارة الخاضعة من جهة إلى كل الضغوط التي تمارسها الامبريالية الأميركية وإلى كل ممارسات الدكتاتوريات العسكرية في الداخل من جهة أخرى. هل تعتقد أن كاتباً يمكن أن ينجز رواية دون أن يشير إلى هذا الوضع ودون أن يحاول أن يوصل إلى قرائه درساً في هذا التاريخ. لست مؤرخاً ولكن يجب أن نقدم للقارىء نوعاً من الإمكانات ليتمكن من الحكم من خلالها على الأحداث التي تمر به والتحرك نتيجة لذلك. إنني لا أطلب من الكتاب أن يصنعوا هذا الوعي، إن هناك أيضاً الأيديولوجيين، الفلاسفة والسياسيين الذين يحملون رسالة ينقلونها وأوامر يوجهونها.

■ إذن فإن الكاتب هو حامل رسالة.

□ أحياناً لا يحمل رسالة.

■ وأنت ما هي رسالتك؟

□ رسالتي بسيطة جداً. فهي تتلخص في البحث والعمل من أجل التحرر وتحديد الهوية. كل كتاب أكتبه هو عمل يبدع نفسه لأنني لا أفكر في القارىء من وجهة النظر هذه عندما أكتب، ولكن يوجد دائماً الأمل بأن يعمل هذا الكاتب مع ما يكتب كل أبناء أميركا اللاتينية الذين احترمهم على مساعدة القراء في اكتشاف أنفسهم. وهذا ما يطالب به تشي غيفارا الثوريين، أي مضاعفة وعيهم الشخصي بما يحيط بهم من أفراد وواقع.

fb/mashro3pdf

سأعطيك مثلاً على ذلك؛ في الأرجنتين اليوم توجد صحافة رسمية حيث الرقابة الرهيبة مفروضة عليها، وهكذا فإن القارىء لا يجد إلا المعلومات الرسمية ولا يدري بما يجري فعلاً لا في بلاده ولا في البلدان الأخرى. وإذا توصلت إلى كتابة نص أو مقال أو قصة قصيرة هنا أستطيع من خلالها أن أعكس ما يجري فعلاً هناك، وأن أتمكن من إيصال هذا النص إلى القراء هناك فإنني سأشعر على الأقل بأنني قد قمت بشيء مجسد، شيء مجد.

■ إنني متفق معك وتحضرني الآن قصة قصيرة نشرتها في جريدة «لوموند» تتحدث فيها عن فتاة اختفت في مكتب عسكري؛ عندما قرأت هذا النص أحسست بجانب الإثارة فيه، وأعتقد أن المناخات تظهر في كتاباتك بشكل واضح. فهوية هذه المرأة لم تكن مقصودة، فبإمكاننا استبدالها بأي امرأة أخرى. وهذا النوع من الكتابة مهم جداً لأنه لا يحمل درساً إنما ينقل المناخ. وهنا تكمن المسؤولية التي تقع على عاتق كاتب من بلدان العالم الثالث. والمهم في مثل هذه البلدان هو أن لا نقول للناس أن عليكم أن تصنعوا الثورة إنما هو أن نعيد خلق المناخ والأجواء ورائحة القمع والارهاب. لأن النثر في حياة أنظمة كهذه قد أصبح مجرد معلومات خاضعة لسلطتها وأنا أعتقد أنه بخلق مثل هذه الأجواء يمكننا تحديد دور كاتب مثلك.

□ أن تقول بالنسبة لي شيء جوهري جداً وهو على مدى كبير من الصحة لأن عمل الكاتب هو عمل استطيقي بشكل كلي. ليس من مهمة الكاتب أن يكتب رواية تحكي عن الاختفاءات داعياً للنضال ضدها. يصبح عمله هذا عملاً سياسياً. هناك آخرون يمكنهم القيام بذلك. أنا نفسي يمكن أن أقوم بعمل صحافي كهذا كأن أكتب مقالاً عن الاختفاءات ولكن هذا ليس أدباً، إنما مجرد معلومات. وإذا كنت قد كتبت هذه القصة القصيرة التي أعجبتك من جهة إثارتها واهتمامها بالأجواء الأمر الذي يجعلها تؤثر في كل مكان فبالرغم من أنها كتبت في الأرجنتين فإن بإمكانها أن تؤثر في أمكنة أخرى، فأنا أعتقد أن دور الكاتب يقع هنا بالضبط. أي أن دلالة الرسالة كامنة وقائمة والحالة هذه في الاحتجاج ضد الاختفاءات، ولكنها ليست رسالة سياسية إنما حسية تمر عبر الإثارة التي تكمل المعلومات السياسية.

■ نعود هنا إلى مشكلة وعي الأبطال أنفسهم. لدي انطباع هو أنك عندما تبدع أبطالك فإن المشكلة الأولى التي تجابههم ليست الوعي إنما الحياة وهذا مهم جداً...

□ هذا شيء أساسي.

■ الحياة هذه تقودهم إلى أقدارهم. أي أن دور القارىء هنا مهم جداً بمعنى أنه في الرواية يعيش هذا النوع من الحياة التي تعطيها له. وبهذا المعنى ـ نعود إلى عمل الكاتب ـ أعتقد أن اللعبة كما هو الحال في رواية «ميريل» تجريبية جداً، فأنت تعطي إشارات وإيضاحات حول طريقة قراءة الرواية وهو أسلوب للبحث عن الأجواء والمناخات، ولأننا لا نعرف الاسبانية لا أدري إذا كانت هذه اللعبة قائمة حتى على مستوى اللغة نفسها. أريد أن أعرف إذا كان هذا الجانب التجريبي مرتبطاً بتركيب اللغة الاسبانية؟

□ نعم إنه مرتبط بمعنى أن اللغة الاسبانية التقليدية التي هي لغة موروثة من اسبانيا القديمة وأميركا اللاتينية تحمل في داخلها من جيل إلى جيل كل الأفكار التي تجمعت فيها منذ

fb/mashro3pdf

القديم بما فيها التراكيب المتعبة، بحيث أن أغلب الكتاب ودون أن يعوا ذلك يكررون أنفسهم بتكرار نوع من الجمل والصفات التي تلحق عدداً من المسميات كما يقول الناس على سبيل المثال في ذكر اليونان «اليونان الألفية» أو «الهند الألفية» وكأن الحضارات الأخرى لم تكن ألفية. هكذا تعود الناس على تسميتها وهم يقولون أيضاً «روما الخالدة»، وبابل أليست خالدة؟ هذا النوع من الكليشيهات التي تصدر عن الناس صارت ظاهرة، وتطورت وأصبح عدد من الذين يكتبون يكررونها دون وعي بذلك، لأنهم لا يحللون اللغة التي يستعملونها. وهي كما ترى كليشيهات وأساليب أصبحت اليوم سلبية تماماً. ربما كانت مجدية في حينها وانتهت جدواها ونحن نعيش اليوم ظروفاً أخرى ووجهة نظر أخرى ولنا أهداف مختلفة. إذن فإن إحدى المهمات التي يتطلبها عمل الكاتب هو هذا النوع من التجارب أي أن يحاول هز اللغة قليلاً وأن يشعر الناس بهذه الهزة. عندما صدرت (ميريل) قال الناس بأنني قد ذهبت بعيداً لأنه كان يصعب عليهم قراءتها ولكن بالنتيجة تعود الناس وما زالت رواية «ميريل» تباع بكثرة ونشرت أكثر من مرة في أميركا اللاتينية والناس يقرأونها دون اشكال بنفس الطريقة التي يقدم فيها موسيقي عملاً طليعياً فإن الناس يجابهونه في بادىء الأمر بالصفير ولكنهم يصفقون له بعد عشر سنوات.

إن الكاتب الذي لا يجري تجارب على اللغة هو كاتب سيء بشكل عام، وهنا نعود إلى ما قلناه قبل قليل عندما تصبح التجربة نفسها هي المادة النهائية للكتابة، في هذه الحالة أسمّي هذا النوع من الأعمال استمناء، لأنه إذا لم نستثمر نتائج التجارب في عملية الإيصال والنقل في ثروة جديدة داخل المحتوى نفسه فإننا نضيع وقتنا.

■ **لو تسمح لي بالعودة إلى الحديث عن «المعلومات» التي تطرقنا إليها قبل قليل، لأنني أعتقد أنك تناولت الجانب السلبي فيها داخل العمل الأدبي. وهنا تجدر الإشارة إلى أن المعلومات في العمل الأدبي شيء أساسي. إن الأعمال الأدبية الكبيرة للإنسانية في جوهرها تتشكل عبر تجميع هائل للمعلومات. يقول باوند: «العمل الأدبي هو جمع أكبر عدد من المعلومات في أقل عدد من الكلمات» ولو أخذنا على سبيل المثال كتاباتك نفسها فأنا أجد أنها ترتكز على هذا الجانب ولكنها معلومات مهضومة ومنقولة بلغتك. فكتابك الأخير بشكل خاص «دورة النهار في ثمانين عاماً» هو كتاب معلومات بكل معنى الكلمة وأنت ترفق المعلومات الواردة فيه بالصور والإيضاحات والوثائق، أي ان فيه استخداماً جديداً للمعلومات. وأنت تقول قبل قليل ان تجربة اللغة تزعجك حينما تظل على المستوى المختبري لأنك تريدها أن تكون ناقلة موصلة، فماذا تريد أن تنقل أو توصل إذن؟**

□ إنني متفق تماماً معك ومقتنع كلياً بأن هدف الأدب وبالذات الرواية هو الإيصال. وإذا أردنا أن نسمي هذا معلومات فإنها تسمية تكنولوجية والفرق يكمن في معاملة هذه المعلومات فهذه المعاملة قد تتباين كثيراً. لنتصور أن هوميروس كان قد كتب شيئاً يقول فيه «ان أجاممنون قد نزل إلى سواحل طروادة وأن المدافعين عن طروادة قد تجمعوا وطلب الجنرال هكتور عمل كذا.. وكذا وأن أشيل قال كذا وكذا». أي ان هوميروس أرسل عدداً من البرقيات. هذه معلومات أم لا؟ نعم هذه معلومات ولكن ماذا سيكون مصير هذه المعلومات في تاريخ الإنسانية؟ كل ما قرأناه البارحة في جريدة «لوموند» وصل إلينا وهضمناه ونحن بحاجة إليه. ولكن ليس لهذا أي علاقة بالأدب أو بالاستطيقيا. والفرق أن

fb/mashro3pdf

هذه المعلومات الإخبارية قد نقلت بلغة جمالية، عن طريق الشعر، أو بلغة يشكل فيها الجانب الجمالي نقطة جوهرية بحيث لا تتغير هذه المعلومات في جوهرها فإن طروادة هي نفسها، ولكنها في الإلياذة تمس حساسية القراء بشكل مختلف، لأنها لم تعد مجرد معلومات تعنى بنقل الحدث فالأحداث نفسها تظهر بشكل يهزك. إنني أعتقد أن كل الأدب هو عملية توصيل ولكنه إيصال جمالي يضمن له في حالة أدائه بشكل جيد نوعاً من الخلود، رغبة متواصلة في العودة إليه، فإننا لا نحس برغبة في العودة إلى معلومات جريدة «لوموند» بالرغم من وجود معلومات مهمة إلا في حالات خاصة جداً.

■ **عندما يعلن كاتب معين تغييراً في المجتمع، في اللغة والسلوك فإن هذا الإعلان لا يعني أن التغيير قد أنجز، إنما لغة هذا الكاتب ستصير شيئاً فشيئاً لغة الناس كلهم أو عدد كبير منهم على الأقل وهذا المعنى يتضمن الإعلان عن لغة جديدة تلتقي مع دور الأدب الانكفائي القديم. وهنا في استعمالنا لنوع من الأدب ليفك رموز وأسرار الأدب نفسه نعود إلى نفس الدور، أليس كذلك؟ أي مثل النبي، واليوم لا يوجد نبي ـ ولكن الكاتب مستمر في استعمال نوع أدبي جديد يفرض فيه اللغة التي يتكلم بها الجميع.**

□ لا، أعتذر، إنني أنظر إلى الأشياء بشكل أكثر تواضعاً. إنني أعتقد بأن الكاتب يبدأ بإجهاد نفسه من أجل التوصل إلى تعبير يقنعه هو أولاً، أي العثور على ما جرى التعارف على تسميته بالأسلوب، إيجاد طريقة للتعبير تلائم ما يريد أن يقول. في أيام شبابي كانت لي أفكار جيدة ولكن عندما كنت أكتبها وأعود إلى قراءتها كنت أثور على نفسي لأن لغتي لم تكن سهلة ولم تكن تتمتع بحرية كافية. كانت جافة جداً وثابتة وقديمة، وعندما كنت أعود لقراءة ما أكتبه لم أكن الكاتب الذي يقرأ في هذه الحالة إنما مجرد القارىء. ولكن قارىء بشروط قاسية. لقد كنت صارماً جداً. إن النضال الذي يجب أن يقوم به الكاتب الحقيقي هو أن يمتحن لغته ويطورها طيلة سنوات، حتى يصل اليوم الرائع الذي يحقق فيه عمله الإبداعي، وعندئذٍ يكتبه ويتركه ينام يومين وبعد أن يجري بعض التعديلات البسيطة يجد نفسه أمام النص الذي أراد، هكذا يجب أن تحتوي اللغة على الإيحاء وعلى الحلم وعلى الرؤية هذا بالنسبة لي هو تعريف الكاتب. وابتداء من هذه اللحظة تكون المتعة الكبيرة، فالأدب هو متعة هائلة وليس عذاباً كما يقول الكثير من الناس. فأنا لا أعتقد بذلك. إنني أتمتع عندما أكتب، إنها متعة كبيرة كما في الحب فالحب قد يبكي ولكنه متعة هائلة، متعة تتضمن معاناة والأدب هو أيضاً نوع من الإثارة الجنسية وأنا أعتقد تماماً بهذا؛ الأدب بالنسبة لي نوع من الإثارة الجنسية.

عندما يصل الكاتب إلى مستوى معين في اللغة يسمح له بعكس كل ما يريد أن يقول تقريباً فيها، فإن هذه المتعة ستنتقل إلى القارىء وهو شيء صادق بالنسبة لي غير مزيف ولا ينقصه شيء. كل الجوانب التجريبية بالنسبة لي مجرد وسائل من أجل التوصل إلى هذه اللحظة الرائعة بيني كمؤلف وبين القارىء أي اللحظة حيث لا يوجد أي عائق.

■ **هنا تطرقت إلى النقطة الأكثر أهمية وهي اللغة. وفي مؤلفاتك تبدو اللغة وكأنها العنصر الأكثر ثقلاً. العنصر المركزي ولكنها في الوقت نفسه الأكثر شفافية وبساطة وخفاء. هذا بالتأكيد أسلوب في التعامل مع اللغة، ما رأيك بالأساليب الأخرى في التعامل مع اللغة؟**

□ إذا كنت تملك هذا الانطباع وأنت تقرأني فإن هذا نتيجة عملي المتواصل في تطوير

fb/mashro3pdf

اللغة. وأن أتوصل إلى البساطة وذلك بإسقاط كل ما هو زائد، كل ما يمكن أن يضيفه كاتب آخر دون أن يشعر بوطأته على معانيه. غالباً ما أقرأ كتباً لمؤلفين شباب من أميركا اللاتينية وأحياناً تكون كتباً رائعة، ولكن أغلبية هؤلاء المؤلفين الشباب يعبرون عما باستطاعتهم التعبير عنه في نصف صفحة وبشكل أفضل. فأنت تجد في لغتهم التكرار والالتفاف كما أنهم لا يمارسون النقد الذاتي بشكل كاف. لا يوجد وعي للغة. إنهم يضعون فيها كل شيء؛ وهكذا يجد القارىء نفسه مع رسالة غامضة مثقلة بالزوائد الأمر الذي لا يجعلها واضحة وكاشفة كما هو الحال في الأسلوب.

■ **من هو الروائي الذي تجده أقرب لك بهذا المعنى في العلاقة مع اللغة؟**

□ عموماً، لا أحب ذكر الأسماء خاصة وأنها لا تحضرني الآن. هناك عدد كبير من المؤلفين أحبهم وأعجب بهم. إنني أفكر على سبيل المثال بـ غاريسيا ماركيز في كتابه «مائة عام من العزلة» بالرغم من أسلوبه المختلف جداً عني؛ فإنه هو الآخر لا يترك كلمة زائدة في النص وقد توصل أيضاً إلى ما أسميه «اقتصاد اللغة» وهذا لا يعني الافتقار في اللغة على العكس فهو الثراء الكبير.

في تاريخ الأدب يجدر ذكر حالة فلوبير، لأن فلوبير كان يعامل لغته بكثير من الصرامة وكتب الفصل الأول من «سالامبو» مئتي مرة حتى اقتنع فعلاً بالنص. قد نتفق مع أسلوبه أو لا نتفق، ولكنه كان مستعداً أن يضحي بأي شيء كأن يقضي سنوات من أجل أن يكتب «مدام بوفاري» بالطريقة التي وصلتنا فيها. وإلى جانب كاتب كفلوبير تجد كتاباً، يصدرون رواية كل ستة أشهر يمكن أن تكون لهم أفكار وتصورات ومواهب ولكن لغتهم تظل مضببة ومشوشة. ومن هنا أؤكد على ضرورة الاقتصاد باللغة. وبهذا المعنى فإن الكاتب الأرجنتيني بورخيس الذي نشكل أنا وإياه قطبين متعارضين في الموقف السياسي، لكنه قد علمنا نحن الشباب الارجنتينيين في الثلاثينات والأربعينات على الاقتصاد في اللغة لأنه هو الآخر يملك أسلوباً من الدقة والانضباط بشكل يثير الإعجاب.

■ **بصدد الحديث عن بورخيس في كتابه «ألف» يوجد تأثير عربي كبير وخاصة من «ألف ليلة وليلة».**

□ سمعت أنه يعرفها بشكل جيد جداً. . .

■ **أريد أن أعرف إذا كانت «ألف ليلة وليلة» معروفة عندكم، وما هو تأثيرها عليك؟**

□ إنه سؤال يريحني جداً. فأنا عندما كنت في الثامنة أو التاسعة من عمري أهدتني أمي ترجمة اسبانية لألف ليلة وليلة. وكان نصاً خاصاً بالأطفال أي حذفت منه الجوانب الجنسية ولكنني بعدها اطلعت على النص الكامل بالإنكليزية.

بالنسبة لي كطفل في الثامنة يفتح مثل هذا الكتاب ويدخل عالم شهرزاد والسندباد وعلي بابا وكل العجائب. هذا التكنيك الرائع في كون الحكاية تتولد من الحكاية وهكذا في سلسلة متواصلة. إنها عملية في غاية الخطورة على مستوى التكنيك وتجربة صعبة ثم كل عالم العطور والألوان والأجواء الذي تحتويه. . .

fb/mashro3pdf

إن «ألف ليلة وليلة» كانت إحدى أولى الأشياء التي أثرت كثيراً عليَّ، ومن المحتمل أنها إحدى الأسباب التي دفعتني إلى الأدب. لقد كنت أنتهي من القراءة الأولى لأبدأ من جديد. وكنت أعيد قراءتها كل عام. وبتصور الطفل الذي كنت، كنت أحس بالرعب أمام أحداث مثل محاولة دفن السندباد حياً، هذا النوع من الأحداث يؤثر كثيراً على عقلية الطفل. لقد اكتشفت بعد «ألف ليلة وليلة» عمر الخيام في ترجمات له كانت بالفرنسية والاسبانية وبالرغم من أنني أعتقد أنها قد تكون بعيدة جداً عن الأصل ولكن عمر الخيام قد أثر كثيراً عليَّ.

■ **هل قرأت شيئاً من الأدب العربي المعاصر؟**

□ لا.

■ **ماذا تعني بالنسبة لك مساهمة الكاتب في مسار ثوري؟ في مؤلفاتك يوجد نوع من اللعبة وفي هذه اللعبة يوجد مضمون ثوري معبر عنه بطريقة خاصة، أود لو تحدثنا عن هذين البعدين؟**

□ السؤال الأول هو السؤال الأساسي لأنك تتحدث عن مساهمة الكاتب والتعبير المتعارف عليه هو «الالتزام» وأنا لا أحب هذا الأخير، ولكن من أجل التوصل إلى ما تريد أن تطرح عليَّ من سؤال فأنا أفضل طبعاً كلمة «مساهمة» على «التزام». إن كلمة «التزام ناقصة وهي أيضاً تسبب الكثير من سوء الفهم. إنه على عكس ما يظن الكثير من الناس أنا أنظر إلى هذه المشكلة في غاية البساطة. بعد سنوات طويلة قضيتها غير مكترث بالسياسة ـ كما قلت ذلك في البداية ـ كنت قد قذفت بنفسي كلياً خارج التاريخ، أي في عالم جمالي بحت، الفن والموسيقى والأدب كل ما كان يعنيني ويحوز على اهتمامي. أما مصير الإنسانية فكنت أعتقد أنه من شأن السياسيين ولم أكن أريد أن أزج بنفسي بينهم. ثم كانت سنوات الستينات حيث كنت هنا في فرنسا وكانت حرب الجزائر التي رأيتها عن كثب وهزتني وقائعها ودفعتني إلى التفكير. وقبلها كنت في الأرجنتين وقد سمعت عن حرب اسبانيا والحرب العالمية الثانية وطبعاً كان موقفي في الجانب الجيد، كنت مع الجمهوريين في اسبانيا وكنت مع الحلفاءفي الحرب الثانية.

ولكن ماذا تعني كلمة «مع»؟ لقد كنت أذهب إلى المقهى وأتحدث مع أصدقائي وكنت سعيداً بوجهة نظري ولا شيء أكثر من ذلك. أي انني كنت فعلاً خارج دائرة الفعل السياسي وشيئاً فشيئاً أدركت أن في هذه العزلة التي أعيشها شيئاً متعارضاً. لم أكن مرتاحاً مع نفسي ولم أكن سعيداً. كان بإمكاني أن أقضي نهاري في سماع الموسيقى، التجول في كاليري للفن والعودة لكتابة فصل في روايتي ولكنني كنت أحس بعقدة الذنب.

وفي هذه الأثناء وقعت الثورة الكوبية أي مراحل النضال في الجبال، وقد تابعت ذلك في الصحافة وفجأة في يوم ما ـ تحصل لنا أحياناً أشياء دون أن ندرك سببها بشكل جيد ـ اكتشفت أن هذه الثورة هي ما كنت أسعى لمعرفته بالدرجة الأولى، فأول ما افتح الجريدة أقرأ الأخبار المتعلقة بها ومن ثم أخبار الأدب والثقافة. انتصرت الثورة الكوبية وقد أحسست فعلاً برغبة ليست مجرد رغبة عاطفية إنما حسية بالذهاب إلى هناك. لقد كنت سعيداً جداً بسقوط الطاغية.

fb/mashro3pdf

وأحياناً تصنع الصدف أشياء جميلة، فقد دعيت بعدها إلى الذهاب إلى كوبا لأنني اخترت عضواً في لجنة لتوزيع الجوائز الأدبية. أخذت الطائرة إلى كوبا وعشت فيها شهراً. لقد كنت مع الشعب وتعرفت على كاسترو. لم يكلف الكوبيون أنفسهم أي عناء لإقناعي لقد كنت أشاهد كل ما يحيط بي فقط، وكانت.. حركة ثورية تتحرر للتو من عهد الطاغية والاستبداد وتحاول مع كل المصاعب والأخطاء والمشاكل أن تتوصل إلى طريقها. وعندما عدت إلى فرنسا صرت أحد المؤيدين والمتحمسين للكوبيين وأعمل لمساعدتهم. صرت رفيقاً وصديقاً، أسافر إلى كوبا كل عامين وقد تعرفت عن كثب على اللحظات اليسيرة والسعيدة للثورة الكوبية.

وإذا اخترت أن أحدثكم عن هذه التفاصيل فذلك لأنني أعتقد أن الثورة الكوبية هي الحدث الذي جعلني أتفاعل مع التاريخ. ومنذ هذا الوقت وبما يسمح لي الوقت من قراءة أدبيات الماركسية والأشياء الأساسية فيها ـ فأنا لا أعرفها بشكل جيد، وإن كان بإمكاني الحديث ساعات عن مارسل بروست، فلا أملك أية فكرة موسعة عن ميكانيكية عمل الاشتراكية ـ أدركت بشكل مفاجىء انها لم تكن شيئاً ليبعدني عن الأدب.

لم أكن أفكر بالقراء وفجأة أدركت أن كل شيء أكتبه سوف تقرأه الآلاف والآلاف في أميركا اللاتينية. وفي هذه اللحظة بالذات أحسست بأن لي «مساهمة» ـ على حد تعبيرك ـ وأن علي واجب هذه المساهمة من وجهة نظر ما. وهكذا جاءت مساهمتي بشكل تلقائي، فقد أحسست نفسي فجأة بأنني ملتزم وأدركت أن مصير أميركا اللاتينية من وجهة نظري هو الاشتراكية، وهي ليست اشتراكية مستوردة إنما نابعة من طبيعة كل شعب بكل خصائصه. بعدها بدأت الاتصال والسفر وكتابة نوع من القصص القصيرة ذات الطابع المشكلاتي الغاضب نوعاً ما.

وفي هذه الفترة كانت الدكتاتورية العسكرية تتصاعد في الأرجنتين حيث كتبت روايتي «كتاب مانويل». ومنذ هذه اللحظة تطورت الأمور بشكل سريع وأخذت مساهمتي دوراً أكثر حيوية، فقد طلب مني المشاركة في «محكمة برتراند راسل» كلاتيني أميركي في نفس الوقت الذي طلبت فيه المشاركة من غارسيا ماركيز. وكان علينا أن نقوم بعمل مهم هو النضال ضد بينوشيه في تشيلي والدكتاتورية في البرازيل والأرغواي والأرجنتين.

وهكذا طيلة العشر سنوات الأخيرة كنت أحاول في أكثر من مكان في العالم أن أكشف للناس ـ اما بكتابة المقالات أو بالمخاطبة المباشرة أو المشاركة في اللقاءات ـ ما هي الدكتاتوريات في أميركا اللاتينية، وكذلك أن أعمل من أجل التضامن وجمع التبرعات وكل ما هو ضروري في النضال من أجل الوصول إلى الهدف. وفي هذه السنوات الأخيرة طرحت مشكلة حقوق الإنسان نفسها وبشكل دقيق بعد الانتهاكات لحقوق الإنسان في تشيلي والأرجنتين ومشكلة التعذيب والاختطافات والاغتيالات وكل الانتهاكات. وإن طريقتي في المساهمة من بيتي هنا في باريس في كل هذه المواقف هي الاستفادة من أسلحتي ككاتب.

إن مساهمتي والتزامي ككاتب مقروء بشكل كبير في أميركا اللاتينية تفترض نوعاً حاداً من المسؤولية، فأنا عندما أكتب قصة قصيرة أو رواية يمكنني أن أسمح لنفسي بممارسة كل الحريات التي أنا متأكد من أنها تمتعني وتمتع القراء، ولكنني حينما أجلس أمام الآلة الكاتبة

fb/mashro3pdf

وأفكر بكتابة موضوع حول حقوق الإنسان وضد الدكتاتورية، فأنا أحاول أن أزن كل كلمة فيه وأفكر فيها وهنا يصير الالتزام فعلاً دقيقاً جداً وحتى تقنياً.

وأود أن أضيف أخيراً إلى أنه في هذه الحالة أنت تعرف أنه في اليسار لو أخذنا هذه الكلمة بالمعنى الثوري بشكل عام، يوجد دائماً اتجاه لدى السياسيين يصور الكاتب الملتزم بمثل هذا النوع من فعل الالتزام، أي لا يجب أن يكتب إلا حول المواضيع الثورية، وهنا أصبح ـ أنا شخصياً ـ عاجزاً كلياً لأنني كائن جمالي يكتب القصص القصيرة والروايات ومن هنا لا يمكن لأحد قط أن يفرض علي موضوعاً أو اتجاهاً.

لقد توصلت بنفسي إلى بعض وجهات النظر والموازين والاتجاهات التي تسير مع الاشتراكية ولكن ابتداء من هذه النقطة التي أعمل فيها ككاتب كما أفهم هذا الواقع. أي انني أقيم فصلاً واضحاً جداً بين العمل الإبداعي الجمالي حيث أكتب أشيائي بحرية كاملة ليس لها أي علاقة بالمساهمة أو الالتزام، وما أقوم به بشكل مواز من نشاطات في مؤتمرات ولقاءات إعلامية حيث تصبح مساهمتي سياسية ١٠٠٪.

وإذا كنت أؤكد على هذه الكلمات فذلك لأنني في السابق متهم بأنني الـ «بلاي بوي» لعدم تركيزي كلياً على العمل الثوري. غير أني لا أعرف كاتباً واحداً صالحاً لهذا المثل كأن يكون مركزاً ١٠٠ ٪ للعمل الثوري. لا أعرف أحداً في أميركا اللاتينية. إن الكتاب الذين لا يمارسون إلا السياسة في أميركا اللاتينية هم كتاب بائسون أو صحافيون يتصورون أنفسهم كتاباً.

■ **إنك تتحدث عن وعي شبه مطبق. فما هو حجم فرويد إذن في العمل الأدبي؟**

□ إن له دوراً كبيراً ومهماً. أنت تعرف أن جانباً كبيراً من قصصي القصيرة هي نتائج أحلام أو كوابيس. كانت هذه المشاهدات بعد اليقظة بدايات وخطوطاً عريضة لقصصي. فعلى سبيل المثال في كتابي الأول الذي نشرته وأنا أغادر الأرجنتين كانت أول قصة قصيرة فيه ـ وقد نجحت كثيراً ـ عنوانها «البيت المحتل» وهي حكاية زوجين يسكنان في بيت وفي يوم ما دون أن يعرفا السبب سمعا ضجيجاً يصدر من الغرفة المجاورة. أغلقا الباب وانتقلا إلى الجهة الأخرى وبدآ يتعودان على العيش في هذه الجهة، دون أي تفسير لما حدث ودون أن يتساءلا عن هوية أولئك الذين احتلوا الجزء الآخر من البيت. وشيئاً فشيئاً يطردون من البيت (طول القصة أربع صفحات) فإن هذه الضجة التي دخلت البيت أخذت تنمو وتتصاعد بشكل تحتل فيه كل جزء، الأمر الذي يضعهم خارجاً. كانت هذه القصة في واقعها حلماً رأيته على شكل كابوس، وكما يحصل لي عادة في الكوابيس أول الأمر أشعر بالخوف دون أن أعرف حقيقة ما يجري، هل وحش أم ماذا؟ ثمة شيء لا نعرف أن نسميه. لقد حلمت بهذا الكابوس وحال استيقاظي كتبت هذه القصة. هذا هو جوابي وستكون لفرويد كلمة بالتأكيد حول هذه الحالة.

■ **ليس الأمر كذلك كما أعتقد. لأنك هنا أيضاً تتحدث عن الوعي. فأنت تستيقظ من حلمك ثم تروي هذا الحلم. وهذا ليس فرويد بالرغم من العلاقة الظاهرة مع الحلم. قبل قليل وأنت تتحدث عن شخصية كنت تكرهها في البداية ولكن دون أن تدري تطورت هذه**

fb/mashro3pdf

الشخصية واكتشفت فجأة أنك تحبها وهي شخصية رائعة. في هذه النقطة بالذات أنت أقرب إلى فرويد.. إن هذه المسافة الزمنية من الكتابة التي لم تعها، هذه الفجوة في الوعي هي التي تصور إلى حد ما الجانب الذي تعارف على تسميته «الفرويدي» في العملية الإبداعية. إنها لحظة أكثر عتمة وضبابية.

□ لقد تكونت لي فكرة مطاطية جداً عن الوعي عندما ينتقل إلى اللاوعي وما قبل الوعي. أنت تعرف ـ هناك الكثير من لا يصدق ذلك ولكنه واقع ـ إن ٩٠٪ من قصصي أستطيع أن أقول عنها انني لست أنا الذي أكتبها. كانت الحالة التي ذكرتها سابقاً كابوساً وقد كتبته من بعد، ولكن هناك حالات أخرى كأن أتمشى في شارع أو أجلس في مقهى ويحصل لي فجأة ما أسميه بـ حالة ليست القصة كلها تحضرني إنما حالة أولية؛ رجل أو امرأة أو كلب يدخل أرى كل هذه الأشياء تتحرك أمامي. إنني شديد التعلق بالتصور وأنا أقول لك إنني لم أفهم هذه الحالة التي تضعني فجأة أمام شاشة فيها أشياء تتحرك. عندي قصة قصيرة اسمها «الأسلحة السرية»؛ أتذكر أنني كنت أتمشى قرب ساحة «سان سولبيس» ودخلت إلى مقهى صغير ومنه كنت أنظر إلى نافذة في الطابق الثالث لعمارة مقابلة. لم يكن في النافذة أحد ولكن فجأة تصورت غرفة فيها فتاة جميلة وشاب يدخل إليها لأنه يحبها وهي تحبه، وقد جاء إليها لينام معها للمرة الأولى، وكانت موافقة، وفي هذه اللحظة رأيت أن نوعاً من الرعب انتابها ورفضته. أما هو فلم يفهم هذه الحالة... عدت إلى البيت بعدها وبدأت كتابة هذه القصة.. ولو تتأمل في بدايتها لوجدتها مترددة لأنني كنت أبحث على الدوام عن كيفية تناولها. تداعت الجمل الواحدة بعد الأخرى، وصارت قصة مليئة بالمعاناة، والشيء الغريب أيضاً هو في البدء جاءت إشارة إلى بندقية صيد ولكنها وردت مجرد صورة للتشبيه في جملة عارضة ولا تشكل جزءاً من القصة، وبعد مواصلة الكتابة وتطور أشكال الشخصيات ـ طول القصة ١٠ صفحات كتبتها خلال يومين ـ نسيت تماماً بدايتها وفي آخرها شخص ما يقتل ببندقية. وأنا عندما كتبت ذلك لم أكن أتصور أو أعرف أنني في الصفحة الثالثة قد أشرت إلى هذه البندقية، ولهذا عندما أعدت قراءة القصة لتعديلها شعرت بالخوف وقلت لنفسي كيف حصل هذا بعد أن نسيت كلياً هذه الاشارة التي كانت مجرد شيء ثانوي، وكيف صارت في النهاية شيئاً أساسياً. عندها قلت لنفسي ربما لست أنا مؤلف القصة ثمة شخص ما يمليها علي وهي تمر خلالي.

■ **والرواية؟**

□ شيء مختلف. في الرواية تحصل لي لحظات أتحمس فيها كثيراً. في نهاية رواية «ميريل» تعذبت كثيراً لقد كنت أعمل طوال الليل.. تفترض الرواية في الغالب...

■ **مشروعاً؟..**

□ نعم، مسودة أو مشروعاً..

■ **ولهذا السبب تفضل القصة القصيرة..**

□ أعتقد ذلك. أعتقد أن القصة القصيرة هي أكثر تلقائية عندي فهي تأتيني بشكل تلقائي كلياً.

fb/mashro3pdf

■ **وفي الرواية تحضر مسودة طويلة قبل أن تبدأ بالكتابة؟**

□ لا . . لا، هذه أيضاً صيغة عامة. عندما كتبت «كتاب مانويل» كان للشخصيات شكل مشروع مضبب نوعاً ما. وإنه فقط بعد كتابة الفصل الثالث بدأت أرى بشكل واضح كيف ستتطور نهاية الأحداث ولكن لم أكن أعرف نهايتها بالضبط. يقال ان اميل زولا كان يحضر مسودات على شكل كارتات ويضع على مكتبه كل هذه الكارتات ويكتب أما أنا فلا أستطيع ذلك. إنني أترك الأشياء تقرر بنفسها.

■ **نريد أن ننتقل معك إلى الحديث عن موضوع مهم لم نتطرق له وهو المنفى. نريد أن نعرف تجربتك الخاصة فيه؛ ما هو هذا المنفى، ما هي قوته واسطورته؟**

□ يمكنني أن أجيبك بالقول أن المنفى حقيقة كبيرة. لأنه يحتوي على تشكيلات مختلفة. هناك أناس يقولون بأنهم منفيون دون أن يكونوا كذلك. وعلى سبيل المثال فإن اليمين في أميركا اللاتينية لأسباب سياسية يعتبرني منفياً منذ عشرين أو خمسة وعشرين عاماً. وهذا الموقف بالنسبة لي يعني انتقاصاً لأنه لا يأخذ بنظر الاعتبار ما كتبته عن أميركا اللاتينية طيلة هذه الفترة. وهم يريدون بذلك محاربتي في وصفي بكلمة منفي بالمعنى السيء للكلمة محاولين إعطاءها صفة انتقاصية. وفي هذا خطأ في فهمنا للمفردة وهذا ليس مهماً.

توجد أيضاً حالة رامبو. إن رامبو يقرر الرحيل ويرحل كما قررت أن أترك الأرجنتين وكل منا يمكنه أن يفعل ذلك ويترك بلاده. إذن هل يمكن أن نضع كلمة سفي هنا مقابل شخص طرد من بلاده بالعنف من قبل أجهزة القمع. لا أعتقد أن هناك مقارنة. ولو أضفنا كلمة منفي طوعي كحالة رامبو وحالتي إلى ما قبل سبع سنوات ـ سبع سنوات لا أستطيع العودة إلى الأرجنتين ـ لصح التعبير.

إن كلمة منفي بالنسبة لي ذات بعد قسري والمنفي هو الذي يطرحه. هذا هو الشيء الأول. إذن كل المنفيين بحكم الإرادة أو التفضيل أو المزاج ليسوا منفيين. ويمكن أن نسميهم، مغتربين . . أناساً تركوا بلادهم وإلا لأصبح كل من يترك بلاده للعمل خارجاً منفياً.

■ **إن المشكلة تتحدد في نوعية وطبيعة السلطات والضغوط التي تضطر الفرد التنازل وترك بلاده. أنت تتحدث مثلاً عن السلطات السياسية، يمكن أن تكون هناك سلطة اقتصادية أو اجتماعية تضع الفرد خارج حدود بلاده؟**

□ هذا صحيح. وهذا هو الشيء الذي يجعل من كلمة منفي حقيقة. لأن هناك كل أنواع المبررات. إنني أتصور في نطاق لقائنا هذا، أنكم تقصدون المنفى السياسي. أي المنفى لأسباب القهر والقوة. إن وجود ٧٠٠ ألف أرجنتيني موزعين في الخارج لأنهم إذا عادوا سيقتلون هذا هو المنفى بالنسبة لي.

■ **هذا وأيضاً أن تعيش زمناً بلا وطن . . .**

□ نعم هذه هي النتيجة المباشرة للمنفى، والمشكلة التي تتسبب عنه. وما تقول الآن يهمني. في السنوات الأخيرة كنا كثيراً ما نتداول أنا وأصدقائي الشيليين والأورغوانيين والأرجنتينيين عن المنفى محاولين أن نرى أنه إذا لم يكن من الأفضل أن نعيد النظر في تحديد

fb/mashro3pdf

موقعنا كمنفيين من خلال النقد الذاتي. إن الذي يحصل في بلدان كشيلي والأرجنتين عندما تقوم الدكتاتوريات بارغام الناس على ترك أوطانهم وتحولهم إلى منفيين هو أن الدكتاتوريات هذه تمارس لعبة محددة. وهي واضحة. إنها تظن أن هؤلاء المطرودين سوف لن يحصلوا على عمل وعلى مال كاف وستتدهور حالتهم أياً كانوا؛ فنانين أو أناساً عاديين. وهكذا لأسباب مالية سيتوقفون عن الكتابة والإنتاج بعد ثلاث سنوات على أحسن الأحوال ويسقطون من بعد. إن الكارت الذي تلعبه هذه الدكتاتوريات من وراء هذا المنفى هو تحطيم الشخص عندما لا تستطيع أن تقتله لأسباب عديدة أو أن الشخص نفسه يفلت، وهذا المنفى هو طريقة لقتله ببطء. وهنا يأتي السؤال ماذا سيكون واجبنا وموقفنا؟ إن علينا أن نقلب كل هذه المعطيات ويجب أن تعرف هذه الدكتاتوريات العسكرية انها لم تنجح في نفينا. على العكس إننا نصنع الآن من منفانا قيمة إيجابية وإننا سنواصل العمل والنضال من الخارج بكل ما لا نستطيع القيام به في الداخل. وهذه حركة أعطت نتائج كبيرة.

■ **بهذا المعنى أنت منفي سياسي الآن؟**

□ نعم الآن. لقد كانت هناك حالتان: الأولى هي أنني لم أكن أشعر في السابق أنني منفي، لأنني كنت أعود إلى الأرجنتين متى شئت. لم أسم هذا منفى قط. والآن أعرف أنني لو عدت فلن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً ضدي لأنني معروف جداً وسيسبب لهم ذلك فضيحة عالمية. ولكنني لست غبياً لأقرر الذهاب في هذه الظروف لأن «الحوادث» تقع بسرعة. ولهذا فأنا اليوم أعتبر نفسي منفياً ما دام العسكر موجوداً في السلطة، في الأرجنتين وهذه هي الحالة الثانية.

لكنني أؤكد على الجانب الإيجابي في المنفى وهو الذي ذكرته قبل قليل. لأننا حال ما نفكر بالمنفى فإن حالة من السلبية تنطبع على صورة المنفي في الغالب. . المنفي هو المهجور، الذي يعاني بالرغم من أن هذا صحيح. ثم إن هناك المنفى الداخلي. . حقاً إنه يوجد ٧٠٠ ألف منفي أرجنتيني في الخارج ولكن هناك شعباً بكامله منفيًا في الداخل، شعباً غير قادر على التعبير، تهدد حياته المخاطر ويعيش تحت طقس من الرعب والحذر. . هؤلاء هم منفيو الداخل من وجهة النظر السياسية.

الياس خوري
شوقي عبد الأمير

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

إلى جان بارنابيه

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الليل في مواجهة السماء

«وفي عهود معينة، كانوا يذهبون لطرد العدو: كان هذا يسمى الحرب المزهرة».

حين أصبح في منتصف رواق الفندق الطويل فكر في أن الوقت لا بد قد تأخر، وحث خطاه لكي يذهب ويمتطي دراجته النارية في الزاوية التي كان يسمح له البواب المجاور بأن يوقف دراجته فيها. وفي متجر الحلى على الزاوية رأى أن الساعة كانت التاسعة إلاّ عشر دقائق، فهو سيصل قبل الموعد. وكانت الشمس تتسرب بين مباني الساحة، العالية وهو ـ لأنه، بالنسبة لذاته، لكي يفكر، لم يكن لديه اسم ـ ركب آلته وهو يتمتع مسبقاً بالنزهة. كانت الدراجة النارية تهدر بين ساقيه وهواء طازج يلفح بنطاله.

ورأى مرور أبنية الوزارات (الوردية، البيضاء) وصف المخازن ذات الواجهات المتلألئة، في الشارع المركزي. كان يقترب الآن من أمتع قسم من مشواره، حيث النزهة الحقيقية: شارع طويل، قليل العبور، تكتنف جانبيه أشجار وفيللات واسعة جداً كانت حدائقها المحاطة، بالكاد، بأسيجة صغيرة واطئة، تهبط حتى الأرصفة. كان ساهياً بعض الشيء، ربما، لكنه يلزم يمينه بتعقل، ويستسلم للتألق الملمّع، وللتوتر الخفيف لهذا النهار في أوّل بدايته. ولعل هذا الارتخاء غير الارادي هو الذي منعه من تلافي الحادث. حين رأى المرأة الواقفة على جانب الرصيف تنطلق على قارعة

fb/mashro3pdf

الطريق، بالرغم من الضوء الأخضر، لم يعد مسيطراً على ما سيحدث، كبح العجلتين وانعطف نحو اليسار، وسمع المرأة تصرخ، ثم، في لحظة الصدمة، أصبح كل شيء أسْوَد. كان الأمر، وكأنه أغفى فجأة.

عاد بغتة إلى وعيه. كان أربعة أو خمسة شبان يقومون بسحبه من تحت الدراجة النارية. كا في فمه طعم ملح ودم، ويحس ألماً في إحدى ركبتيه، وحين أُنهِض، صرخ لأنه لم يعد يستطيع أن يتحمل أدنى لمسة لذراعه اليمنى. كانت أصوات لا يبدو أنها تنتمي إلى الوجوه الطافية فوقه تشجعه مازحةً وهي تطمئنه. وكان عزاؤه الوحيد هو أنه سمع القول بأنه كان محقاً في اجتيازه المفترق. وسأل عن حالة المرأة محاولاً التغلب على الغثيان الذي كان يصعد إلى حلقه. وحُمل ووجهه مقابل السماء إلى الصيدلية المجاورة، وأثناء الطريق، أُبلِغ بأن ضحيته لم تصب إلاّ بخدوش في الساقين: «لقد لامستها بالكاد، لكن الصدمة قد ألقت بالدراجة جانباً...». وكان كل شخص يعطي رأيه: على مهل، أدخلوه القهقرى، هكذا، هذا جيد. وسقاه رجل ذو بذلة بيضاء شيئاً هَدَّأه، في النور الخفيف لصيدلية صغيرة في الحي.

وصلت سيارة الاسعاف التابعة للشرطة، بعد ذلك بخمس دقائق، ووُضِع على حمّالة لينة حيث استطاع أن يتمدد على هواه. كان صاحياً تماماً ـ مع معرفته أنه تحت تأثير صدمة فظيعة، وأعطى عنوانه للشرطي الذي كان قربه. لم تعد ذراعه تؤلمه تقريباً، ومن جرح في حاجبه، كان دم يسيل على وجهه كله، وأمرَّ مرة أو مرتين لسانه على شفتيه لاحساً الدم. كان يحس بارتياح، كان الأمر حادثاً، وسوء حظ، وبعد بضعة أسابيع من الراحة، سيزول كل أثر للحادث. وقال له الشرطي إن الدراجة النارية لا يبدو عليها أنها أصابها كثير من التلف، فأجابه: «طبعاً، فقد سقطت فوقي». ضحكا كلاهما، ومد الشرطي يده نحوه لدى وصولهما إلى المستشفى، وتمنى له حظاً طيباً. كان الغثيان يعود شيئاً فشيئاً، وحُمِل على عربة نحو جناح في مؤخرة المستشفى، ومر تحت أشجار تعجُّ بالعصافير؛ أغمض عينيه وتمنى أن ينام أو

fb/mashro3pdf

أن يُخَدَّر بالكلوروفورم. لكنه أبقي وقتاً طويلاً في غرفة لها رائحة المستشفى، لكي يملأ بطاقة، ثم نُزِعَتْ ثيابه وألبس قميصاً رمادياً وخشناً. وحركوا ذراعه باحتراس، دون إحداث ألم له. لم تكن الممرضات يتوقفن عن المزاح، ولولا مغص المعدة، لأحسّ بأنه في حالة جيدة جداً، وأنه مسرور تقريباً.

ونُقل إلى التصوير بالأشعة، وبعد عشرين دقيقة، وكانت الصفيحة المعدنية التي ما زالت رطبة موضوعة على صدره مثل بلاطة سوداء، أُخذ إلى غرفة العمليات. واقترب منه رجل كل ثيابه بيضاء، طويل القامة ونحيل، وأخذ يتفحص الصورة الشعاعية. كانت أيدي نساء تسوّي وضع رأسه بصورة مريحة، وأحس بأنّه يوضع على نقّالة أخرى. واقترب منه مجدداً الرجل اللابس الأبيض، وهو يبتسم ويمسك بيده شيئاً يلمع. وربت الرجل على خده، ووجه إشارة إلى شخص ما، كان وراءه.

كان حلماً عجيباً، ذلك لأنه كان مفعماً بالروائح، وهو لم يكن يحلم أبداً بروائح. في البدء فوح مستنقعات، فإلى يسار الطريق، كانت تمتد المستنقعات، هذه الحفر الموحلة التي لم يكن يعود منها أحد. لكن الرائحة اختفت، وحل محلها عطر معقد، معتم مثل الليل حيث كان هو يتحرك، يطارده الأزتيك، وكان هذا يبدو له طبيعياً تماماً. كان ينبغي الفرار من الأزتيك الذين كانوا يصطادون الانسان، وكانت فرصته الوحيدة هي أن يستطيع أن يختبىء في أكثف مكان من الغابة، مع الحرص على أن يبتعد عن الطريق الضيقة التي كان يعرفها الموتيك، هم وحدهم.

لكن أكبر تعذيب له، كان هذه الرائحة، وكأنما، بالرغم من قبوله التام للحلم، كان شيء ما في داخله يثور ضد هذا التدخل غير الاعتيادي. «هذه رائحة حرب» هكذا فكر، ولمس غريزياً الخنجر الحجري المغمد في حزامه الصوفي المضفور. وجعلته ضجة مفاجئة يخفض جسمه، وانتظر ساكناً، مرتجفاً. أن يحس بالخوف، لم يكن شيئًا غريباً، فالخوف كان كثيراً ما يعاوده في أحلامه. وانتظر، مستتراً بأغصان شجيرة وبالليل الخالي من النجوم.

fb/mashro3pdf

وبعيداً جداً، من الجانب الآخر للبحيرة الكبيرة، بلا شك، لا بد أن نيران المخيم كانت مشتعلة؛ كان ضياء محمرّ يصبغ السماء، هناك. ولم تتجدد الضجة. لعله حيوان، يفر مثله من رائحة الحرب. ونهض مجدداً ببطء، متشمماً الهواء. لم يعد يُسْمَع شيء، لكن الخوف بقي، مثل الرائحة، بخوراً باهت اللطف، للحرب المزهرة. كان عليه أن يواصل طريقه، وأن يصل إلى قلب الغابة، متلافياً المستنقعات. وخطا بضع خطوات متلمساً، منحنياً في كل لحظة ليلمس أرض الطريق الصلبة. كان يريد أن يركض بأقصى سرعة، لكن الرمال المتحركة كانت تخفق قربه. واستأنف سيره على مهل متتبعاً الدرب في الظلمات. وفجأة تلقى على كل وجهه نفحة من تلك الرائحة الفظيعة التي كان يخشاها أكثر من كل شيء، وقام بقفزة يائسة إلى الأمام.

ـ سوف تسقط عن السرير، هكذا قال له المريض الراقد بجواره، وأضاف: لا تتحرك هكذا بشدة، يا صديقي.

فتح عينيه، كان الوقت متأخراً، وكانت الشمس قد هبطت عبر الفرجات الزجاجية للقاعة الطويلة. حاول أن يبتسم لجاره في حين كان ينفصل، جسدياً تقريباً، عن صور الحلم الأخيرة. كانت ذراعه، المجصصة، معلقة بجهاز مزود ببكرات وقطعة ثقيلة. كان عطِشاً، وكأنه ركض طوال عدة كيلومترات، لكنهم لم يكونوا يريدون أن يعطوه كثيراً من الماء، وبالكاد ما يبلل شفتيه ويكفيه لاحتساء جرعة. كانت الحمى تجتاحه ببطء، وكان يستطيع أن يعاود النوم، لكنه كان يتذوق متعة البقاء مستيقظاً، وعيناه نصف مغمضتين، وهو يصغي إلى أحاديث المرضى الآخرين، ويجيب بين حين وآخر على سؤال. ورأى وصول طاولة نقالة بيضاء كانت تدفع إلى جانب السرير. وفركت ممرضة شقراء بالكحول أعلى ساقه، وغرست فيه إبرة ضخمة موصولة بواسطة أنبوب بقارورة، مملوءة بسائل لبني اللون. وجاء طبيب شاب وألصق جهازاً من المعدن والجلد على ذراعه السليمة للتحقق من شيء ما. كان الليل يهبط، والحمى تجره برخاوة نحو حالة حيث للأشياء نتوء مماثل لذلك الذي تعطيه نظارات المسرح، كانت الأشياء حقيقية ولطيفة، وأيضاً

fb/mashro3pdf

منفّرة قليلاً، بعض الشيء مثل فيلم ممل، لكن المتفرج يبقى، لأن الأمر في الشارع هو أسوأ أيضاً.

وأُحضر له قدح من حساء ذهبي رائع تفوح منه رائحة الكراث والكرفس والبقدونس. وقد فُتّ فيه شيئاً فشيئاً قطعة من الخبز أثمن من مأدبة كاملة. لم تعد ذراعه تؤلمه؛ أحياناً فقط كانت ضربة مشرط، حارة وسريعة تخطط حاجب العين حيث أحدثت عدة قطب. وحين أصبحت الفرجات الزجاجية المواجهة لسريره بقعاً زرقاء قاتمة، فكر في أنه سينام بسهولة. وليس براحته التامة على ظهره. لكنه حين أمرّ لسانه على شفتيه الجافتين والملتهبتين، أحس بطعم الحساء واستسلم إلى النوم وهو يتنهد سعادةً.

كان يشعر بأنه يركض في ظلمة عميقة، مع أنه كان هناك ظلام أقل فوق السماء التي تتخللها ذرى الأشجار. «الطريق، هكذا راح يفكر، لم أعد على الطريق». كانت قدماه تغوصان في فراش من الأوراق والوحل، وكان ما أن يخطو خطوة، حتى تجلد أغصان شجيرات جذعه وساقيه. كان لاهثاً، يحس أنه هالك رغم الظلمات والصمت، وانحنى لكي يصغي. ربما كانت الطريقة على مقربة تماماً، وسوف يراها مجدداً عند أنوار النهار الأولى، ولكن لم يكن يمكن لشيء أن يساعده في العثور عليها. إن اليد التي كانت تشد، دون أن يشعر، على مقبض الخنجر، تسلقت مثل عقرب المستنقعات حتى عنقه الذي تتدلى منه التعويذة الحامية. وحرك بالكاد شفتيه وتمتم بصلاة الذرة الصفراء التي تأتي بالأقمار السعيدة، وتوسل إلى «العالية جداً» موزّعة الخيرات الموتيكية. لكنه كان يحس في الوقت نفسه بأن عقبيه يغوصان في الوحل، ببطء، وقد أصبح الانتظار في ظلمات هذا الدغل المجهول لا يُطَاق. لقد بدأت الحرب المزهرة مع القمر الجديد وكان قد مضى على استمرارها ثلاثة نهارات وثلاث ليال. إنه لو استطاع الوصول إلى قلب الغابة، وراء منطقة المستنقعات، فربما سيفقد المحاربون الأزتيك أثره. وفكر في الأسرى العديدين الذين لا بد أنهم أخذوهم حتى الآن. وعلى كل حال لم تكن الكمية مهمة، وكان ينبغي أن يكون الوقت المحدد قد مر،

fb/mashro3pdf

الوقت المقدس . وسوف تستمر المطاردة إلى أن يعطي الكهنة إشارة العودة ، كان كل عمل يحمل في ذاته رقماً ، وغاية محددين سلفاً ، وكان ، هو ، في داخل هذا الوقت المقدس ، في مواجهة المطاردِين .

سمع صيحات ونهض بوثبة ، وبيده الخنجر . وبدت السماء تشتعل في الأفق ، ورأى مشاعل تتحرك بين الأغصان ، على مقربة منه . كانت رائحة الحرب لا تطاق ، وحين انقض عليه العدو الأوّل ، أحس بلذة تقريباً بدسّ خنجره الحجري في صدره ، كانت الأضواء قد أحاطت به ، والصيحات الفرِحة . وشق الهواء مرة أو مرتين أيضاً ، ثم أمسكه حبل من الخلف .

ـ إنها الحمى ، هكذا قال جاره في السرير . وأضاف : لقد أصابتني كوابيس مثلك حين أجريت لي عملية في المعي الاثني عشري . اشرب قليلاً من الماء وستنام بصورة أفضل ، وسترى .

بعد الليل الذي كان يعود منه ، بدا له ظليل الغرفة الدافىء ممتعاً لذيذاً . كان مصباح بنفسجي ساهراً في أعلى الجدار الداخلي مثل عين حارسة . كان يسمع سعالاً وتنفساً شديداً ، وأحياناً حواراً بصوت منخفض . كان كل شيء ممتعاً ، مطمئِناً ، لولا هذه المطاردة ، لولا . . . لكن ما كان ينبغي التفكير في الكابوس ؛ كان باستطاعته أن يتسلى بكثير من الأشياء المسلية الأخرى . وراح يتفحص جص ذراعه ، والبكرات التي تمسك به بسهولة كبيرة في جو الغرفة . وكانت قد وضعت زجاجة من المياه المعدنية على الطاولة الليلية . وشرب من عنق الزجاجة ، بشراهة وتلهف . كان يتميز الآن أشكال الغرفة ، والأسرّة الثلاثين ، والخزائن المزجّجة . لا بد أن الحمى قد انخفضت ، وأخذ يحس بوجهه أكثر نداوة ، ولم يعد حاجبه يؤلمه تقريباً ، وأصبح الألم ذكرى ضعيفة . وتصور نفسه مجدداً ، لحظة خروجه من الفندق ، حين كان يمتطي الدراجة النارية . من كان يمكن أن يفكر بأن الأمر سينتهي على ذلك النحو؟ وحاول أن يتذكر لحظة الحادث ، واضطر لأن يعترف لنفسه بغضب شديد أن ثمة هنا ما يشبه الثقب ، إنه فراغ لن يتمكن من ملئه . هناك بين الصدمة واللحظة التي أنهض فيها ، فترة إغماء ، أو شيء ما ، آخر ، يمنعه من تحديد

fb/mashro3pdf

الموقف. وكان لديه في الوقت نفسه الانطباع بأن هذا الثقب، هذا الشيء، قد استمر أبدية. كلا، لم يكن ذلك حتى زمناً، والأصح أنه، كما أنه، في هذا الثقب، في هذه الفجوة، قد اجتاز مسافات هائلة، خياليّة. الصدمة، الضربة الفظة على أرض الشارع. وقد أحس إثر ذلك بنوع من الارتياح لدى خروجه من البئر السوداء، حين كان الرجال ينهضونه. وبالرغم من ألم الذراع المكسورة، وبالرغم من دم حاجب العين، ومن كدمة الركبة، بالرغم من كل هذا، كان يحس بارتياح لعودته إلى الضوء، وبأن يشعر بأنه مساعَد (بفتح العين) ومُغاث. كان الأمر غريباً. إنه سوف يسأل في هذه المناسبة طبيب المكتب. والآن، ها هو النوم يسيطر عليه مجدداً، ويجره على مهل نحو القاع. كانت الوسادة لينة جداً، وفي حلقه المحموم، نداوة الماء المعدني. ربما كان باستطاعته أن يرتاح حقاً، لولا هذه الكوابيس اللعينة. وفي الأعلى، كان ضوء المصباح البنفسجي ينطفىء شيئاً فشيئاً.

ولما كان قد رقد وهو ممدد على ظهره، فإن الوضع الذي وجد نفسه فيه مجدداً لم يفاجئه. كانت رائحة رطوبة، وحجر يرشح، أمسكته من حلقه وأرغمته على استعادة الوعي تماماً. لا فائدة من أن يفتح عينيه وينظر حوله، كان غارقاً في ظلام تام. وأراد أن ينهض وأحس بحبال تقيد قبضتيه وعقبيه. كان مقيداً بالأرض على بلاطات كبيرة، مجلوة ورطبة. كان البرد يستولي على ظهره العاري، وعلى ساقيه. وبصعوبة بحث عن تعويذته في عنقه، وفهم بأنها انتزعت منه. لقد كُتب الهلاك عليه هذه المرة، ولم يكن بوسع أية صلاة أن تنقذه مما كان ينتظره. وسمع في البعيد قرع طبول الاحتفال، هذا الصوت الذي كان يتسرب بين حجارة الزنزانة. لقد حُبس في التيوكاللي، وكان في سجون المعبد، وكان ينتظر دوره.

وسمع صياحاً، إنها صيحة بحّاء تواثبت على الجدران. ثم صيحة أخرى، انتهت بأنين. كان هو الذي يصرخ في الظلمات، كان يصرخ لأنه كان حياً؛ كان جسده كله يدافع عن نفسه بهذه الصرخة ضد ما سيأتي، ضد النهاية الحتمية التي لا مردَّ لها. وفكر في رفاقه المكدسين في زنزانات

fb/mashro3pdf

أخرى، وفي أولئك الذين بدأوا يرتقون درجات الأضحية. وأطلق صرخة أخرى، مخنوقة؛ لم يعد يستطيع تقريباً أن يفتح فمه، وكان فكاه ملتصقين كما لو كانا من المطاط، ولم يمكنهما أن ينفتحا إلاّ ببطء، في جهد لا نهاية له. وهزه صرير المزاليج مثل ضربة سوط. واضطرب متحركاً بجنون محاولاً التخلص من الحبال التي كانت منغرسة في لحمه. كانت ذراعه اليمنى على الأخص تصارع، ولكن حين أصبح الألم لا يطاق أرغم تماماً على الاستسلام. ورأى الباب ذا المصراعين ينفتح، ووصلت إليه رائحة المشاعل قبل ضوئها. إنّ مساعدي الكهنة، المزنرين بالتنانير الهندية الطقوسية، اقتربوا منه وهم يحدجونه بازدراء. وكانت الأضواء تنعكس على جذوع المقاتلين المكسوة بالعرق، وعلى الجياد السود المشكوكة بالريش. انحلّت الحبال، وأحس بأن أيادي حارة، صلبة كالبرونز، تمسك به؛ ورُفِع، ووجهه دائماً مقابل السماء، وحمل على طول الرواق. كان حَمَلة المشاعل يسيرون في المقدمة، مضيئين بغموض الممر ذي الجدران الرطبة والقبة المنخفضة جداً، بحيث كان على مساعدي الكاهن أن يخفضوا رؤوسهم للمرور. كانوا يأخذونه الآن، كانوا يأخذونه، إنها النهاية. وجهه في مقابل السماء على بعد متر واحد من السقف المنحوت من نفس الصخر، والذي كان يتوهج أحياناً بانعكاس ضوء أحد المشاعل. وحين ستبرز، بدلاً من السقف، النجوم، وينتصب أمامه السلّم الكبير المشتعل بالصرخات والرقصات، ستكون النهاية. كان الرواق لا نهاية له، لكنه سينتهي، ورائحة الهواء الطلق المخرّق بالنجوم ستضربه بغتة في وجهه. ولكن ليس بعد، كانوا ما يزالون يحملونه، وهم يهزونه، ويعاملونه بفظاظة، على طول هذا الظليل الأحمر الذي لا نهاية له. كان كل كائنه يتمرد منتفضاً ولكن كيف يمكن تلافي الحتمي الذي لا مردّ له، بما أن تعويذته قد انتزعت منه، تعويذته، قلبه الحقيقي، ومركز حياته بالذات.

وجد نفسه مجدداً، بوثبة، في ليل المستشفى، تحت السقف اللطيف المرتفع، في الظل الوادع. قال في نفسه إنه لا بد أنه صرخ، لكن جيرانه كانوا راقدين في صمت عميق. وعلى الطاولة الليلية، كانت الزجاجة تشبه

fb/mashro3pdf

فقاعة الصابون، أو صورة شفافة مقابل عتمة النوافذ الضاربة إلى الزرقة. تنفس بعمق ليحرر رئتيه، وليطرد هذه الصور التي كانت ما تزال ملتصقة بجفنيه. وكان كلما أغمض عينيه يرى تلك الصور تتشكل مجدداً وعلى الفور، فيعاود النهوض، مرتعباً، وهو يتذوق في الوقت نفسه لذة الشعور بأنه الآن مستيقظ. كانت اليقظة تحميه، وعما قريب سيشرق النهار وسيعاود النوم برقاد الصباح، هذا الرقاد الطيب العميق، الخالي من الصور ومن أي شيء . . . كان يجد صعوبة في إبقاء عينيه مفتوحتين، والاغفاء يستولي عليه رغماً عنه. وبذل جهده الأخير بيده السليمة للامساك بزجاجة الماء؛ لم يستطع الوصول إليها، وانطبقت أصابعه على فراغ أسود، وكان الرواق مستمراً، بلا نهاية، صخراً بعد صخر، مضاءً بأنوار محمرّة مباغتة، وهو، ووجهه مقابل السماء، أطلق الأنين بصوت بهيم، لأن القبة أوشكت أن تنتهي، وكانت تصعد، وتنفتح مثل فم الظلام، وكان مساعدو الكاهن ينتصبون مجدداً، وسقط قمر بشكل هلال من أعلى السماء على وجهه، على عينيه اللتين لم تكونا تريدان رؤية الهلال، وكانتا تنطبقان وتنفتحان بيأس مع محاولة المرور من الجهة الأخرى، ومحاولة أن يرى مجدداً السقف الحارس، سقف قاعة المستشفى. ولكن في كل مرة كان يفتح عينيه، كان يواجهه مجدداً الليل والقمر، وكان يُحمَل على طول سلّم، ورأسه منقلب إلى الوراء، وهناك في الأعلى كانت المحارق، والأعمدة الحمراء من الدخان العَطِر، وفجأة رأى الحجر الأحمر، اللامع من الدم الطازج، وحركة قدمي الشخص ـ الأضحية الذي كان يُجرّ على الأرض حتى السلم الشمالي الذي سيدحرج عليه. وفي أمل أخير، شد بقوة كبيرة جفنيه وجهد للاستيقاظ وهو يئن. واعتقد، لمدة ثانية، أنه سينجح في ذلك، ذلك لأنه كان مجدداً ساكناً بلا حركة، على سريره. إن التأرجح الفظيع، برأس منقلب، قد توقف. لكنه كان يشم رائحة الموت وحين فتح عينيه رأى كاهن الأضاحي المكسو الجسم بالدم يتقدم نحوه، وسكينه الحجرية في يده. استطاع أن يغمض عينيه مرة أخرى، لكنه كان يعرف الآن أن الحلم الرائع كان هو الآخر، العبثي مثل كل الأحلام؛ حلم اجتاز خلاله، وهو ممتط حشرة معدنية ضخمة. الجادات

fb/mashro3pdf

الغريبة الشكل لمدينة مدهشة، مزينة بأضواء خضراء وحمراء تشتعل بلا لهب ولا دخان. وفي هذا الحلم، الأكذوبة اللامتناهية، اقترب أيضاً منه شخص في يده سكّين، اقترب منه هو الذي يرقد ووجهه مقابل السماء، وعيناه مغمضتان، ووجهه مقابل السماء بين المحارق.

* * *

fb/mashro3pdf

السرافيت[1]

كان زمن كنت أفكر فيه كثيراً في السرافيت. وكنت أذهب لمشاهدتها في حويض الأسماك والنباتات في «حديقة النباتات»، وكنت أقضي ساعات وأنا أنظر إليها، وأراقب سكونها. وحركاتها الغامضة. والآن أنا سرفوت.

لقد قادتني الصدفة نحوها في صباح يوم من أيام الربيع، حيث كانت باريس تنشر ذيلها الطاووسي بعد فصل الشتاء البطيء. وقد نزلت بولفار بور ـ رويال، وبولفار سان ـ ميشال، وبولفار سان ـ مارسيل، ثم بولفار «المستشفى»، ورأيت الخضارات الأولى، بين كل الرمادي، وتذكرت الأسود. كنت صديقاً كبيراً للأسود وللفهود، لكنني لم أكن أبداً قد دخلت إلى النطاق المسوّر، الرطب والمعتم. الذي يضم حويضات الأسماك والنباتات. كنت أترك دراجتي مسنداً إياها على الحاجز الحديدي المشبّك وأذهب لمشاهدة أزهار الخزامى. كانت الأسود قبيحة وحزينة، وفهدتي نائمة. فقررت أن أذهب إلى حويضات الأسماك والنباتات، وبعد أن نظرت بلامبالاة إلى أسماك عادية، لقيت، مصادفة، السرافيت. قضيت ساعة وأنا أتأملها، ثم ذهبت، عاجزاً عن التفكير في شيء آخر.

في مكتبة «سانت جنفياف» راجعت أحد القواميس، وعلمت أن السرافيت هي

---

(١) السرافيت: جمع سرفوت axolotl : وهو حيوان زحّاف برمائي قوته الحشرات والهوام. (المترجم).

fb/mashro3pdf

الأشكال الدعموصية، المجهزة بخياشم، وحيوانات برمائية من نوع «الأمبليستون. أمّا كونها من أصل مكسيكي، فقد كنت أعرف ذلك، ويكفي أن أرى وجهها الصغير الأزتيكي. وقرأت أنه قد عثر على نماذج منها في أفريقيا، قادرة على العيش خارج الماء، أثناء فترات الجفاف، وهي تستعيد حياتها الطبيعية في موسم الأمطار. وقد أعطى القاموس اسمها الاسباني ajolote ، وأورد أنها صالحة للأكل، وأن زيتها كان يستعمل (ولم يعد الآن يستعمل) كغذاء مقوّ، مثل «زيت السمك».

لم أشأ أن أراجع مؤلفات متخصصة، لكنني عدت في اليوم التالي إلى «حديقة النباتات». وأصبح من عادتي أن أزورها كل صباح، بل وأحياناً في الصباح والمساء. كان حارس الحويضات يبتسم بارتباك وهو يأخذ بطاقتي. كنت استند إلى القضيب الحديدي المحيط بحافة الحويضات وأنظر إلى السرافيت. لم يكن ثمة شيء غريب في هذا؛ فمنذ اللحظة الأولى أحسست بأن شيئاً ما يصلني بها، شيئاً بعيداً جداً جداً، ومنسياً لكنه ما زال يصل بيننا. لقد كفاني أن أتوقف في صباح أحد الأيام أمام حويض الأسماك والنباتات هذا، حيث كانت فقاقيع تجري في الماء. كانت السرافيت تتجمع على القاع الضيق والبائس (لا يعرف شخص أفضل مما أعرف أنا كم هو ضيق وبائس) القاع المكون من حجر وطحالب. كان هناك تسعة سرافيت، وأغلبها كان يسند رأسه إلى الزجاج، وينظر بعينيه الذهبيتين إلى الذين يقتربون. كنت مرتبكاً، وشبه خجلان، وأعتبر أن من الوقاحة أن أنحني لمراقبة هذه الأشكال الصامتة والساكنة المتجمعة في قاع الحويض. وذهنياً، كنت أعزل أحدها، في موضع بعيد قليلاً إلى اليمين، لكي أدرسه بصورة أفضل. فرأيت جسماً صغيراً ورديّاً، شفّانياً[1] (ذكرني ذلك بالتماثيل الصغيرة الصينية المصنوعة من زجاج لبني اللون)، يشبه عَظاية صغيرة طولها ١٥ سم، وينتهي بذيل سمكة ذات دقة هائلة ـ إنه القسم الأكثر حساسية في جسمنا، وعلى ظهره، كانت زعنفة شفافة متصلة بالذيل؛ لكن القوائم هي التي فتنتني، قوائم ذات دقة ونعومة

(١) الشفاني Translucide : ما هو نصف شفاف. (المترجم).

fb/mashro3pdf

عجيبتين، وهي تنتهي بأصابع صغيرة جداً ذات أظافر ـ بشرية تماماً، دون أن يكون لها مع ذلك شكل اليد البشرية ـ ولكن كيف كان يمكنني أن أتجاهل أنها بشرية؟ وحينئذٍ اكتشفت عيونها، ووجهها. إنه وجه بلا تعبير، ولا ملامح فيه سوى العينين، وهما ثقبان مثل رأس الدبوس، وهما كلياً من الذهب الشفاف بدون أية حياة، لكنهما تنظران ونظرتي تنفذ فيهما، وتمر عبر النقطة المذهبة، وتضيع في سحر شَفّاف. كانت هالة سوداء رقيقة جداً تحيط بالعين، وتدرجها في اللحم الوردي، في الحجر الوردي للرأس المثلث بصورة غامضة، ذي الحوافي المقوّسة وغير المنتظمة، التي تجعل الرأس يشبه تمثالاً قرضه الزمن. وكان الفم مستوراً بالمستوى المثلث للرأس، ومن الجهة الجانبية فقط كان يُلاَحَظ أن الفم كبير. ولدى رؤيته مواجهةً، لم يكن سوى حز رفيع، مثل شق في المرمر. وفي كل جانب من الرأس، بدلاً من الأذنين، كانت تظهر فروع صغيرة جداً، حمراء، مثل المرجان، هي زوائد نباتية، الخياشم، كما افترض. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي له مظهر حي في هذا الجسم. وكل عشرين ثانية، كانت السرافيت تنهض، جامدة تماماً، ثم تنخفض مجدداً. أحياناً، كانت تتحرك إحدى القوائم، بالكاد، وكنت أرى الأصابع الصغيرة جداً تحط بلطف على الطحلب. ذلك أننا لا نحب كثيراً التحرك، فالحويض ضيق جداً؛ ولو تحركنا قليلاً اصطدمنا برأس أو بذيل آخر؛ وتنتج عن ذلك صعوبات، ومنازعات، وتعب. ونحن نكون أقل إحساساً بالوقت، إذا لبثنا ساكنين.

إن سكونها هو الذي جعلني انحني نحوها، مفتوناً، أوّل مرة رأيتها فيها. وبدا لي أنني فهمت بغموض إرادتها الخفية؛ إلغاء المكان والزمان بسكون مفعم باللامبالاة. وإثر ذلك، تعلمت أن أفهمها بصورة أفضل، الخياشم التي تتقلص، والقوائم الصغيرة الدقيقة التي تتحسس على الحجارة، وحركات فرارها المفاجئة والسريعة (إنها تسبح بتموج خفيف للجسم)، قد أثبتت لي أنها قادرة على الفرار من هذا الخَدَر المعدني حيث كانت تقضي ساعات بكاملها. وكانت عيونها على الأخص ترهقني. وإلى جانبها، في الحويضات الأخرى، كانت أسماك تظهر لي البساطة البلهاء لعيونها الجميلة الشبيهة بعيوننا. كانت عيون السرافيت تحدثني عن وجود حياة مختلفة، وكيفية أخرى للنظر. كنت ألصق وجهي على الزجاج (كان

fb/mashro3pdf

الحارس، القلق، يسعل بين حين وآخر) لكي أرى بصورة أفضل النقاط المذهبة الصغيرة جداً، هذه الفتحة على العالم البطيء جداً والبعيد، عالم الحيوانات الوردية. ولا فائدة من ضرب الزجاج بالاصبع، فتحت أنفها، لم يكن هناك أبداً أدنى رد فعل. كانت العيون الذهبية تواصل الاشتعال بنورها اللطيف والرهيب، وتستمر في النظر إلي من عمق لجة لا يسبر لها قرار، تسبب لي الدوار.

بيد أن السرافيت كانت قريبة منا. كنت أعرف ذلك حتى قبل أن أصبح سرفوتاً. لقد عرفت ذلك منذ اليوم الأوّل حين اقتربت منها لأوّل مرة. إن القسمات المشبّهة[1] لدى قرد تبرز الفرق الموجود بينه وبيننا، بعكس ما يعتقد أغلب الناس. إن الانتفاء التام للشبه بين سرفوت وكائن بشري قد أثبت لي أن تعرّفي هو ذو قيمة، وأنني لم أكن أستند إلى تماثلات سهلة. كانت هناك بالتأكيد الأيدي الصغيرة. لكن للعظاية نفس الأيدي، وهي لا تشبه الانسان بشيء. أنا أعتقد أن كل شيء يأتي من رأس السرافيت، من شكله المثلث الوردي وعينيه الصغيرتين الذهبيتين. كان هذا ينظر ويعرف. ويطالب. لم تكن السرافيت حيوانات.

من هنا إلى السقوط في الميثولوجيا، لم يكن يوجد سوى خطوة، من السهل اجتيازها، وهي تقريباً حتمية لا يمكن تلافيها. وانتهى بي الأمر إلى أن أرى في السرافيت تغوراً لم يكن يتوصل إلى التخلي تماماً عن صفة بشرية محفوفة بالأسرار. كنت أتصورها واعية. عبدة لجسدها، محكومة بصورة لامتناهية بصمت سحيق، وبتأمل يائس. إن نظراتها العمياء، القرص الذهبي الصغير الخالي من التعبير ـ ومع ذلك الواضح والصافي والصاحي بصورة هائلة ـ كانت تنفذ فيّ مثل رسالة: «أنقذنا، انقذنا» وقد فاجأت نفسي وأنا أهمس بكلمات تعزية، وأعبّر عن آمال صبيانية. واستمرتْ تنظر إليّ، وهي ساكنة. وفجأة، انتصبت الفروع الوردية الصغيرة على رؤوسها، وأحسست في تلك اللحظة بمثل ألم أبكم شديد. ربما كانت تراني، إنها تلتقط جهودي للنفاذ إلى ما لا يمكن النفاذ إليه من حياتها. لم

(١) المشبهة anthropomorphistes: الصفات التي تقيم شبهاً بين كائن وآخر. (المترجم).

fb/mashro3pdf

تكن تلك كائنات بشرية، لكنني لم يسبق لي أبداً أن أحسست بصلة وثيقة كهذه، بين حيوانات وبيني. كانت السرافيت مثل الشهود على شيء ما، وأحياناً كانت تصبح قضاة مخيفين. كنت أحس بأنني خسيس أمامها، كان في هذه العيون الشفافة صفاء مفزع جداً. كانت دعاميص، لكن الدعموص يعني أيضاً قناعاً وشبحاً كذلك. ووراء هذه الوجوه الأزتيكية، الخالية من التعبير، والتي هي مع ذلك ذات قسوة لا ترحم، أية صورة كانت تنتظر ميعادها؟

كانت تثير فيّ الخوف. وأعتقد أنه لولا وجود الحارس والزوار الآخرين، لما تجاسرت أبداً على البقاء أمامها. «إنك تأكلها بعينيك» هكذا قال لي الحارس ضاحكاً، ولا بد أنه كان يعتقد بأنني لست طبيعياً تماماً. إنه لم يكن يلاحظ أنها هي التي كانت تفترسني على مهل بعيونها، في آدمية[1] ذهبية. وبعيداً عنها لم أكن أستطيع أن أفكر في شيء آخر، وكأنها كانت تؤثر في عن بعد. وانتهى بي الأمر إلى أنني جعلت أذهب إليها كل يوم، وفي الليل كنت أتصورها ساكنة في الظلام، وهي تقدم ببطء قائمة صغيرة تلتقي فجأة بقائمة سرفوت آخر. ربما كانت عيونها ترى الليل، ولم يكن لليوم بالنسبة لها نهاية. وليس لعيون السرافيت جفون.

إنني أعلم الآن أنه لا يوجد شيء غريب في هذا كله، وأن هذا كان يجب أن يحدث. كانت تتعرف إلي أكثر قليلاً كل صباح حين كنت أنحني نحو الحويض. كانت تتألم. كان كل عصب في جسمي يسجل هذا الألم المكمّم، هذا العذاب المتصلب في عمق الماء. كانت تراقب شيئاً ما، مملكة بعيدة زائلة، زمن حرية كان العالم فيه ملكاً للسرافيت. إن تعبيراً فظيعاً كان يتوصل إلى التغلب على اللاإنفعالية الاجبارية لهذه الوجوه الحجرية يتضمن بالتأكيد رسالة ألم، والبرهان على هذه الادانة الأبدية، على هذا الجحيم السائل الذي تعانيه. وعبثاً حاولت أن أقنع نفسي بأن حساسيتي الذاتية هي التي كانت تعكس على السرافيت شعوراً ليس لديها. هي وأنا كنا نعلم، لهذا فإن ما حدث ليس غريباً. ألصقت وجهي على زجاج الحويض، وحاولت عيناي مرة أخرى النفاذ إلى سر هذه العيون الذهبية التي

(١) آدمية cannibalisme : أكل لحم الإنسان. (المترجم).

fb/mashro3pdf

بدون قزحية ولا بؤبؤ. كنت أرى عن قرب جداً رأس سرفوت ساكن مقابل الزجاج. وبدون فترة انتقالية، وبدون مفاجأة، رأيت وجهي مقابل الزجاج، رأيته خارج الحويض، رأيته في الجهة الأخرى من الزجاج. ثم ابتعد وجهي وفهمت. شيء واحد كان غريباً: الاستمرار في التفكير كالسابق، وأن أعرف. وحين وعيت ذلك، أحسست بالرعب الذي يحس به من استيقظ وهو مدفون حياً. في الخارج، كان وجهي يقترب مجدداً من الزجاج، وكنت أرى فمي المشدود الشفتين بالجهد الذي كنت أبذله لفهم السرافيت كنت سرفوتاً، وقد عرفت الآن في غمضة عين أنه لا يمكن حدوث أي اتصال. كان خارج الحويض، وتفكيره كان تفكيراً خارج الحويض. ومع معرفتي له، ومع كوني إياه بالذات، كنت سرفوتاً وكنت في عالمي. وكان الرعب يأتي من أنني ـ وقد عرفت هذا فوراً ـ كنت أعتقد نفسي سجيناً في جسم سرفوت، محوّلاً إلى ذاته مع فكري كإنسان، مدفوناً حياً في سرفوت، محكوماً بأن أتحرك بكل وعي وصفاء بصر بين كائنات غير حساسة. لكن هذا الانطباع لم يطل أمده، فقد لامست إحدى القوائم وجهي، وحين استدرت قليلاً، رأيت سرفوتاً إلى جانبي ينظر إلي وأدركت أنه هو أيضاً كان يعرف. دون اتصال ممكن ولكن بوضوح كبير. فإمّا أنني كنت ما أزال في الإنسان، أو أننا كنا نفكر ككائنات إنسانية، عاجزين عن التعبير عن ذواتنا، محدودين بالتألق الذهبي لعيوننا التي كانت تحدق في وجه الانسان هذا، الملصق بالزجاج.

لقد عاد عدة مرات أيضاً، لكنه حالياً يأتي بصورة أقل تواتراً. وتمر أسابيع دون أن يُرَى. وقد جاء بالأمس، ونظر إليّ مطولاً، ثم ذهب بغتة. ويبدو لي أنه لا يهتم بنا، وأنه يستجيب بالأصح لعادة. ونظراً لأن التفكير هو الشيء الوحيد الذي أستطيع القيام به، فإنني أفكر فيه كثيراً. وخلال وقت معين، استمر الاتصال بيني وبينه، وكان يحس أكثر من أي وقت مضى مرتبطاً بالسر الذي يؤرقه. لكن الجسور قد قُطِعت الآن، لأن ما كان هاجسه قد أصبح سرفوتاً، غريباً عن حياته كإنسان. وأنا أعتقد أنني في البدء كنت أستطيع بعد أن أعود إليه، بمقدار ما، ـ آه، بمقدار ما، فقط! ـ وإبقاء رغبته رحية في أن يعرفنا بصورة أفضل. والآن أنا سرفوت بصورة نهائية، وإذا كنت أفكر ككائن بشري فذلك فقط لأن السرافيت تفكر كالبشر تحت

fb/mashro3pdf

قناعها من الحجر الوردي. ويبدو لي أنني تمكنت من أن أنقل إليه هذه الحقيقة، في الأيام الأولى، حين كنت لا أزال فيه. وفي هذه الوحدة النهائية التي لم يعد يعود إليها أبداً. يعزيني التفكير بأنه ربما سيكتب شيئاً عنا: وهو سوف يعتقد أنه يبتكر حكاية، وسيكتب هذا كله عن السرافيت.

* * *

fb/mashro3pdf

سيرسية[1]

لا شك في أنه أصبح لا يبالي الآن، ومع ذلك فقد ساءته هذه الأقاويل والثرثرات المسيئة التي تقال وشوشةً، ووجه الأم سيليست الرخو الضعيف حين كانت تروي للخالة بيبيه، وحركة والده، الدالة على ضيق وشيك. كانت هناك، بادىء بدء، المرأة الطيبة ساكنة الطبقة الرابعة وطريقتها البقرية في إدارة رأسها على مهل، واجترار الكلمات مثل كرة لذيذة من العشب. ثم هناك فتاة الصيدلية: «أنا، شخصياً، لا أصدق ذلك، ولكن إذا كان ذلك صحيحاً، فيا لها من فظاعة!». وحتى «دون إميليو»، الذي هو رزين دائماً ومتكتم جداً، مثل أقلامه ودفاتره الصغيرة التي صنعت أوراقها من فرو الخلد. كانت بقية من حياء تمنعهم، حين كانوا يتحدثون عن ديليا مانيارا، من المضي إلى نهاية تفكيرهم، لكن ماريو كان يحس بالغضب الشديد يتصاعد إلى وجهه كهبّة ريح. وفي انتفاضة استقلال عبثية أخذ يبغض عائلته. إنه لم يحبهم أبداً، كانت فقط روابط الدم والخوف من الوحدة تربطه بأمه وبأشقائه. وبالنسبة للجيران اتخذ موقفاً صريحاً تماماً. كان يعامل «دون إميليو» كأبله عجوز منذ أن عادت الثرثرات والأقاويل المسيئة. أمّا المرأة الطيبة الساكنة في البناية، فكان يمر أمامها جامداً متصلباً دون أن يحييها، وكأن هذا يمكن أن

---

(١) سيرسيه Circé: ساحرة ورد ذكرها في ملحمة «الأوذيسة»، لهوميروس. وقد سقت رفاق عوليس شراباً مسحوراً، حوّلتهم إلى خنازير. والكاتب يستعمل هنا اسم «سيرسيه» على سبيل الرمز. (المترجم).

fb/mashro3pdf

يؤثر فيها أي تأثير. ولدى عودته من العمل، كان يذهب جهاراً لزيارة آل مانيارا، ومقابلة الفتاة التي قتلت خطيبيها الاثنين، حاملاً إليها بعض الملبّس أو كتاباً.

إنني لا أتذكر ديليا جيداً، لكنها كانت نحيفة وشقراء، مع حركات بطيئة جداً. (كنت في سن الثانية عشرة. وفي هذه السن يمر الزمن والأمور بصورة بطيئة) وكانت ترتدي فساتين فاتحة ذات تنورة كبيرة. وخلال زمن معين، اعتقد ماريو أن فتنة ديليا وفساتينها هي التي كانت تستثير البغضاء لدى الناس. وقد قال ذلك للأم سيليست: «إنكم تبغضونها لأنها ليست قذرة ومقمّلة مثلكم جميعاً ومثلي!» ولم تطرف عيناه حين قامت أمه بحركة لتصفعه بمنشفة. وابتداء من هذه اللحظة كانت القطيعة مع عائلته؛ كانوا يخرجون بدونه، وكانوا يتفضلون عليه بغسيل ثيابه، ويوم الأحد كانوا يذهبون إلى «باليرمو» في نزهة دون أن يخبروه. حينئذٍ كان ماريو يذهب إلى تحت نوافذ ديليا ويلقي بحصاة صغيرة. كانت تخرج أحياناً، وفي أحيان أخرى كان يسمعها فقط تضحك وراء درفات النافذة، بقليل من الخبث.

ثم كانت مباراة فيربو ـ دمبسي، وفي جميع المنازل كان بكاء وصيحات استياء عنيفة، تتلوها كآبة ذليلة لبلد مستعمَر (بفتح الميم الثانية). وانتقل آل مانيارا إلى منزل آخر، وذهبوا للسكنى في مكان يبعد أربعة شوارع، وهذا يشكل، في حي الماغرو، مسافة طويلة؛ وأخذ أشخاص آخرون يترددون على ديليا، ونسيت عائلات شارع كاسترو ـ بارّوس القضية، واستمر ماريو في زيارة ديليا مرتين في الأسبوع، لدى عودته من البنك. كان قد حل الصيف، وأحياناً كانت ديليا تحس بالرغبة في الخروج؛ وحينئذٍ كانا يذهبان معاً إلى صالونات الشاي في شارع ريفادافيا، أو إنهما كانا يجلسان في ساحة «إحدى عشرة». كان ماريو قد بلغ سن التاسعة عشرة، واستقبلت ديليا بدون احتفال ـ كانت ما تزال في حداد ـ عيد ميلادها الثاني والعشرين.

كان آل مانيارا ـ يجدون هذا الحداد في غير محله، بالنسبة لخطيب، وماريو

fb/mashro3pdf

نفسه كان يفضل حزناً أكثر تكتماً. كان يؤلمه أن يرى ابتسامة ديليا الكدرة حين كانت تلبس قبعتها أمام المرآة، هي الشقراء جداً في كل هذا الأَسْوَد. كانت تستسلم لحب ماريو الشديد الغامض، وآل مانيارا، وتقبل بأن يأخذها للنزهة، وأن يقدم لها هدايا، وأن يعودا معاً في آخر أضواء النهار، وأن يأتي لزيارتها يوم الأحد بعد الظهر. أحياناً كانت تذهب وحدها إلى حيها القديم، هناك حيث غازلها هيكتور. وقد رأتها الأم سيليست تمر بعد ظهر أحد الأيام، فأقفلت درفات نافذتها بازدراء صريح. كان قط يتبع ديليا. كانت كل الحيوانات تظهر الخضوع أمام ديليا، ولم يكن باستطاعة ماريو القول ما إذا كان يحدث عن خوف أو عن حب، لكن الحيوانات كانت تتبعها دون أن تعنى ديليا بالنظر إليها. ورأى مرة كلباً يتراجع حين أرادت ديليا مداعبته. نادته (كانوا في ساحة «إحدى عشرة»، والوقت مساء) فتقدم الكلب بهيئة خاضعة ـ لعله كان مسروراً ـ حتى يدها. وكانت السيدة مانيارا قد لعبت بعنكبوت حين كانت صغيرة. وكان ذلك يثير ذعر الجميع، حتى ماريو الذي مع ذلك لم يكن خائفاً. وكانت الفراشات تحط على شعر ديليا. وقد رآها ماريو تطرد ثلاث فراشات منها بحركة خفيفة من يدها بعد ظهر أحد الأيام. وكان هيكتور قد أهداها أرنباً أبيض مات سريعاً جداً، قبله. وقد ألقى هيكتور نفسه في الماء عند «البورنوف» (المرفأ الجديد)، في يوم أحد عند الفجر. ومنذ تلك اللحظة بدأت الأقاويل والثرثرات. أمّا موت رولو مديتشي فلم يفاجىء أحداً نظراً لأن نصف الناس يموتون من سكتة قلبية. وحين انتحر هيكتور، وجد الناس أن هذه مصادفة محزنة. كان ماريو يستعيد في باله وجه الأم سيليست الرخو حين كانت تروي ذلك للخالة بيبيه، وحركة والده الشاكّة والمتضايقة. كان هناك تحطم جمجمة، بالاضافة إلى كل شيء. كان رولو قد سقط مثل حَجَر لدى خروجه من منزل آل مانيارا، ومع أنه قد مات فعلاً، فإن الضربة الشديدة على الدرج، كانت تشكل نقطة استفهام في القصة. لم تكن ديليا قد خرجت ـ غريب أنها لم تشيعه حتى الباب ـ لكنها على كل حال كانت على مقربة منه، وهي التي أعلنت الانذار. أمّا هيكتور، من جهته، فقد مات وحيداً، في ليلة جليدية بيضاء، بعد خمس ساعات من تركه ديليا، مثل كل يوم سبت.

إنني لا أذكر ماريو جيداً، ولكن يقال إنهما كانا يشكلان «زوجين جميلين»،

fb/mashro3pdf

ديليا وهو. ومع أنها كانت ما تزال تلبس الحداد على هيكتور (إنها لم تلبس الحداد أبداً على رولو، ولست أدري لماذا) فإنها كانت تقبل برفقة ماريو للنزهة في حي ألماغرو أو للذهاب إلى السينما. وقد أحس ماريو، حتى ذلك الحين، بالبعد عن ديليا، عن حياتها وحتى عن بيتها. وهو لم يكن سوى «زيارة»، وهذه الكلمة لها عندنا معنى دقيق تماماً يبقي الشخص على بعد. وحين كان يمسك ديليا من ذراعها لاجتياز الشارع أو لصعود سلّم المترو، كان ينظر إلى يده مقابل حرير الفستان الأسود. كان يقيس هذا الأبيض على هذا الأسود، هذه المسافة. لكن ديليا ستكون أكثر قرباً حين ستعود إلى الرمادي، وإلى القبعات الفاتحة لصباح يوم الأحد.

وحتى لو لم تكن الأقاويل بلا أساس إطلاقاً، فقد كان ماريو يجد من الغدر أن يبرز الناس وقائع تافهة، ليعطوها معنى كبيراً. إن أشخاصاً كثيرين يموتون في بيونس ايرس من نوبات قلبية أو بالاختناق غرقاً. وأرانب كثيرة تموت أو تذوي في باحات الدور. وكثير من الكلاب تسمح بمداعبتها أو لا تسمح. إن السطور القليلة التي تركها هيكتور لوالدته، والبكاء الذي قالت المرأة الطيبة الساكنة في الطبقة الرابعة أنها سمعته (ولكن قبل حادثة السقوط) ساء حين مات رولو، وهيئة وجه ديليا في الأيام الأولى. . . إن الناس يضعون أمثال هذه الاشارات الضمنية في كل مسألة، ويجب أن نرى كيف تولد في النهاية، من كل هذه العقد المتراكمة، قطعة السجّاد. وكان لا بد أن يحدث لماريو أن يرى باشمئزاز عملية النسيج هذه، وبّذعر، حين كان الأرق يدخل غرفته ليسرق منه ليل رقاده.

«اغفري لي موتي، إنك لا تستطيعين أن تفهمي، هذا مستحيل، ولكن سامحيني، يا أمّاه». قطعة ورق صغيرة منتزعة من صفحة من «كرتيكا»، ومدسوسة تحت حجر قرب السترة التي كانت قد بقيت هناك مثل علامة لأوّل بحار عند الفجر. ومع ذلك فحتى ذلك المساء كان هيكتور سعيداً جداً؛ صحيح أنه في الآونة الأخيرة، كان ذا هيئة غريبة، أو شارد الذهن بالأصح، كان ينظر أمامه وكأنه يرى أشياء غريبة، أو كأنه يسعى لحل رموز صورة في

fb/mashro3pdf

الجو. كان جميع الرفاق في مقهى «روبيس» متفقين حول هذه المسألة. أما رولو، من جهته، فكان شيئاً مختلفاً؛ لقد أُصيب رولو بسكتة قلبية، كان رولو فتى متوحداً هادئاً لديه مال، وسيارة شيفروليه حسورة الغطاء (ديكابوتابل)، وقد أدى هذا إلى أن القليل من الأشخاص أتيحت لهم فرصة الالتقاء به قبل وفاته بالضبط. إن الأصوات ترن بشدة في الأروقة، وقد أكدت المرأة الطيبة ساكنة الطبقة الرابعة، مطولاً أن أصوات بكاء رولو كانت تشبه عويلاً مخنوقاً، وصيحة بين اليدين اللتين تريدان خنقها وتحطيمها. وعلى الفور تقريباً صدمة الرأس الفظيعة مقابل السلم، وديليا التي تركض صارخةً، والركض المجنون الذي كان قد أصبح بلا جدوى.

وحتى دون أن يلاحظ، كان ماريو يجمع أجزاء من القصة، وكان يفاجيء نفسه وهو يبحث عن أسباب جيدة للرد على هجمات الجيران. وهو لم يوجه أبداً الأسئلة إلى ديليا في هذا الخصوص، كان ينتظر بغموض أن تأتي المبادرة منها هي. وكان يتساءل أحياناً ما إذا كانت ديليا تعرف الاشاعات التي تروج عنها. إن الكيفية التي كان آل مانيارا يلمّحون بها بهدوء إلى رولو وإلى هيكتور وكأنهما مسافران كانت غريبة أيضاً. كانت ديليا تلزم الصمت، محمية بهذا الميثاق المحترس والضمني. وحين انضم ماريو، وهو مماثل في التكتم لأهلها أنفسهم، إلى الجماعة، أصبحوا ثلاثة أولئك الذين يغمرون ديليا بظل رقيق ودائم، شبه شفاف في أيام الثلاثاء والخميس، وأكثر كثافة وأشد فعالية أيام السبت إلى الاثنين. كانت ديليا، الآن، تستعيد أحياناً بعض الحيوية؛ وفي أحد الأيام، جلست إلى البيانو، وفي مرة أخرى لعبت «لعبة الأوزة»؛ وكانت أكثر لطفاً مع ماريو، كانت تُجلسه قرب نافذة الصالون، وتحدثه في أمور الخياطة والتطريز. ولم تكن تقول له أبداً أي شيء عن الملبّس وقطع الحلوى التي كانت تصنعها، وكان هذا يثير دهشة ماريو لكنه كان يعزوه إلى مزيد من اللباقة من جانبها، وإلى خوف من إثارة ضجره. وكان آل مانيارا يمتدحون مشروبات ديليا؛ وفي مساء أحد الأيام أرادوا أن يذيقوا ماريو كأساً صغيرة منها، لكن ديليا قالت بلهجة عنيفة ان هذا

fb/mashro3pdf

مشروب للنساء وانها على كل حال قد أفرغت كل القناني. «إن هيكتور...» هكذا بدأت تقول أمها، لكنها توقفت عن الكلام لكي لا تؤلم ماريو. وقد لاحظوا، إثر ذلك، أن الحديث عن الخطيبين لم يكن يضايق ماريو. ولم يجر الحديث بعد ذلك عن المشروب حتى اليوم الذي أرادت فيه ديليا أن تجرب وصفات أو طرائق (لصنع المشروب). كان ماريو يتذكر بعد ظهر ذلك اليوم لأنه كان قد حصل على زيادة راتب في ذلك اليوم بالذات، وقد سارع لشراء ملبّس لديليا. وكان آل مانيارا يصغون إلى جهاز الراديو، وقد استبقوه لحظة ليسمعوه أغاني روزيتا كيروغا. وبعد ذلك، حدثهم ماريو عن زيادة راتبه، وعن الملبس الذي أحضره لديليا.

«ما كان عليك أن تفعل هذا، ولكن، على كل حال، خذ الملبس إليها. إنها في الصالون». وتابعوه بعيونهم، ثم تبادلوا النظرات حتى نزع مانيارا الوالد سماعتيه عن أذنيه كما ينزع المرء اكليلاً من الغار، وتنهدت زوجته وهي تدير رأسها. ولاحت عليهم فجأة هيئة ضياع وشقاء. وبحركة غامضة، خفض مانيارا السماعتين الصغيرتين.

حدقت ديليا في العلبة ولم تهتم كثيراً بالملبّس، لكنها لدى تناولها الحلوى بالنعناع مع عرف صغير من الجوز، قالت لماريو إنها تعرف صنع الملبّس. وكان يبدو عليها أنها تعتذر لأنها لم تقل له ذلك في وقت أبكر، وراحت تصف برشاقة طريقة صنع حبات الملبس، وكيف تغلفها بالسكر، وبالشوكولا وبالقهوة. وكانت أفضل طريقة لديها هي طريقة صنع حبات الملبس بالبرتقال، والمليئة بالمشروب؛ وبواسطة إبرة ثقبت إحدى حبات الملبس التي أحضرها ماريو لتبين له كيف يصنعونها؛ كان ماريو يرى أصابعها بيضاء جداً مقابل الملبّس، وينظر إليها وهي تقدم إيضاحاتها، وبدا له أنها طبيب جراح ينظم إيقاع زمن جراحي دقيق. كانت حبة الملبّس مثل فأرة صغيرة بين أصابع ديليا، وشيئاً صغيراً جداً تمزقه الإبرة. وأحس ماريو إزاء ذلك بانزعاج غريب، وباشمئزاز لطيف وفظيع. كان يريد أن يقول لها: «ألق حبة الملبس هذه، ألق بها بعيداً، لا تقربيها من شفتيك، إنها حية، إنها

fb/mashro3pdf

فأرة صغيرة». ثم أحس بابتهاج مجدداً لدى تفكيره في زيادة أجره، وسمع ديليا تردد ذكر طريقة صنع مشروب الشاي، ومشروب ماء الورد. . . ودس أصابعه في العلبة وأكل حبتين أو ثلاث حبات ملبس تباعاً. وكانت ديليا تبتسم وكأنها تسخر منه. أمّا هو، فكان يتخيل أشياء كثيرة، ويحس بأنه سعيد بصورة مخيفة. «الخطيب الثالث» هكذا فكر بصورة غريبة. أن يستطيع أن يقول لها: «خطيبك الثالث، ولكن الحي».

وابتداء من ذلك الموضع، أصبح من الصعب جداً متابعة سياق القصة، فقد اختلطت فيه عناصر أخرى، وحالات نسيان خفيفة، وأكاذيب كانت تنسج ويعاد نسجها عبر الذكريات. ويبدو أن ماريو زاد من زياراته لآل مانيارا، إن ديليا، التي كانت تستعيد لذة الحياة، كانت تقيده رغباتها ونزواتها؛ وقد طلب آل مانيارا أنفسهم من ماريو بشيء من التكتم أن يشجع ديليا، فاشترى المنتجات للمشروبات، والمصافي والقموع؛ وكانت تقبل هذا كله بهيئة ارتياح رصين، أراد ماريو أن يرى فيه شيئاً من الحب، أو على الأقل بعض نسيان للشابين الميتين.

في أيام الآحاد، كان يتأخر على المائدة مع أهله، وكانت الأم سيليست تشكره على ذلك وهي تعطيه، دون ابتسامة، أكبر قطعة من الحلوى، وقهوتها الساخنة جداً. وكفّت أخيراً الأقاويل والثرثرات المسيئة، وعلى الأقل كفوا عن الكلام عن ديليا في حضوره. ولا بد أن الصفعتين لأصغر أولاد آل كاميليتّي أو المشاجرة العنيفة مع الأم سيليست كان لهما أثر في ذلك. بل لقد اعتقد ماريو أنهم قد فكروا، وأنهم برأوا ديليا، ورأوها أخيراً في ضوء جديد. وهو لم يتحدث أبداً عن ذويه في منزل آل مانيارا، كما أنه لم يكن يتحدث عن ديليا أثناء اجتماعات يوم الأحد. وبدأ يعتقد بإمكان هذه الحياة المزدوجة على مسافة أربعة شوارع. وكانت زاوية شارع كاسترو ـ باروّس وشارع ريفادافيا تلعب دور الجسر، المفيد والضروري. بل كان لديه الأمل ـ وهو، أي ماريو، أصمّ إزاء ذلك الشيء السائر الذي كان يحس به أحياناً حين يكون

fb/mashro3pdf

وحيداً، والذي كان غريباً عنه ومظلماً بصورة عميقة ـ بأن المستقبل سيقرّب بين المنزلين والعائلتين.

لم يكن أحد سواه يذهب لزيارة آل مانيارا. كان غريباً هذا الغياب التام للأهل والأصدقاء. لم يكن ماريو بحاجة لأنّ يدق الجرس بطريقة خاصة، فالجميع كانوا يعرفون أنه هو الطارق. في شهر كانون الأوّل، ووسط حرارة لطيفة وندية، نجحت ديليا في صنع شراب البرتقال، وشرباه، سعيدين، في مساء العاصفة. ولم يرد آل مانيارا أن يذوقوا ذلك الشراب، وكانوا متأكدين من أن ذلك سيضرهم. ولم تستأ ديليا من ذلك البتة ولكنها بدت وكأن ملامح وجهها قد تغيّرت وهي تنظر إلى ماريو يتذوق كعارف الكأس البنفسجية الصغيرة الملأى بضوء برتقالي، وذات الرائحة اللاهبة. «سأموت من الحرارة لكن هذا لذيذ جداً»، هكذا ردد مراراً عديدة. وديليا، التي كانت قليلة الكلام حين تكون مسرورة، قالت ببساطة: «لقد صنعت هذا الشراب لأجلك». كان آل مانيارا ينظرون إليها وكأنهم أرادوا أن يقرأوا فيها طريقة الصنع، والخيمياء الدقيقة لخمسة عشر يوماً من العمل.

كان رولو يحب مشروبات ديليا. وقد عرف ماريو ذلك من آل مانيارا وذلك بواسطة بضع كلمات قيلت بصورة عابرة في يوم كانت فيه ديليا غائبة. «كانت تصنع له كثيراً من المشروبات، لكن رولو لم يكن يريد ذلك، بسبب قلبه. إن الكحول سيء بالنسبة للقلب». أن يكون لها خطيب ذا صحة رقيقة على هذا النحو... أصبح ماريو يفهم الآن هذه الهيئة من الانعتاق التي كانت تلوح على حركات ديليا، ومن طريقتها في العزف على البيانو. وكاد أن يسأل آل مانيارا عما كان يحبه هيكتور وما إذا كانت ديليا تصنع له أيضاً مشروبات وسكاكر.

وفكر في حبات الملبّس التي عادت ديليا لإعدادها، والتي كانت تجف وهي مصفوفة على رف جداري في غرفة الخدمة. كان شيء ما يقول لماريو إن ديليا ستحقق أشياء رائعة بطرائق صنع حبات الملبس. وبعد أن طلب ذلك منها مراراً، قبلت أخيراً أن تذيقه واحدة منها.

fb/mashro3pdf

وفي أحد الأيام، في اللحظة التي كان يتأهب فيها للذهاب، أحضرت له عينة بيضاء وخفيفة على صحن صغير معدني مفضض. وأثناء تذوقه حبة الملبس هذه، - شيء مر قليلاً مع نكهة للنعناع وجوزة الطيب، المختلطة بصورة غريبة - ظلت عينا ديليا منخفضتين، وهيئتها متواضعة. ورفضت المجاملات، فهذه ليست سوى تجربة، وهي، أي ديليا، ما زالت بعيدة عما كانت تعتزم تحقيقه. لكنها، في الزيارة الثانية - في المساء أيضاً، في ظل الوداع قرب البيانو - سمحت له أن يذوق حبة ملبس أخرى. كان ينبغي أن يفحص عينيه لكي يحزر العبير، وأغمض ماريو عينيه، طائعاً، وحزر عبير اليوسف أفندي، الذي يكاد لا يُحَسّ، والفائح من أعماق الشوكولا. وأحس تحت أسنانه بأجزاء صغيرة مقرمشة لم يتمكن من إدراك طعمها لكنها كانت تمنحه إحساساً لذيذاً بالصلابة في كل هذا اللباب الرخو والحلو.

كانت ديليا مسرورة من النتيجة؛ وقالت لماريو إن وصفه للملبس قريب مما أرادت أن تحصل عليه. ولكن كانت هناك تجارب يجب القيام بها، وتوازنات دقيقة وبارعة يجب العثور عليها. وقال آل مانيارا لماريو إن ديليا لم تعد تجلس إلى البيانو وأنها تقضي أوقاتها في إعداد المشروبات والملبس. لم يكونوا يبدون تأنيباً ولكن لم يكن يلوح عليهم السرور. وحسب ماريو أن نفقات ديليا تضايقهم. وسأل ديليا خفيةً عن قائمة الخلاصات والعناصر الضرورية. وفعلت حينئذ ما لم تفعله أبداً من قبل، فقد أحاطت عنقه بذراعيها وقبلته على وجنته. كانت تفوح من ثغرها رائحة نعناع لطيفة. أغمض ماريو عينيه. كان يريد أن يحس بهذا العبير وبهذه النكهة وراء جفنيه المغمضين. وعادت القبلة، أكثر شدة وأنيناً. لم يعرف ما إذا كان قد رد القبلة، ولعله ظل ساكناً وسلبياً وهو يتذوقها. ديليا في عتمة الصالون الخفيفة. جلست إلى البيانو، وهذا ما لم تكن تفعله منذ زمن طويل، وطلبت إليه أن يعود في اليوم التالي. ولم يسبق لهما أبداً أن تكلما بمثل هذا الصوت، ولم يسبق لهما أبداً أن صمتا على هذا النحو.

لا بد وأن والد ديليا ووالدتها قد شكا في شيء ما، ذلك لأنهما دخلا إلى

fb/mashro3pdf

الغرفة وهما يهزان صحناً ويتحدثان عن طيار فُقِد في المحيط الأطلسي. كان ذلك هو العهد الذي كان فيه كثير من الطيارين لا ينهون أبداً عملية العبور. وأضاء أحدهم المصابيح وابتعدت ديليا عن البيانو بهيئة غاضبة. ونشأ لدى ماريو الانطباع خلال لحظة أن حركتها إزاء النور فيها شيء من الهروب الأعمى لأم أربع وأربعين، فرار مجنون على طول الجدران. كانت تفتح يديها وتطبقهما في فتحة الباب، وهي تنظر إلى والدتها وأبيها من طرف عينها؛ كانت تنظر إليهما من طرف عينيها وتبتسم.

لم يدهش ذلك ماريو، لقد أدرك في ذلك المساء ما كان يحدس به دائماً، وهو هشاشة أمن ديليا، والثقل الباقي على كاهلها من ذلك الموت المزدوج. مع رولو، ربما لا بأس، لكن هيكتور كان قطرة الماء التي جعلت الاناء يفيض، وعملية التحطم التي تعري المرآة تعرية تامة. لم يبق من ديليا سوى عاداتها الدقيقة، ومتعتها في استخدام الخلاصات والحيوانات، وتفاهمها مع الأشياء البسيطة والغامضة، وصحبة الفراشات والقطط، ونسمة تنفسها المندرج نصفياً في الموت. وتعهد بمحبة لا حدود لها، وبأعوام من المعالجة في غرف نيّرة وحدائق بعيدة عن الذكرى؛ وربما لن يكون هناك زواج، ولكن فقط امتداد لهذا الحب الهادىء حتى لا يعود هو ميت ثالث يسير إلى جانبها، والخطيب الذي جاء دوره للموت.

اعتقد ماريو أن آل مانيارا مسرورون لاحضاره خلاصات ومواد لديليا. في البدء اتخذوا هيئة غاضبة وامتنعوا عن أي تعليق، ثم انتهى بهم الأمر إلى الرضوخ، والانصراف، على الأخص حين كان يحين موعد التذوق. كان هذا يحدث دائماً في الصالون، عند هبوط الليل، وكان على ماريو أن يغمض عينيه ويحزر ـ وكم كان يتردد أحياناً بسبب براعة عمليات المزيج ـ طعم قطعة صغيرة من لباب جديد هذه المعجزة الصغيرة الموضوعة على الصحن المعدني الفضي.

ولقاء هذا الاهتمام كان ماريو يحصل من ديليا على الوعد بالذهاب معاً إلى السينما أو إلى باليرمو. وكان يلاحظ هيئة الامتنان والتواطؤ لدى آل

fb/mashro3pdf

مانيارا، كلما جاء لاصطحاب ديليا بعد ظهر يوم السبت أو صباح يوم الأحد؛ وكأن والدها ووالدتها كانا يفضلان البقاء وحدهما في منزلهما يستمعان إلى الراديو أو يلعبان الورق. ولكن بدا له أيضاً أن ديليا كانت أقل سروراً بالخروج عند بقاء أبويها في المنزل. ولا يعني هذا أنها كانت حزينة وهي وحدها مع ماريو، ولكن في المرات القليلة التي خرجا فيها مع آل مانيارا ظهرت ديليا أكثر بهجة. وفي العيد الشعبي لهت بصورة ظاهرة، وطلبت الكرميلة وقبلت ألعاباً كانت تنظر إليها نظرة ثابتة وهم على طريق العودة. كان الهواء النقي يفيدها، ويرى ماريو أن لونها أصبح أكثر صفاء، ومشيتها أكثر ثقة. وإنها لخسارة هذه العودة كل مساء إلى المختبر، وهذه الخلوة الطويلة جداً بين الميزان والملاقط الصغيرة. إن صنع الملبس أخذ يستغرقها في الوقت الحاضر، بحيث أنها تركت المشروبات. ومنذ بعض الحين، نادراً ما كانت تذيقه اكتشافاتها. ولم تذقها لوالديها أبداً. وكان ماريو يظن أن والديها قد رفضا لقياتها الأخيرة؛ وكانا يفضلان الملبس الأكثر عادية، وإذا ما تركت ديليا علبة منه على الطاولة بمثابة دعوة صامتة، فإن والديها كانا يختاران منها الأشكال البسيطة، القديمة، وكانا يفتحان أحياناً حبات الملبس ليريا ماذا يوجد في داخلها. كان ماريو يبتسم لاستياء ديليا المكتوم، وهي واقفة قرب البيانو، ومن هيئتها ذات الشرود المصطنع. كانت ديليا تحتفظ له بالأشياء الجديدة. كانت تعود من المطبخ، قبيل رحيله بالضبط، وهي تحمل الصحن المعدني الفضي الصغير، وفي مرة كان قد تأخر فيها وهو يستمع إليها في عزفها على البيانو، تركته يرافقها حتى المطبخ لأجل أن تحضر حبات ملبس جديدة. وحين أضاءت النور، رأى ماريو القط النائم في زاويته وطيور البط تفر على البلاط. وتذكر المطبخ، في منزله، والأم سيليست وهي ترش الوطائد[1] بمسحوق أصفر. في ذلك المساء كانت تفوح من حبات الملبس رائحة القهوة، وكانت لها خلفة[2] ملح في أبعد طعمها، وكأنما كانت، في

---

(١) الوطائد: جمع وطيدة وهي جزء منخفض مربع من قاعدة عمود. (المترجم).

(٢) خلفة arriére - goût : ما يبقى في الفم من الطعم. (المترجم).

fb/mashro3pdf

عمق الرائحة الزكية، تختبىء دمعة. كان من البلاهة التفكير في هذا، في هذه البقية من الدموع التي ذرفت عشية موت رولو.

السمكة الحمراء حزينة جداً، هكذا قالت ديليا وهي تشير إلى البوقال مع حجارته الصغيرة ونباتاته الاصطناعية.

كانت سمكة صغيرة حمراء شفانية [٢] ترقد وهي تفتح وتقفل فمها بانتظام. كانت عينها الباردة تحدق في ماريو مثل لؤلؤة حَيّة. فكر ماريو في العين المالحة مثل دمعة، والتي ستنبجس بين أسنانه لو أنه قرشها.

- يجب تغيير الماء باستمرار.

- لا جدوى من ذلك. إنها عجوز ومريضة. إنها ستموت غداً.

كانت هذه النبوءة بالنسبة لماريو مثل إعلان العودة إلى الأسوأ، إلى ديليا الأوقات الأولى، السجينة في حدادها. كان كل شيء ما يزال قريباً، درجة السلم، والجسر، وصور هيكتور التي تبرز من أسفل أزواج الجوارب والتنورات الداخلية الصيفية، وكانت زهرة يابسة - من مأتم رولو - مثبتة على صورة في باب الخزانة.

قبل أن يغادر طلب إليها أن يتزوجها في الخريف. لم تقل شيئاً، كانت تحدق في الأرض بعينيها وكأنها تبحث عن نملة على الأرضية الخشبية. كانت هذه أول مرة يتحدثان فيها عن هذه المسألة (الزواج). بدا أن ديليا تحاول أن تعتاد هذه الفكرة وتفكر فيها قبل أن تجيب. ثم نظرت إليه بعينين لامعتين، ونهضت فجأة. كانت جميلة، وكان ثغرها يرتجف قليلاً. وقامت بحركة، كأنما لتفتح باباً في الهواء، حركة شبه سحرية.

قالت: إذن، أنت خطيبي. كم تبدو لي مختلفاً، متغيراً.

تلقت الأم سيليست النبأ دون أن تقول شيئاً، ووضعت مكواتها، وطوال

---

(٢) شفانية Translucide : شبه شفافة. (المترجم).

fb/mashro3pdf

النهار لم تغادر غرفتها، حيث كان أشقاء وشقيقات ماريو يدخلون واحداً بعد الآخر، ومن حيث كانوا يخرجون بهيئة كئيبة مع أكواب صغيرة تحوي أزهار برتقال. وذهب ماريو إلى مباراة كرة القدم، وفي المساء أحضر وروداً لديليا، كان آل مانيارا ينتظرونه في الصالون، وعانقوه وقالوا له كثيراً من الأشياء، وتوجب فتح قنينة بورتو وأكل حلويات صغيرة. الآن أصبح يعامل بحميمية أكثر وكذلك بشيء من البعد. كانوا يفقدون بساطة الأصدقاء، ليتبادلوا نظرة الأقارب، نظرة أولئك الذين يعرفون كل شيء عنك منذ الطفولة. وقبّل ماريو ديليا، كما قبل الأم مانيارا، وحين كان يعانق حماه المقبل، كان يريد أن يقول له أنهم يستطيعون الاعتماد عليه، هو ماريو، السند الجديد للبيت، لكن الكلمات لم تحضره. وكان يبدو أن لدى آل مانيارا ما يريدون قوله له، هم أيضاً، لكنهم كذلك لم يكونوا يجرأون على ذلك. وعادوا إلى غرفتهم وهم يهزون الصحن، وبقي ماريو مع ديليا، والبيانو، مع ديليا و **«حلم الحب»**.

مرة أو مرتين أثناء أسابيع الخطوبة هذه، كاد يطلب من الأب مانيارا أن يلتقي به في أحد المقاهي لكي يحدثه عن الرسائل التي كانت تأتي من مجهول. ثم قال في نفسه إن ذلك سيكون قسوة لا جدوى منها، بما أنه لا يمكن فعل أي شيء ضد هؤلاء الأشقياء الذين يقومون باضطهادهم. ووصلت أسوأ رسالة من تلك الرسائل المغفلة في ظهر أحد أيام السبت وكانت في مغلف أزرق. وراح ماريو يمعن النظر في صورة هيكتور في صحيفة «آخر ساعة»، وفي المقاطع المؤكد تحتها بالحبر الأزرق. «حسب تصريحات العائلة، فإن يأساً شديداً هو وحده الذي أمكن أن يدفع إلى الانتحار». وفكر باندهاش في أن عائلة هيكتور لم يسبق لها أبداً أن داست منزل آلَ مانيارا. وربما كانوا قد زاروهم مرة واحدة في البداية. وعادت السمكة الحمراء إلى ذاكرته، وقد قال آل مانيارا أنها كانت هدية من هيكتور. سمكة حمراء ماتت في اليوم الذي توقعته ديليا. «إن يأساً شديداً هو الذي أمكن أن يدفع إلى الانتحار». أحرق المغلف، وقصاصات الصحف، واستعرض في ذهنه الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا هم الذين بعثوا بالرسالة، واعتزم أن يفاتح

fb/mashro3pdf

ديليا في الأمر ، وأن يحررها في نظره من كل خيوط اللعاب هذه ، ومن رشح الإشاعات والأقاويل ، هذا الذي لا يطاق . وبعد ذلك بخمسة أيام (لم يكن قد تحدث مع ديليا ولا مع والديها) تلقى الرسالة المغفلة الثانية . وعلى الورق الأزرق كانت توجد في البدء نجمة صغيرة (وقد تساءل عن معناها) وإثر ذلك: «لو كنتُ مكانك، لأوليت انتباهي إلى درجة المدخل». وكانت تفوح من الغلاف رائحة خفيفة لصابون اللوز. بل كانت له الجرأة الرعناء للبحث في خزانة ثياب الأم سيليست وفي خزانه شقيقته. وأحرق هذه الرسالة كما فعل بالرسالة الأولى ، ولم يقل أي شيء عنها لديليا ، هذه المرة أيضاً . كان الوقت في كانون الأول، في حرارة أشهر كانون الأول هذه في العشرينات؛ كان الآن يقوم بزيارة ديليا بعد ظهر كل يوم ، وكانا يتبادلان الحديث وهما يتنزهان في الحديقة الخلفية ، أو وهما يدوران حول مجموعة المنازل. ومع انتشار الحركانا يقللان من أكل الملبس، ولا يعني هذا أن ديليا قد تخلت عن تجاربها ، لكنها كانت تحضر له حبات الملبس بمقدار أقل ، لكي يتذوقها، وكانت تفضل الاحتفاظ بها في علبة قديمة، تحميها قوالب صغيرة مع زغب دقيق من الورق الأخضر الفاتح فوقها. كان ماريو يجدها قلقة يقظة ومحترسة . كانت تستدير أحياناً ملتفةً عند زاوية الشارع ، وفي المساء حين انتفضت لدى مرورها أمام صندوق البريد في شارع ميدرانو، أدرك ماريو أنهم كانوا يعذبونها عن بعد، وأنهما كانا عالقين كلاهما، دون اعتراف منهما، في نفس الشبكة .

وجد الأب مانيارا في مشرب الجعة بشارع كانغاللو، فأشبعه جعة وبطاطا مقلية دون أن يتمكن من إخراجه من تحفظ مرتاب ، وكأنه كان يحذر من هذا اللقاء . قال له ماريو ضاحكاً انه لن يطلب منه نقوداً ، وحدثه بلا مواربة عن الرسائل المغفلة ، وعن الحالة العصبية التي تلمّ بديليا، وعن صندوق البريد في شارع ميدرانو.

ـ أنا أعرف جيداً أن هذه الدناءات سوف تكف ما ان نتزوج . لكنني بحاجة لأن تساعدوني ، وأن تقوموا بحمايتها . إن كل تلك الرسائل يمكن أن

fb/mashro3pdf

تؤذيها . فهي رقيقة المشاعر جداً، وحساسة كثيراً .

ـ هل تقصد أن تقول إن هذا يمكن أن يسبب لها الجنون، أليس كذلك؟

ـ ليس هذا بالضبط، لكنها تتلقى مثلي رسائل مجهولة المصدر، ولكن نظراً لأنها لا تقول عن ذلك شيئاً لأحد، فإن هذا يمكن أن يكون عبئاً ثقيلاً جداً عليها .

ـ إنك لا تعرف ديليا . فهي لا تبالي إطلاقاً بالرسائل المغفلة . . . أقصد أن أقول هذا لا يمسها . إنها أشد صلابة مما تعتقد أنت .

ـ لكنك لا ترى كم هي عصبية ! هناك شيء يستحوذ عليها، هكذا قال ماريو دون أن يجد شيئاً آخر يجيب به .

ـ الأمر ليس هكذا . كان الأب مانيارا يحتسي جعته كأنما ليلطف رنين صوته . ثم أضاف قائلاً : قبلاً، كان الأمر سواء . إنني أعرفها جيداً .

ـ قبل ماذا؟

ـ قبل أن يفرقع الآخرون، أيها الأحمق . هيا، ادفع، فأنا مستعجل .

أراد ماريو أن يحتج، لكن الأب مانيارا كان قد اتجه نحو الباب، وأشار إليه بايماءة وداع غامضة وذهب في اتجاه ساحة «الإحدى عشرة»، مطاطىء الرأس . لم يجد ماريو في نفسه الشجاعة ليتبعه، ولا حتى ليعاود التفكير في ما سمعه منه، الآن، أصبح وحده مجدداً، شأنه في البداية، وكان عليه أن يواجه الأم سيليست، والمرأة الطيبة ساكنة الطابق الرابع، وآل مانيارا . وحتى آل مانيارا .

لا بد أن ديليا شكت في شيء ما، ذلك لأنها استقبلته بصورة مختلفة في المرة التالية . فقد كانت كثيرة الكلام، بل وحاولت أن تجعله يتكلم هو نفسه، ولعل آل مانيارا قد ذكروا اللقاء في مشرب الجعة . وانتظر ماريو أن تتطرق هي نفسها إلى المسألة، لكنها فضلت أن تعزف شيئاً من الموسيقى، إلى أن وصل والداها اللذان دخلا يحملان بعض الحلوى الصغيرة وقارورة خمر، وأشعلا

fb/mashro3pdf

جميع الأضواء. وجرى الحديث حول بولا نيغري، وجريمة لينيرس، وعن كسوف الشمس الجزئي، وعن المغص الذي أصاب القط. كانت ديليا تعتقد أن القط يعاني عسر الهضم، وقد نصحت بمعالجته بزيت الخَرْوَع. أبدى والداها الموافقة، ولكن لم يظهر عليهما أنهما مقتنعان. كانا يتحدثان عن طبيب بيطري صديق، وعن منقوع من الأعشاب المرة. وكان رأيهما أن يترك القط وحده في الحديقة لكي يختار بنفسه الأعشاب التي تناسبه. لكن ديليا قالت إن القط سيموت منها، وان زيت الخروع وحده يمكن أن يطيل عمره بعض الشيء، وسُمعت نداءات بائع صحف عند زاوية الشارع وخرج آل مانيارا راكضين لشراء صحيفة «آخر ساعة». واستجابة لنظرة من ديليا، ذهب ماريو لإطفاء النور. ولم يبق سوى مصباح على طاولة الزاوية، كان يلطخ بالأصفر الحزين السجادة ذات الزركشات المستقبلية. وكان حول البيانو ضوء محجوب.

استعلم ماريو عن زينات ديليا الجديدة، وعن جهاز عرسها، وما إذا كانت تعمل، وما إذا الأفضل أن يتزوجا في آذار أم في أيار. وانتظر لحظة شجاعة للتحدث عن الرسائل المجهولة المصدر، لكن الخوف من ارتكاب خطأ كان يوقفه في كل مرة. كانت ديليا جالسة قربه على الأريكة الخضراء الغامقة، وكان فستانها الأزرق الفاتح يظهر طيفهابصورة غامضة في العتمة الخفيفة. وأراد تقبيلها لكنها انكمشت.

- ستعود أمي لتلقي علينا تحية المساء، انتظر حتى يذهبا إلى النوم.

كان يُسمع في الخارج صوت الوالدين مانيارا، وصرير الصحيفة، ودمدمة حديثهما. لم يكونا نَعِسَين هذا المساء، فقد حلت الساعة الحادية عشرة، وهما مستمران في الدردشة. عادت ديليا إلى البيانو، وكانت تعزف بإصرار ألحان فالس خلاسيّة طويلة مع استعادة عند الخاتمة كانت تزينها بزغردات[1] وزخرفات مبتذلة بعض الشيء لكنها كانت تفتن ماريو، وبقيت

(١) جمع زغردة وهي في الموسيقى تكرير لحنين بسرعة. (المترجم).

fb/mashro3pdf

إلى البيانو إلى أن جاء والداها ليتمنيا لهما مساء طيباً، لم يكن ينبغي أن يذهب في وقت متأخر جداً: فالآن، وقد أصبح من العائلة أصبح عليه أكثر من أي وقت مضى أن يعنى بديليا، وأن يحرص على أن لا تطيل السهر.

وحين انسحب الوالدان، ـ كأنما على مضض لكنهما كادا يسقطان من النعاس ـ كانت الحرارة تدخل في دفقات شديدة من باب الرواق ومن نافذة الصالون، وأراد ماريو كوب ماء، طازج، وذهب لإحضاره من المطبخ، بالرغم من ديليا التي أرادت أن تحضره هي نفسها (بل لقد غضبت بعض الشيء). وحين عاد، كانت ديليا قرب النافذة، وكانت تحدق في الشارع الخالي، الذي كان قد ذهب عبره، في ليال مماثلة، رولو وهيكتور... ارتمى بعض ضوء القمر على الأرض، قربها، وكان يصعد حتى الصحن المعدني الفضي الذي كانت تمسك به بيدها مثل قمر صغير آخر. لم تشأ أن تطلب إلى ماريو أمام ذويها أن يذوق حبات الملبّس، وهو سيفهم بالتأكيد إلى أي حد كانت متعبة من تأنيباتهم، وكانوا يرون دائماً أنها تستغل طيبة ماريو حين تطلب إليه أن يذوق حبات الملبس الجديدة. هذا مؤكد تماماً إذا لم يكن يرغب في ذلك... ولكن ما من أحد سواه كان يستحق ثقتها؛ كان والداها، من جهتهما، عاجزين عن التمييز بين رائحة وأخرى. كانت تقدم له حبة الملبس بحركة متوسلة، وفهم ماريو فجأة الرغبة الكامنة في صوتها، أصبح يفهم ذلك، الآن، بوضوح لم يكن آتياً من القمر ولا حتى من ديليا. وضع كوب الماء على البيانو ـ لم يكن قد شرب في المطبخ ـ وأمسك بحبة الملبس بين اصبعيه؛ كانت ديليا إلى جانبه تنتظر حكمه، لاهثة بعض الشيء كما لو أن مزاجها كان متوقفاً على هذا الحكم، ولهثت بصورة أشد أيضاً حين حمل حبة الملبس إلى فمه وقام بحركة لمضغها، لكنه أسدل يده مجدداً وأنّت ديليا كما لو أنها كُبّت في لحظة متعة لا متناهية. وشد ماريو قليلاً على جوانب الملبسة لكنه لم يكن ينظر إليها، ولم يكن يحول عينيه عن ديليا، عن وجهها الجبسي، هذا المهرّج المتنكر المنفّر في العتمة، وتباعدت أصابعه، فاتحة حبة الملبس،

fb/mashro3pdf

أضاء القمر جسم بنت وردان[1] المبيّض، هذا الجسم المجرّد من قشرته، وحوله كان مختلطاً بالنعناع وبمعجون اللوز، حطام الأجنحة والقوائم والقشرة المسحوقة.

ألقى قطع الحشرة على وجهها، فغطته بيديها وهي تنتحب باكية. كانت شهقات بكاء متسارعة مع حازوقة تخنقها، وصيحات تتزايد حدتها، كما حدث في مساء موت رولو؛ حينئذٍ أحاطت أصابع ماريو بعنقها كأنما ليحميها ضد هذا الذعر الذي كان يتصاعد داخلها، وهزات البكاء والأنين هذه التي استولت عليها، وهذه الضحكات المحطمة بانتفاضات. كان يريد فقط أن تصمت، وشد عليها فقط لكي تلزم الصمت. لا بد أن المرأة الطيبة ساكنة الطبقة الرابعة كانت تصغي الآن، مفعمة بالمتعة والخوف، كان ينبغي بأي ثمن اسكات ديليا. ووراءه، في المطبخ، حيث وجد القط مع أشواك طويلة مغروسة في عينيه، ينجر ذاهباً ليموت في المنزل. وسمع ماريو انفاس آل مانيارا، الأم والأب، اللذين نهضا من الرقاد واختبآ لمراقبتهما خفية: كان متأكداً من أن آل مانيارا قد سمعوا، وأنهم هنا وراء الباب، في عتمة المطبخ، وأنهم كانوا يستمعون إليه وهو يسكت ديليا. أرخى أصابعه المشدودة، وترك ديليا تسقط على الأريكة الخضراء، مختلجة، وقد شحب وجهها وازرق، لكنها كانت حية. وسمع لهاث الوالد والوالدة مانيارا، وضايقه هذا، بسبب أشياء كثيرة ابتداء من ديليا التي تركها لهما حية، والتي أصبحت مجدداً على عاتقهما. ومثل رولو، ومثل هيكتور، ذهب تاركاً لهما ديليا. كان يحس حقاً بشفقة كبيرة على الوالد والوالدة مانيارا، اللذين ظلا هناك يترصدان، آملاً في أنه ـ أو أن أحداً، في النهاية ـ سوف يُسكت ديليا التي كانت مستغرقة في البكاء والنحيب، وأن أحداً سوف يجفف دموع ديليا.

* * *

(١) بنت وردان Cafard : حشرة من طويلات الأجنحة تعيش في المطابخ (جيز حمام) (المترجم).

fb/mashro3pdf

أبواب السماء

في الساعة الثامنة، وصل جوزيه ـ ماريا حاملاً النبأ، وأبلغني مباغتة أن سيلينا قد توفيت. وأذكر أنني صدمت بهذه الكلمات: «سيلينا قد ماتت»، فكان ذلك، بعض الشيء كما لو أنها قررت هي ذاتها اللحظة التي يَحْسُن فيها أن تنهي الأمر. كان الليل قد ساد تقريباً، وكانت شفاه جوزيه ـ ماريا ترتعش حين قال ذلك.

ـ كانت تلك صدمة شديدة له، لـ«مورو»، بحيث كان كالمجنون حين غادرتُ. الأفضل أن نذهب إلى هناك.

كان علي أن أنهي تدوين بعض الملحوظات. بالإضافة إلى أنني كنت قد وعدت صديقة باصطحابها للعشاء. اتصلت هاتفياً مرتين، وخرجت مع جوزيه ـ ماريا بحثاً عن سيارة تاكسي. كان مورو وسيلينا يسكنان في ناحية سانتافيه، ولزم لنا عشر دقائق للوصول إلى هناك. ولدى اقترابنا، رأينا أشخاصاً واقفين تحت السقيفة بهيئة مذنبة ومتضايقة. وعلمت ونحن في الطريق أن سيلينا بدأت تتقيأ دماً حوالي الساعة السادسة، وأن مورو استدعى الطبيب وأن والدة مورو كانت معهم. وكما يبدو، ففي اللحظة التي كان الطبيب يحرر فيها وصفة وتعليمات طويلة، فتحت سيلينا عينيها وماتت وسط ما يشبه السعال، أو الصفير، بالأصح.

fb/mashro3pdf

ـ لقد توجب أن أُمسِك بمورو، واضطر الطبيب للفرار، إذ أراد مورو أن ينقضّ عليه. وأنت تعرف كيف يكون حين يستولي عليه الغضب.

كنت أنا أفكر في سيلينا، في وجه سيلينا الأخير الذي كان ينتظرنا في المنزل، وبالكاد أوليتُ انتباهاً لنحيب العجائز وعويلهن، وللبلبلة السائدة في صحن الدار، وفي المقابل، كنت أتذكر أن سيارة التاكسي قد كلفتنا ٢,٦ بيزوس، وأن السائق كان يلبس كاسكيت من الصقيلة[١].

ولمحت صديقين أو ثلاثة من جماعة مورو كانوا يقرأون الصحيفة عند عتبة الباب، وكانت بنت صغيرة ذات فستان أزرق تحمل بين ذراعيها قط الجيران، وتملّس شاربيه باهتمام وعناية.

وفي مكان أبعد، بدأ النحيب والعويل، ورائحة العفونة.

قلت لجوزيه ـ ماريا: اذهب لرؤية مورو. مؤكد أنه بحاجة إلى إسناد يقوّيه.

في المطبخ، كانوا قد بدأوا يحتسون بهشية الشاي (الماتيه) على التوالي. كانت السهرة الجنائزية قد بدأت تنتظم تلقائياً: الوجوه، والمشروبات، والحرارة. ماتت سيلينا، فترك الجيران كل شيء ليتجمعوا في مكان الحدث، ولدى مروري أمام المطبخ، امتصّ أحدهم انبوب قدح «الماتيه» محدثاً صوتاً؛ وألقيت نظرة على الغرفة الجنائزية. كانت ميزيا مارتيتا وامرأة أخرى تنظران إليّ من عمق زاويتهما المعتمة حيث بدأ السرور وكأنه يعوم في مربى السفرجل. وعرفت من هيئتهما المتعالية أنهما أنهتا غسل سيلينا ووضعتاها في الكفن؛ بل إن المكان كانت تفوح منه قليلاً رائحة الخل.

قالت ميزيا مارتيتا: يا للمرحومة الصغيرة المسكينة! ادخل، يا استاذ؛ تعال وانظر إليها، يخيل إليك أنها نائمة.

---

(١) الصقيلة Lustrine : نسيج صقيل من الحرير أو القطن. (المترجم).

fb/mashro3pdf

كبحت بصعوبة كبيرة الرغبة في أن أقول لها «اللعنة!»، وغصت في جو الغرفة الشديد الحرارة. ومرت فترة وأنا أنظر إلى سيلينا دون أن أراها، لكنني الآن تركت نفسي أذهب نحوها، نحو شعرها الأسود والأملس المزروع في أسفل الجبين الذي كان يلمع مثل الوجه الصدفي لقيثارة، ونحو الصحن المسطح الشديد البياض. صحن وجهها الذي لا يُعَوّض. وفهمت أنه لم يعد لي ما أفعله هنا، وأن هذه الغرفة أصبحت الآن ملكاً للنساء، للنادبات اللواتي كن يأتين أثناء الليل. وحتى مورو نفسه لم يكن باستطاعته أن يأتي ليجلس بهدوء قرب سيلينا، ولم تكن هي سيلينا ذاتها التي تنتظر هناك، هذا الشيء الأبيض والأسود الذي كان ينقلب قليلاً قليلاً إلى جانب النادبات، والذي كان يشجع تنويعاتهن على موضوع ساكن ودائم. وكان الأفضل الذهاب للبحث عن مورو، الذي كان ما يزال، هو، في جهتنا.

من الغرفة الجنائزية إلى قاعة الطعام كان حرّاس صامتون تماماً يدخنون في الرواق العديم النور. بيينا، وبازان الأبله، وشقيقا مورو الأصغران، ورجل عجوز غامض الهيئة، كلهم حيوني باحترام.

وقال لي أحدهم: شكراً لمجيئك يا استاذ. لقد كنت دائماً صديقاً لمورو هذا المسكين.

- في المصيبة يُعْرَف الأصدقاء، هكذا قال الرجل العجوز وهو يمد لي يداً أحدثت لدي أثراً كأنني لمست سردينة حية.

وأنا، خلال هذا الوقت، كنت مع سيلينا ومورو في لونا - بارك، نرقص، سيلينا ترتدي فستاناً أزرق سماوياً، لا يناسب إطلاقاً طابعها الهندي، ومورو في بذلة بيضاء صيفية، وأنا، مع ست كؤوس ويسكي في أنفي، وسكرة منزلية. كنت أُحب الخروج مع سيلينا ومورو، وأن أشهد عن قرب سعادتهما القاسية والدافئة. وكلما كانت تؤخذ علي هذه الصداقة، كنت أتمسك بها أكثر، (بأيامي، بساعاتي)، للمشاركة في حياتهما، التي لم يكونا هما بالذات، يعرفان عنها شيئاً.

fb/mashro3pdf

انتزعت نفسي من الرقص، كان أنين آتياً من الغرفة، متسلقاً على طول الأبواب.

- لا بد أنها الأم. هكذا قال «بازان الأبله»، بهيئة راضية.

وكنت أفكر: «يا له من تواضع! الأم تصل، الأم تبكي». أحسست بالاشمئزاز لتفكيري على هذا النحو، وأن أكون مرة أخرى آخذاً في التفكير بما كان الآخرون يكتفون بالاحساس به. لم تكن سيلينا ومورو فأري تجارب بالنسبة لي، كلا إطلاقاً. كنت أحبهما ولم أكفَّ عن حبهما. لكنني لم أستطع أبداً أن أشاركهما في البساطة. وقد اكتفيت بالاغتذاء بألق دمهما. أنا الأستاذ هاردوي، محام لا يكتفي بمجتمع بيونس أيرس الحقوقي والقضائي، والموسيقى ومجتمع سباق الخيل، وهو ينفذ إلى أبعد ما يستطيع من أبواب أخرى. وأعرف أن وراء هذا كله يوجد الفضول والملاحظات التي تملأ شيئاً فشيئاً سجلاتي وملفاتي. أمّا سيلينا ومورو، لا، سيلينا ومورو، لا!.

- من كان يتوقع هذا؟ هكذا قال بيينا بأنين، وأضاف: هكذا، بهذه السرعة...

- أنت تعلم، كانت رئتاها مصابتين بشدة.

- نعم، ولكن مع ذلك...

كانوا يتجنبون الأرض المفتوحة. الرئتان مصابتان بشدة. ولكن مع ذلك... وسيلينا هي أيضاً لم تكن تتوقع موتها؛ فبالنسبة لها، وبالنسبة إلى مورو، كان السل «شيئاً من الضعف».

ومجدداً رأيتها تدور بحماسة بين ذراعي مورو، في رائحة البودرة الرخيصة. تلك وفرقة كانارو الموسيقية على الشرفة، وإثر ذلك، رقصت معي رقصة سامبا، وكانت الجلسة غاصة بالراقصين وشديدة الحرارة، قذارة. «كم أنك ترقص جيداً يا مارسيلو» هيئة مندهشة من أن محامياً استطاع أن يتابع رقصة سامبا.

fb/mashro3pdf

لم يسبق لها، ولا لمورو، أبداً أن وجها إليّ الخطاب بصيغة المفرد؛ وأنا كنت أقول «أنت» لمورو، لكنني كنت أرد لسيلينا تهذيبها. ووجدت سيلينا صعوبة في التخلي عن «يا أستاذ»، كان يرضي كبرياءها بلا شك أن تخاطبني بهذا اللقب أمام الآخرين، «يا صديقي الأستاذ فلان...»، وطلبت إلى مورو أن يثنيها عن ذلك، وحينئذٍ بدأت تناديني بـ «مارسيلو»، هما، على هذا النحو، كانا يقتربان مني بعض الشيء، لكنني، أنا، كنت دائماً بعيداً نفس البعد، وعبثاً كنا نذهب معاً إلى حفلات الرقص، وإلى الملاكمة أو إلى كرة القدم (كان مورو، قد لعب مع «الراسينغ»، في الماضي)، أو كنا نحتسي «الماتيه» في المطبخ حتى ساعة متأخرة، فلم يكن لكل ذلك أي تأثير. وحين انتهت الدعوى، واكسبتُ مورو بذلك خمسة آلاف بيزوس، كانت سيلينا أول من طلب إليّ أن لا أبتعد، وأن آتي لزيارتهما. منذ ذلك الحين، لم تكن بصحة جيدة، كان صوتها، الأبح بعض الشيء دائماً، يضعف يوماً بعد يوم، كان ينتابها السعال ليلاً وكان مورو يشتري لها مشروب «الفيتين سيبا» المسكّن للسعال، والكانتونين، هذه الأشياء التي نرى إعلانات عنها في المجلات والتي ينتهي بها الأمر إلى أن توحي لنا بالثقة.

كنا نذهب معاً إلى حفلات الرقص، وكنت أنا أنظر إليهما يعيشان.

قال لي جوزيه ـ ماريا وهو يبرز فجأة قربي: يجب أن تكلم مورو. فذلك سيساعده.

ذهبت نحوه، ولكن طوال الوقت كنت أفكر في سيلينا، ليس الاعتراف بهذا شيئاً جيداً جداً، ولكن ما كنت أفعله، في الواقع، هو إعادة تجميع وتصنيف معلوماتي عن سيلينا، هذه المعلومات التي لم يسبق لي أبداً أن دونتها، لكنني كنت أملكها في يدي تماماً.

كان مورو يبكي مكشوف الوجه مثل أي حيوان جيد التكوين، دون أدنى خجل. كان يمسك بيدي ويبللهما بعرقه المحموم. وحين كان جوزيه ـ ماريا يجبره على احتساء كأس من الخمر، كان يبتلعه بين زفرتين، محدثاً صوتاً

fb/mashro3pdf

غريباً. والعبارات، هذه الهمهمة من الحماقات حيث كان يودع كل حياته، والشعور الغامض بالشيء الذي لا علاج له، الحادث لسيلينا، لكنه كان هو وحده الذي يتعذب به، ويتألم، النرجسية الكبيرة المشروعة أخيراً، والتي كانت تنطلق بحرّية تامة. لقد أثار مورو قرفي، لكنه كان يثير قرفي أكثر أيضاً، ورحت أحتسي ذلك الكونياك الرخيص الذي يحرق شفتيك دون أن يمنحك أية لذة. كانت السهرة الجنائزية سائرة على قدم وساق، ومن مورو حتى آخر زائر، كانوا جميعاً على أتمّ حال، حتى الليل كان يشارك في اللعبة، دافئاً وهادئاً، هذا الليل الجميل الذي يطيب قضاؤه في صحن الدار في التحدث عن الفقيدة المسكينة، مع بعض النميمة على حسابها لقضاء الوقت وانتظار الفجر.

حدث هذا في أحد أيام الإثنين، وكان علي أن أذهب إثر ذلك إلى روزاريو، لحضور مؤتمر للمحامين حيث لم يفعل الحاضرون سوى التصفيق بعضهم لبعض بالدور، والشرب بافراط. ولم أعد إلا في نهاية الأسبوع. وفي لقطار كانت تسافر معنا راقصتان من «المولان روج»؛ وتعرفت إلى احداهما التي تظاهرت بعدم معرفتي. طوال النهار، كنت أفكر في سيلينا؛ ولم يكن موت سيلينا هو الذي يهمني، بمقدار ما كان يهمني انفصام نظام الأشياء، وانتهاء عادة ضرورية، ولدى رؤيتي الفتاتين رحت أفكر في سيرة سيلينا، وفي مورو الذي سحبها من حانة «اليوناني كازيديس». كانت تلزم شجاعة لانتظار شيء ما، من امرأة كهذه، وفي ذلك الحين تعرفت إلى مورو، إذ جاء لاستشارتي في صدد دعوى عجوزته. وفي الزيارة الثانية، كانت سيلينا ترافقه، متبرجة مثل مومس، متمايلة يساراً ويميناً، لكنها ملتصقة بذراعه. حكمت عليهما من النظرة الأولى، وكنت استطيب بساطة مورو العدوانية، وجهده المكتوم لكسب سيلينا وتغييرها، في البدء، اعتقدت أنه نجح في ذلك، على الأقل في الظاهر، وفي حياة كل يوم. وإثر ذلك، لاحظت بعض الأشياء. كانت سيلينا تفلت منه عن طريق أهوائها، وشغفها بالمراقص، واستسلامها إلى أحلام طويلة قرب الراديو، أو أثناء عملية رتق، أو شغل الصوف. وحين سمعتها تغنّي، في ليلة خمر وانتصار في «الراسينغ»،

fb/mashro3pdf

أدركت أنها ما زالت في حانة «كازيديس»، بعيداً عن منزل مورو المستقر، ولكي أعرفها بصورة أفضل، كنت أغلق رغباتها الرخيصة، وكنا نذهب ثلاثتنا إلى كثير من الأماكن حيث توجد مكبرات صوت تصم الآذان، وأطباق بتزا محرقة، وأوراق صغيرة لزجة على الأرض. لكن مورو كان يفضل صحن الدار، وقضاء الساعات في الدردشة مع الجيران حول كوب «ماتيه». كان يستسلم شيئاً فشيئاً، ويخضع الانحناء. حينئذٍ كانت سيلينا تتظاهر بالرضوخ، وفي الواقع، كانت ترضخ للخروج أقل، وللبقاء، أكثر، في المنزل.

كنت أنا الذي أقنع مورو بالذهاب إلى حفلات الرقص، وأعرف أنها كانت، بسبب ذلك، تحسّ نحوي بالامتنان. كانا يتبادلان الحب، كلاهما، وكانت بهجة سيلينا كبيرة بحيث تكفي اثنين، وأحياناً ثلاثة.

بدا لي أنه برنامج جيد، أن استحمّ، وأتصل هاتفياً بنيلدا. لأقول لها انني سأمر لاصطحابها إلى ميدان سباق الخيل، وأن أذهب لزيارة مورو دون تأخير. كان في صحن الدار، يدخن بين إبريقيْ «ماتيه» لا نهاية لهما. وتأثرت لمرأى الثقبين أو الثلاثة ثقوب في قميصه، وربتّ على كتفه وأنا أقول له مرحباً. كان وجهه بنفس هيئته السابقة، حين كان مورو على حافة القبر، إذ ألقى حفنة التراب وارتمى إلى الوراء كأنه أصيب بالعمى. لكنني كنت أجد ضياء في عمق عينيه، وقبضة يده صلبة.

ـ شكراً لمجيئك: الوقت طويل، يا مارسيلو.

ـ أنت ملزم بالذهاب إلى «سوق الخضار»، أم أن أحداً سيحل محلك؟

ـ كلفت بذلك أخي الأعرج. إذ لا أملك الشجاعة للذهاب إلى هناك، فضلاً عن أن اليوم طويل، لا نهاية له.

ـ بكل تأكيد: يجب أن تتسلّى. ارتد ملابسك. سوف نقوم بجولة في باليرمو.

ـ إذا شئت. هذا أو شيء آخر...

ارتدى بذلة زرقاء، ووضع وشاحاً مطرزاً، وتطيب بعطر كان لسيلينا.

fb/mashro3pdf

كنت أحب طريقته في وضع قبعته على رأسه، وحافتها مرفوعة، كما أحب هشيته كرجل صلب. هذه المشية المرنة الصامتة، رضخت لسماع عبارة «في المصيبة يُعْرَف الأصدقاء»، وعند زجاجة الجعة الثانية، أفضى إليّ بكل ما كان في دخيلة نفسه، كنا جالسين حول طاولة في عمق أحد المقاهي. تركته يتكلم وكنت أملأ كأسه بانتظام. لم أعد أتذكر جيداً ما رواه لي، فقد كانت نفس الحكاية المكررة. وبقيت عبارة واحدة من حديثة ذاك: «إنها لديّ، هنا!» وكان يغرس سبابته وسط صدره كأنه كان يشير إلى ألم أو إلى مدالية.

وكان يقول أيضاً: «أريد أن أنسى». «أريد أي شيء كان، أن اسكر، أن أذهب إلى المرقص، وأن أنال أوّل بغي أصادفها. أنت تفهمني، أنت، يا مارسيلو، أنت...». كانت السبابة تصعد ملغوزة. وتنطوي دفعة واحدة مثل مطواة[1].

كان قد أصبح ناضجاً لقبول أي شيء كان، وحين ذكرت فندق «سانتافيه بالاس»، كأنما بصورة عابرة، تم الفعل إثر القول مباشرة، إذ ذهبنا إلى حفلة الرقص وكان أوّل من نظر إلى الساعة ونهض.

كنا نسير دون أن نتكلم، ونكاد نموت من شدة الغيظ، وأنا، طوال المسيرة، كنت أحزر أن مورو كان يندهش في كل لحظة، وكأنه يجري حسابه، مجدداً، من كونه لم يعد يحس لصق ذراعه بحبور سيلينا على طريق المرقص.

وقال لي بغتة: لم يسبق لي أبداً أن جئت بها إلى هذا الفندق الكبير. بل لقد ذهبت إليه قبل أن أتعرف إليها؛ كان عبارة عن مرقص صاخب، مع كؤوس من عصير العنب بالكحول، هل أنت ترتاده؟

لدي في فيشاتي وصف جيد لفندق «سانتافيه بالاس»، الذي لا يسمّى سانتافيه، ولا يوجد في هذا الشارع، في الواقع، بل في شارع مجاور.

---

(١) المطواة Canif سكين تُطوى. (المترجم).

fb/mashro3pdf

وللأسف أنه لا يمكن وصف أي شيء من هذا كله، لا الواجهة المتواضعة بلافتاتها الواعدة، ولا نافذة الاستقبال القذرة، ولا أيضاً القوّادون الذين يقتلون الوقت عند المدخل وينظرون إليك عند مرورك. وما يأتي إثر ذلك هو المتاهة الكاملة، الفوضى المتحولة إلى ما يشبه النظام: الجحيم ودوائره. جحيم لونا ـ بارك (مدينة الملاهي) الذخول بـ ٢,٥ بيزوس، وبـ ٥٠ سنتيماً للسيدات، مقصورات معزولة بعضها عن بعض بصورة سيئة، وهي أشبه بصحون الدور، مصفوفة في تتال، وفي المقصورة الأولى توجد جوقة موسيقية «استوائية»، وفي الثانية جوقة أخرى «شعبية»، وفي الثالثة جوقة موسيقية «نموذجية»، مع مغنين وآلات موسيقية. وحين أكون (أنا فيرجيل)[1] في ممر وسيط، أسمع الموسيقات الثلاث في وقت معاً، وأشاهد دوائر الرقص الثلاث؛ حينئذٍ يختار المرء الدائرة التي يفضلها، أو أنه ينتقل من واحدة إلى أخرى، ومن كأس إلى كأس، بحثاً عن موائد ونساء.

قال مورو بلهجته الكئيبة: لا بأس. لكنها حرارة لعينة. كان ينبغي أن يضعوا مكيفات هواء. (لأجل فيش: يجب أن ندرس، على أثر أورتيغا)[2]، اتصالات رجل الشعب مع التقنية؛ فحيث كان يمكن أن ننتظر صدمة كان ثمة استيعاب عنيف واستفادة. كان مورو يتحدث عن التبريد وعن جهاز تضخيم الذبذبات الكهربائية، بهذا الادعاء لدى فتى بيونس ايرس الذي يعتقد أن كل شيء مُسَخّر له.

أمسكت به من ذراعه واقتدته نحو إحدى الطاولات، لأنه كان شارد الذهن ويتطلع نحو منصة الجوقة الموسيقية النموذجية حيث كان المغني يمسك بمكبر الصوت باليدين وهو يؤرجحه بلطف. جلسنا وأسندنا مرافقنا

---

(١) فيرجيل Virgile: يشبّه الراوي نفسه بفيرجيل، الشاعر اللاتيني (٧٠ ـ ١٩ ق ـ م) الذي تصور دانتي، في ملحمته «الكوميديا البشرية» أنه رافقه في رحلة إلى الجحيم. (المترجم).

(٢) أورتيغا أي غاسيت (جوزيه) كاتب اسباني (١٨٨٣ ـ ١٩٥٥) صاحب أبحاث ومؤسس مجلة الغرب، نحا في أبحاثه منحى الدراسة الاجتماعية. (المترجم).

fb/mashro3pdf

بارتياح، أمام كأسين من المشروب الجيد، واحتسى مورو كأسه بجرعة واحدة.

- الجعة تهديء النفس. عكاريت، الناس الذين هنا.

وطلب كأساً أُخرى من الجعة الجيدة، وأتاح لي ذلك أن أنساه، وأن أنظر. كانت الطاولة ملتصقة بالمنصة؛ ومن الجهة الأخرى، كانت ثمة كراس مصفوفة مقابل جدار طويل، ومجموعة من النساء يتعاقبن بلا توقف، وقد اتخذن هذه الهيئة لساقيات الزبائن حين يعملن أو يلهون. كان الحضور قد كفّوا تماماً عن الكلام، وكانت تُسمع جيداً الموسيقى النموذجية، المتدفقة، الطاغية، التي تشيع جواً غريباً. وكان المغني يميل في غنائه إلى الحزن والكآبة؛ كانت هائلة طريقته التي كان يحسن فيها إضفاء جو درامي على إيقاع سريع «ضفائر صبيّتي، احملها في حقيبتي...». كان يتمسك بشدة بالميكرو كما لو أنه، أي المغني، على وشك التقيؤ، مع نوع من الدعارة المتعبة. وبين حين وآخر، كان يلصق شفتيه على المشبك المعدني الأبيض، ويخرج من مكبرات الصوت غناء لزج «أنا رجل محترم...». قلت في نفسي إنها ستكون فكرة صالحة للاستثمار، أن يخفي الميكرو في دمية من المطاط، وهكذا سيكون باستطاعة المغني أن يأخذها بين ذراعيه، ويتهيج قدر ما يشاء. لكن ذلك لن يناسب ألحان التانغو، إذ ان الابتسامة المعدنية هي أفضل في هذه الحال.

هنا، يبدو لي من المناسب أن أوضح أنني كنت آتيا لحضور حفلات الرقص هذه، لكي أشاهد المسوخ؛ وأنا لا أعرف مكاناً آخر يمكن أن يلتقي المرء بهذا المقدار منهم. إنهم يبدأون بالدخول حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً، قادمين من أحياء المدينة، المحفوفة بالأسرار، هادئي السمت واثقين من أنفسهم، منفردين، أو اثنين اثنين، النساء قزمات تقريباً، ذوات طابع خلاسي، والفتيان ذوو طابع جاوي أو هندي، قصار جداً وبدينون، مشدودون في بذلات سوداء أو ذات مربعات، وشعورهم كثة ممشطة بجهد، تنز البريانتين ذا الالتماعات الزرقاء أو الوردية. والنساء بتصفيفات شعر

fb/mashro3pdf

هائلة الحجم وعالية كانت تظهرهن أكثر تقزمًا أيضاً، ولكن بقي لهن منها على الأقل الارهاق والاعتزاز. وبالنسبة للرجال، فإن الموضة هي في الوقت الحاضر الشعر المُضبَّب، المنبوش، المنتفخ وسط الجبين، وهذه الطُرَر الضخمة والمختثة التي لا تتناسب إطلاقاً مع الوجه الفظ الذي تكلله، والحركة العدوانية لكن المكبوحة التي تنتظر أوانها، والجذوع الفعالة على قامات رشيقة. إنهم يتعارفون ويتبادلون الإعجاب في صمت، دون أن يظهروا أي شيء من ذلك، إنها حفلة رقصهم، ومكان لقائهم، ليل الناس الملونين.

(للتسجيل في ملف: من أين خرجوا، ما هي المهن التي تغيّر مظاهرهم في النهار، وأية عبوديات غامضة تفصل ما بينهم، وتنكّرهم؟). إنهم يأتون إلى هنا لأجل هذا، لكي يتلاقوا؛ إنهم يتعانقون برصانة، وباحترام، ورقصة بعد رقصة يدورون على مهل دون كلام، وكثيرون منهم يغمضون أعينهم، ويتمتعون أخيراً بإحساسهم بالمساواة، والتكامل. وفي أثناء ذلك، يعودون هم أنفسهم، مجدداً، وهم على الموائد مفعمون تبجحاً، النساء يتكلمن بصوت عال لاستلفات النظر، حينئذٍ يصبح الذكور سيئي المزاج، وقد رأيت يوماً صفعة أدارت نصف دورة تسريحة امرأة حولاء ذات فستان أبيض، كانت تمزمز كوباً من شراب الأنيسون. ثم هناك الرائحة، ولا يمكن تصور هؤلاء المسوخ بدون رائحة البودرة الرطبة على بشرتهم، ورائحة الثمار الحامضة؛ ونستشفّ عمليات الغسل السريعة، والخرقة المبللة التي تمرر على الوجه وتحت الإبطين قبل الشيء الأساسي: عمليات الغَسْل، وتخضيب الجفون بالريمل، وطلي الوجوه بالبودرة لجميع هذه السيدات؛ قشرة مائلة إلى البياض، وتحتها، لطخات سمراء تشفّ وتظهر للعيان. ويحيل لونها هي أيضاً. هذه النساء السمراوات يرفعن ما يشبه سنابل القمح الصلبة على أرض وجوههن الكثيفة، ويدرسن سحنهن بحركات امرأة شقراء، ويلبسن الفساتين الخضراء اللون، ويقتنعن بتحولهن، ويتسامحن، ويزدرين اللواتي يحرصن على لونهن. كنت أنظر إلى مورو بطرف العين، وأدرس الفرق الموجود بين هؤلاء المسوخ وهذا الوجه الإيطالي الطابع، وجه ابن الضاحية الأصل، دونما مزيج زنجي أو قروي، وتذكرت فجأة سيلينا، الأقرب إلى المسوخ،

fb/mashro3pdf

الأقرب كثيراً إليهم من مورو ومني. وأعتقد أن كازيديس قد استخدمها في حانته لإرضاء العنصر الخلاسي بين زبائنه، أولئك القلائل الذين كانوا يجازفون، في ذلك العهد، بارتياد حانته. وأنا لم يسبق لي أبداً أن ارتدت حانة كازيديس في عهد سيلينا،لكنني إثر ذلك قضيت فيها إحدى الأمسيات لمعرفة المكان، ولم أر سوى ساقيات بيض، وشقر، وسمر، وعلى الأخص بيض.

«إنهم يثيرون في الرغبة لأرقص رقصة تانغو» هكذا قال مورو مُقَطّباً. كان قد ثمل بعض الشيء، وهو يحتسي كأسه الرابعة. أما أنا، فكنت أفكر في سيلينا، بشدة عندها هنا، بالضبط هنا إلى حيث لم يأت بها أبداً.

كانت أنيتا لوزانو تُحَيّي الجمهور من على منصتها وتتلقى تصفيقه الشديد. وقد سبق لي أن سمعتها في «الرويالتي» في العهد الذي كانت أسهمها في ارتفاع؛ والآن أصبحت عجوزاً وهزيلة لكنها ما تزال محتفظة بكل قوة صوتها وجماله في أغاني التانغو. بل كان صوتها أفضل منه قبلاً، لأن أسلوبها كمغنية واقعية وهذه الكلمات الضاعنة تتلاءم جيداً مع صوت أبح وفاتر.

كان لسيلينا نفس الصوت بعد أن تشرب الخمر، وفجأة أدركت أن السانتافيه، كان هو سيلينا، حضور سيلينا الذي يكاد لا يطاق. وكان خطأ خطيراً من قبلها زواجها من مورو. لقد تحملت هي الأمر لأنها كانت تحب مورو، ولأنه أخرجها من قذارة حانة كازيديس، ومن التشوش ومن الكؤوس الصغيرة من الماء المحلّى بالسكر بين ضربات الركب الأولى من الزبائن وأنفاسهم الكثيفة، ولكنها إذا كانت لم تجبر على العمل في هذه الخمّارات، فقد كان يروق لها أن ترتادها وتقضي الوقت فيها. كان ذلك يرى بوضوح من وركيها، ومن ثغرها، وأنها قد خلقت من أجل التانغو، وأنها بُنيت من أخمص قدميها حتى قمة رأسها لأجل القصف والمجون. لهذا كانت تطلب من مورو أن يأخذها إلى حفلات الرقص؛ كنت أراها تتحول منذ المدخل، منذ الهبّات الأولى من الهواء الساخن، وإيقاعات الأنغام. في هذه الساعة، وأنا

fb/mashro3pdf

مستغرق جسداً وروحاً في جو «سانتافيه»، كنت أقدر عظَمَة سيلينا، وشجاعتها بأنها كافأت مورو على هذه البضعة الأعوام من المطبخ وأكواب «الماتيه» المحلى بالسكّر، في صحن الدار. لقد تخلت عن سمائها المفعمة بجلبة القصف وليالي المجون، وعن رسالتها اللاهبة باحتساء شراب الأنيسون، ورقصاتها الخلاسيّة. وكأنما كانت تضحي بنفسها في سبيل حب مورو، وحياة مورو، منتهكة بالكاد حدود عالمه هو، لكي يصطحبها بين حين وآخر إلى حفلة رقص.

كان مُورو قد عانق سمراء صغيرة أطول من الأُخريات، ذات قامة نحيفة جداً، وليست قبيحة إطلاقاً. إن اختياره الغريزي، والمتعمد مع ذلك، قد أضحكني؛ كانت الصغيرة هي الأقل «مسوخية» من جميع النساء الحاضرات في تلك الأمسية. ومع ذلك فإن سيلينا كانت نوعاً من «المسخ»، هي أيضاً، ولكن، في الخارج، وفي ضوء النهار، كان ذلك يلاحظ بصورة أقل مما يلاحظ هنا. كنت أتساءل ما إذا كان مورو يلاحظ ذلك، وخشيت بعض الشيء أن يؤنبني لأنني جئت به إلى مكان تولد فيه الذكرى من كل شيء مثل شعر على ذراع.

هذه المرة لم يكن هناك تصفيق، وعاد مورو مع الفتاة التي، بعد خروجها من رقصة التانغو، بدت منهكة ومتبلدة.

- اقدم لك صديقي.

تبادلنا عبارات الـ «تشرفنا» المستعملة في بيونس ايرس، وبدون شكليات أخرى قدمنا لها مشروباً. لقد سرتني رؤية مورو يتآلف مع الجو الليلي، بل وتبادلت بعض الكلمات مع المرأة التي كانت تدعى إيمّا، وهو اسم لا يناسب النحيفات. وكان مورو يبدو متحمساً كفايةً ويتكلم عن الموسيقى بهذا الأسلوب الوجيز والوقور الذي أعجب به عنده. وكانت إيمّا تصفَ أسماء مغنين، وتورد ذكريات حول فيللا كريسبو و إل تالار.

وأعلنت أنيتا لوزانو في تلك اللحظة عن تقديمها لأغنية تانغو قديمة،

fb/mashro3pdf

وكانت صيحات وتصفيق بين المسوخ، وخصوصا فتيان الريف الذين كانوا يعجبون بأنيتا بلا تحفظ. لم يكن مورو ثملاً إلى درجة أنه نسي كل شيء، وحين عادت الجوقة الموسيقية إلى نشر أنغامها وإيقاعاتها الهادرة، نظر إلي نظرة سريعة، مباغتة، وهو متصلب ومتوتر، وكأنه كان يتذكر. ورأيت نفسي أنا مجدداً في «الراسينغ»، ومورو وسيلينا متعانقين بصورة ضيقة على أنغام التانغو هذه التي دندنتها سيلينا بعد ذلك طوال السهرة وفي سيارة التاكسي أثناء العودة.

ـ هل نرقصها؟ هكذا قالت إيمّا وهي تفرغ في حلقها شراب الرمان محدثة صوتاً مسموعاً.

لم يكن مورو ينظر إليها مجرد نظر. ويبدو لي أننا في هذه اللحظة التقينا نحن كلانا في الأعمق. والآن (في لحظة كتابتي هذه) لا أجد صورة أخرى سوى هذه في أعوامي العشرين، حين كنت في «السبورتنغ بارّاكاس»، في ذلك اليوم حين قفزت إلى حوض السباحة، فالتقيت في القاع بسبّاح آخر؛ لمسنا القاع معاً ولمحنا بعضنا في الماء الأخضر والحرّيف. دفع مورو كرسّيه واستند بمرفقه إلى الطاولة. كان ينظر إلى حلبة الرقص، مثلي، وإيمّا، الضائعة بيننا نحن الاثنين، كانت تخفي مذلّتها بأكلها البطاطة المقلية. وبدأت تغني بصوتها الأكثر إثارة جنسية، وأزواج الراقصين والراقصات كانوا يرقصون دون حركة تقريباً، وكان ظاهراً أنهم كانوا يصغون إلى كلمات الأغنية، المفعمة بالرغبة والأسى، وأنهم يتمتعون بها خفيةً. كانت الوجوه تلتمس المنصة وتتبع بالأعين، وهي تدور، أنيتا المنحنية بحنان على الميكرو. كان البعض يحرك شفتيه، مردداً كلمات الأغنية، وآخرون أو أخريات يبتسمون ببلاهة، وكأنهم قد خرجوا من ذواتهم، وحين أنهت أنيتا أغنيتها بعبارات: «ومع ذلك كنت لي، لي كلياً، لي فقط والآن أنا أبحث عنك ولا أجدك» وعلى دخول أنغام الأغنية والصوت جميعاً معاً، أجاب عنف الرقص المتضاعف، الوجوه منحرفة جانباً، وخطوات الراقصين والراقصات متعانقة، وسط حلبة الرقص. كثيرون وكثيرات كانوا يتفصدون عرقاً بقطرات

fb/mashro3pdf

كبيرة؛ صبيّة يصل طولها، بالكاد، إلى الزر الثاني من سترتي، مرت على مقربة من الطاولة، ورأيت العَرَق الذي يتلألأ عند منبت شعرها ويسيل على رقبتها حيث الدهن يشكل شبه مزراب أكثر بياضاً. وكان دخان يأتي من القاعة المجاورة حيث كانوا يأكلون شواءً أو يرقصون رقصات «الرانشيراس»؛ كان اللحم المشوي والسجائر تطلق سحابة تغير أشكال الوجوه والرسوم الرخيصة المعلقة على الجدار المقابل. وأعتقد أن تغيّر الأشكال كان له علاقة بي أنا أيضاً، بعد أن شربت ست كؤوس من الخمر الجيدة. كان مورو يمسك ذقنه بظاهر يده، وينظر أمامه بثبات. وكان يبدو لنا طبيعياً تماماً أن يستمر لحن التانغو والرقصة، وأن يستمرا بلا نهاية، هناك، فوق. ومرة أو مرتين، رأيت مورو يطلق نظرة نحو المنصة حيث كانت أنيتا تتظاهر بتحريك عصا صغيرة في يدها. لكنه سرعان ما عاد يحدق بنظرة ثابتة في أزواج الراقصين والراقصات. لا أعرف كيف أعبر عن الأمر، ويبدو لي أنني كنت أتابع نظره وفي الوقت نفسه أدله على الطريق. كنا نعلم، دون أن نتبادل النظر (يبدو لي على كل حال أن مورو كان يعلم ذلك) إن نظراتنا تتلاقى، وأننا كنا نقع على نفس الأزواج الراقصة، ونفس الشعور (جمع شَعْر) ونفس البناطيل. سمعت إيمّا تقول شيئاً ما، وتعتذر، والمجال الذي كان يفصلنا عن مورو أصبح أكثر صفاء. وبدا أن لحظة من الغبطة القصوى قد حطت على حلبة الرقص. تنفست بعمق كأنما لأشارك في هذه الغبطة، وأظن أنني سمعت مورو يفعل نفس الشيء. وكان الدخان كثيفاً إلى حد أن الوجوه ابتداء من وسط الحلبة بدت مشوشة، ولم يعد يمكن التمييز بين الكراسي والنساء اللواتي لم يدعين إلى الرقص. «ومع ذلك كنتَ لي . . .»، غريب، هو هذا الصوت المطقطق الذي كان مكبر الصوت يعطيه لأنيتا. ومجدداً كان الراقصون والراقصات يجمدون (دون التوقف عن التحرك) وسيلينا، التي كانت في جهة اليمين، برزت من الدخان وهي تستدير استجابةً لضغط مُرَاقِصها وظلت لحظة مبدية وجهها الجانبي، ثم رأيتها من الظَهر، ثم الوجه الجانبي الآخر، ورفعت رأسها لسماع الموسيقى. أقول تماماً: سيلينا، ولكن، في تلك اللحظة، عرفت ذلك أكثر مما فهمته، سيلينا التي كانت هنا، دون أن تكون هنا طبعاً، كيف

fb/mashro3pdf

يُفْهَم هذا في نفس اللحظة . راحت الطاولة تهتز فجأة ، كنت أعرف أنها ذراع مورو ، أو ذراعي التي كانت ترتجف ، لكن هذا لم يكن خوفاً ، بل كان ذهولاً بالأصح ، السعادة ، وذهول المفاجأة . أبله ، كان هذا الشعور بالغرابة الذي كان يسمرنا في أماكننا ، ويمنعنا من استعادة وعينا . كانت سيلينا ما تزال هناك ، تشرب نغم التانغو بكل وجهها الذي كان نور أصفر من الدخان يعاكسه ويشوهه . إن أية فتاة من هذه الفتيات السمراوات كان يمكن أن تشبه سيلينا أكثر من ذاتها في هذه اللحظة ، كانت السعادة تغير شكلها بصورة فظيعة ؛ شخصياً ، لم يكن بوسعي أن أتحمل السيلينا التي كنت أراها هنا ، في هذا التانغو . وكان قد بقي لدي مقدار كاف من وضوح الذهن لأقيس مدى فتك السعادة بها ، ووجهها النشوان المنذهل والمتبلد في الفردوس الذي بلغته أخيراً ؛ هكذا كان يمكن أن تكون في حانة كاسيديس لو لم يكن هناك العمل والزبائن . لم يعد من شيء يضايقها الآن ، في هذه السماء التي كانت لها وحدها ، كانت مستسلمة بكل جلدها إلى السعادة وتدخل مجدداً في نَسَق للأشياء حيث لا يستطيع مورو أن يتبعها . كان ذلك فردوسها القاسي الذي كسبته أخيراً ، نغمها التانغو الذي كان يعزف لها وحدها ولمثيلاتها حتى موجات التصفيق مثل ألواح زجاج مكسّرة تحيي نهاية لازمة أغنية أنيتا ، وسيلينا البادية من الظَهْر ، سيلينا من الوجه الجانبي ، وازواج أخرى من الراقصين والراقصات أمامها ، والدخان .

ما كنت أريد النظر إلى مورو ، كنت أعود إلى نفسي الآن ، وكانت وقاحتي المعروفة تبتكر على عجل عدداً لا يحصى من التصرفات ؛ كان كل شيء يتوقف على الكيفية التي سيتطرق هو بها إلى المسألة ، ولهذا لبثت بلا حركة ، أنظر بانتباه إلى حلبة الرقص التي كانت تخلو شيئاً فشيئاً .

- هل رأيتَ؟
- نعم .
- أرأيت إلى أي حد هي تشبهها؟

لم أُجب ، كان ارتياح العزاء أقوى من الشفقة . كان من هذه الجهة ،

fb/mashro3pdf

المسكين، كان من هذه الجهة، ولم يكن يستطيع أن يصدق ما رأيناه معاً. نهض واجتاز حلبة الرقص بخطى رجل سكران، ذاهباً بحثاً عن هذه المرأة التي تشبه سيلينا. أمّا أنا فلم أتحرك، كنت أدخن لفافة شقراء دون استعجال، ناظراً إليه وهو يروح ويجيء، عارفاً أنه يضيع وقته، وأنه سيعود متهوراً وظامئاً دون أن يعثر على أبواب السماء وسط هذا الدخان وبين هذا الجمهور الحاشد.

* * *

fb/mashro3pdf

استمرارية الحدائق

بدأ يقرأ الرواية قبل ذلك ببضعة أيام. وتركها بسبب أعمال ملحة وفتحها مجدداً في القطار، لدى عودته إلى منزله. كان يستسلم على مهل للاهتمام بالحبكة وبطباع الشخصيات. في ذلك المساء، بعد أن كتب رسالة إلى وكيل أعماله وناقش مع المعتمَد إحدى مسائل المذاكرة، استأنف قراءته في هدوء شقته الصغيرة، التي كانت تطل على الروضة المزروعة بأشجار السنديان. كان جالساً في فوتيله المفضل، مولياً ظهره إلى الباب، لكي لا تزعجه إمكانية مثيرة من المضايقات المختلفة، تاركاً يده اليسرى تداعب من حين لآخر المخمل الأخضر. أخذ يقرأ الفصول الأخيرة. كانت ذاكرته تحفظ بلا جهد أسماء الأبطال ومظهرهم. وسرعان ما استولى عليه الإيهام الروائي. كان يتمتع باللذة شبه المنحرفة، لذة الابتعاد شيئاً فشيئاً أو سطراً فسطراً، عما يحيط به، مع بقائه شاعراً بأن رأسه يرتاح بصورة ملائمة على مخمل مسند الفوتيل المرتفع، وبأن السجائر ما زالت في متناول يده، وأن أنفاس المغيب عبر النوافذ الواسعة تبدو وكأنها تتراقص تحت أشجار السنديان.

عبارة بعد عبارة، وقد استغرقه الخيار الدنيء الذي كان يتخبط فيه الأبطال، استسلم للصور التي كانت تنتظم وتكتسب تدريجياً حياة ولوناً. وهكذا كان شاهداً على اللقاء الأخير في الكوخ بين العلّيق. دخلت المرأة أوّلاً، حذرة، ثم جاء الرجل، وقد خمشت وجهه أشواك غصن. كانت

fb/mashro3pdf

تكفكف بصورة رائعة بقبلاتها دم الخدوش . وكان هو يتهرب من المداعبات . إنه لم يأت لتكرار احتفاليّة شَغَفٍ سرّي محمي بعالم من الأوراق اليابسة والدروب الخفية . كان الخنجر يغدو دافئاً بملامسته صدرها . وتحت ، عند وتيرة القلب ، كانت تنبض الحرية المتمنّاة . كان حوار لاهثٌ يدور على طول الصفحاتٍ مثل نهر من الزواحف ، وكان يُحَسّ أن كل شيء كان مقرراً منذ البدء . حتى هذه المداعبات التي كانت تغمر جسد العشيق كأنما لكبحه وثَنْيه ، كانت ترسم بصورة كريهة انحاء الجسد الآخر ، الذي كان من الضروري صرعه . لم يُنْسَ أي شيء : الحجج ، والمصادفات ، والأخطاء الممكنة . وابتداء من هذه الساعة ، كان لكل لحظة استعمالها المحسوب بدقة . كانت تجربة المشهد ، المزدوجة وعديمة الرحمة ، قد توقفت بالكاد في الفترة ريثما تلامس يدٌ خداً . وبدأ الليل يسود .

ودون أن يتبادلا النظر ، ومرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالمهمة التي تنتظرهما ، انفصلا عند باب الكوخ . كان عليها أن تتبع الدرب المتجه نحو الشمال . وعلى الدرب المقابل ، استدار لحظة ليراها تركض محلولة الشعر . وبدوره ، راح يركض ، منحنياً تحت الأشجار والأسيجة . وفي النهاية ، تميز في المغيب الوردي الممر المؤدي إلى المنزل . ما كان ينبغي أن تنبح الكلاب وهي لم تنبح . في هذه الساعة ، لم يكن ينبغي أن يكون المدبّر هناك ، وهو لم يكن هناك . صعد درجات المدخل الثلاث . ودخل . ومن خلال الدم الذي كان يطنّ في أذنيه ، كانت ما تزال تصل إليه أقوال المرأة . في البدء غرفة زرقاء ، ثم رواق ، ثم درج مع سجّادة . وفي الأعلى ، بابان . لا أحد في الغرفة الأولى ، لا أحد في الثانية . باب الصالون ، وحينئذٍ ، والخنجر بيده ، أضواء الكوى الكبيرة ، والمسند المرتفع للفوتيل المخملي الأخضر ، وبارزاً من الفوتيل ، رأس الرجل مستغرقاً في قراءة رواية .

* * *

fb/mashro3pdf

البعيدة
يوميات ألينا رييس

١٢ كانون الثاني :

تجدد هذا في المساء، وأنا، المتعبة جداً من الأساور والتنانير، ومن الشمبانيا القرنفلية ومن وجه ريناتو فينيس، أوه! وجه الفقمة هذا المتعتِع، وهذه الصورة لدوريان غراي في نهايته! رقدت وفي فمي طعم الملبس بالنعناع، ونكهة ماما المتثائبة والكئيبة (كما هي دائماً لدى عودتها من سهرة، كئيبة ونائمة، سمكة ضخمة، وبغير هيئتها كلياً).

ونورا التي تقول إنها تستطيع النوم بالرغم من الضوء، وبالرغم من الضجة، تماماً في إبّان المسارّات الملحّة لشقيقتها نصف العارية. ما أسعدهما، وأنا أطفأت النور ويديّ، وتعرّيت بصيحات شديدة من النهاري والمتحرك، أريد أن أنام وأنا جرس مرعب يرنّ، موجة، والسلسلة التي يجرّها ريكس طوال الليل على «أزهار الربَاط»[1]. Now I lay me down to... Sleep... عليّ أن أنشد أشعاراً أو أن أحاول نظام البحث عن كلمات ذات حرف أ، ثم أ وإيه e، ثم كلمات بخمسة حروف لين، ثم بأربعة، وبحرفي لين وحرف صامت، وبثلاثة حروف صوامت وحرف لين، ثم العودة إلى الأشعار: القمر يأتي إلى محرف الحدّاد مع ولده المصاع من ناردين، الولد

---

(١) أزهار الرباط أو جنبات الرباط، نوع من الأزهار للتزيين. (المترجم).

fb/mashro3pdf

ينظر إليه، وينظر، يذهب الولد ناظراً إليه. بثلاثة حروف لين وثلاثة حروف صوامت متناوبة.

ساعات مرت على هذا النحو: بأربعة، بثلاثة، وباثنين، وفي النهاية، العبارات التي تقرأ طرداً وعكساً، السهلة مثل l'arôme moral, élu par cette cropule ؛ وتلك التي هي الأكثر صعوبة، لكنها أيضاً الأجمل:

a l'autel elle alla, elle le tua la; cerise d'été je te désire;

أو أيضاً الجناسات التصحيفية[1] الجميلة: Salvador Dali Avitla (باللغة الأسبانية Dollars. Alina Reyes c'est la reine et. (es la reina y..

إنها رائعة هذه، لأنها تفتح طريقاً، ولأنها لا تنتهي. لأن الملكة و. . .

كلا، إنها فظيعة، فظيعة لأنها تفتح طريقاً لتلك التي ليست هي الملكة، والتي، مجدداً، في الليل أبغضها، لتلك التي ليست ملكة الجناس التصحيفي، التي تستطيع أن تكون كل ما نشاء، متسولة في بودابست، نزيلة في ماخور في جوجوي، أو خادمة في كيتزالتينانغو، في أيما مكان، بعيداً، وعلى كل حال ليس ملكة. ومع ذلك فهي ألينارييس، ولأجل هذا فإنني أحسست بها وأبغضتها، أمس مساء، من جديد.

٢٠ كانون الثاني:

أحياناً أعرف أنها تحس بالبرد، وأنها تتألم، وأنهم يضربونها. ولا أستطيع إلا أن أبغضها بكل قواي، وإلاّ أن أمقت الأيدي التي يلقي بها على الأرض، وأن امقتها هي أيضاً، لأنهم يضربونها، لأنهم يضربونني أنا. آه! إن هذا لا يصيبني باليأس طوال ما أنا نائمة، وحين أخيط فستاناً، وحين تستقبل أمي زواراً، وأنا أقدم الشاي إلى السيدة ريغوليس أو إلى الصغير ريفاس. كان هذا أقل أهمية بالنسبة لي حينئذٍ، إنه بعض الشيء مسألة

(١) الجناس التصحيفي Anagramme : كلمة يُبدّل في حروفها لتكوين كلمة جديدة (المترجم)

fb/mashro3pdf

شخصية، مني إلي. إنني أحس بها، أكثر، سيدة مصيرها المحزن، بعيدة ووحيدة، لكنها سيدة نفسها. فللتعذب، وللتجمد من الصقيع؛ أنا هنا، أتصلّب أنا أيضاً. وأعتقد أنني أساعدها بعض الشيء. كان ذلك كأنني أصنع خرق الضماد لجندي لم يصب بجراح بعد، وأحس بالبهجة لإسعافه، مقدماً.

فلتتعذب، إنني أعانق السيدة ريغوليس، وأقدم الشاي للصغير ريفاس، واستجمع كل قواي الداخلية للصمود. وأقول في نفسي: «في هذا اللحظة أنا أجتاز جسراً متجمداً، في هذه اللحظة ينفذ الجليد إلى حذائي المثقوب». ليس ذلك لأنني أحس بأي شيء كان. أعرف فقط أن الأمر هكذا، وفي مكان ما من العالم اجتاز جسراً في نفس اللحظة (لكنني لا أعرف إن كان ذلك في نفس اللحظة) التي قبل فيها الصغير ريفاس الشاي مني، واتخذ هيئته الأكثر بلاهة. وأنا أتحمل ببسالة هذا الإحساس لأنني وحيدة بين هؤلاء الأشخاص السخفاء، ولأنّ هذا يجعل الأمر أقل إرهاقاً...

نورا، مساء أمس، بهتت بسبب ذلك، وقالت لي: «ولكن ماذا يحدث لك؟» للأخرى كان يحدث شيء ما، لي أنا البعيدة جداً. كان يحدث لها شيء مرعب، كانوا يضربونها، أو أنها كانت تحس بأنها مريضة، وبالضبط في اللحظة التي كانت نورا فيها على أهبة الغناء، وأنا أمام البيانو، أنظر بسعادة إلى لويس ـ ماريا المستند إلى ذيل بيانو «البلايل» الذي كان كأنما يشكل له إطاراً، وهو الذي ـ لويس ـ كان قد بدأ يعير اذنه للتوقيعات النغمية المتسارعة وينظر إلي وهو جد مسرور، بشدقه الطيب الذي يشبه شدق كلب صغير ـ الاثنان، نورا ولويس ـ ماريا قريبان جداً أحدهما من الآخر، ويحبنا حباً قوياً جداً. هذا هو الأسوأ. أن أعرف جديداً عنها بالضبط لحظة رقصي مع لويس ـ ماريا، أو حين أقبّله، أو أكون موجودة فقط قربه. ذلك لأنني، أنا البعيدة، لا يحبونني. إنه شطري الذي لا يحبونه، وكيف لا أن أكون ممزّقة حين أحس بأنهم يضربونني أو بأن الجليد ينفذ إلى حذائي، في حين يرقص لويس ـ ماريا معي، ويده على قامتي تجتاحني مثل حرارة الظُهر، أو طعم البرتقال المر، أو اهتزاز الخيزران في الهواء، وهي يضربونها، ولا أستطيع

fb/mashro3pdf

أن أتحملها وقتاً أطول وأنا مرغمة على أن أقول للويس ـ ماريا إنني لست في حالة جيدة، وأنها الرطوبة، رطوبة هذا الجليد الذي لا أحس به، الذي لا أحس به والذي ينفذ إلى حذائي.

٢٥ كانون الثاني:

طبعاً جاءت نورا إليّ وعنفتني: «يا صغيرتي، هذه آخر مرة أطلب فيها إليك أن تصاحبيني على البيانو. لقد كنا أضحوكة». إذا كانت تعتقد أنني أهتم لما هو مضحك، لقد صاحبتها كما استطعت، وأتذكر أنني سمعتها تغني بصوت خافت: «روحك هي منظر مختار...» لكنني نظرت إلى يديّ على ملامس البيانو وبدا لي أنني كنت أعزف بصورة جيدة، وأنني كنت أصاحب غناء نورا بإخلاص. إن لويس ـ ماريا قد نظر هو أيضاً إلى يدي، المسكين، ولا شك في أنه لم يجرؤ على النظر إلى وجهي، لا بد أنه يكون لي وجه غريب مضحك في مثل هذه اللحظات.

يا لنورا الصغيرة المسكينة، فلتصاحبها لدى الغناء عازفة أخرى. (هذا يشبه، أكثر فأكثر، عقاباً: الآن أحس بأنني هناك كلما أوشكت أن أصبح سعيدة. حين تغني نورا أغاني «فوريه» Fauré، أعرف أنني هناك ولا يبقى لي سوى البغضاء.

نفس هذا المساء:

أحياناً يكون الحنان، حناناً مفاجئاً وضرورياً نحو تلك التي ليست الملكة والتي هي هناك. كنت أحب أن أبعث لها ببرقية، أو رزمات بريدية، وأن أعلم أن أولادها في صحة جيدة، أو أنها ليس لها أولاد ـ أعتقد جيداً أنني هناك ليس لي أولاد ـ وأنها بحاجة إلى تسلية، وإلى عطف، وإلى حلوى. أمس مساء رقدت وأنا أتصور رسائل، وأماكن لقاء. سأصل الخميس. قف. انتظريني جسر، قف. أي جسر؟ هذه فكرة تعاودني كما تعاودني بودابست، تصديق مسألة متسولة بودابست حيث يجب أن يكون هناك جسور كثيرة وجليد كثير يرشح. حينئذٍ انتصبت على سريري متصلبة تماماً وكدت أصرخ

fb/mashro3pdf

مزمجرة، وكدت أذهب لأوقظ أمي، وأعضها لكي تستيقظ. لمجرد التفكير في ذلك. ليس من السهل بعد، القول. مجرد التفكير في أنني أستطيع أن أرحل فورا نحو بودابست إذا كنت أرغب في ذلك حقاً. أو نحو جوجوي أو نحو كتيزالتينانغو (توجب علي البحث عن هذه الأسماء في الصفحات السابقة) ليست لها أية أهمية، ونفس الشيء أن يقال تريس - أرويوس، كوبي، ١٤٥، شارع فلوريدا. تبقى بودابست لأن هناك يوجد البرد، هناك يضربونني ويهينونني. يوجد شخص ما هناك (حلمت بذلك، ليس ذلك سوى حلم، ولكن كم هو يلتصق بي، وكم هو يتسرب نحو حالة اليقظة!) شخص ما يسمّى رود - أو إيرود أو رودو - وهو يضربني وأنا أحبه، لا أدري إن كنت أحبه لكنني استسلم للضرب، وهذا يتكرر مجدداً كل يوم، إذن أنا أحبه.

بعد ذلك بوقت وجيز:

كذِب. لقد حلمت بـ «رود».

- ربما تماماً عن طريق صورة حلم مبتذلة، أوّل صورة خطرت، وهي قد بليت. لا وجود لـ رود، مؤكد أنني أعاقَب هناك، ولكن من يمكنه أن يقول إن كان هو رجل، أو أم غاضبة، أو عزلة.

أن أستطيع الذهاب للبحث عني. أن أقول للويس - ماريا: «فلنتزوج وخذني إلى بودابست حيث يوجد الجليد وشخص ما». افتراض: «ماذا لو كنت على هذا الجسر؟» (لأن هذا كله أحس به مع الأفضلية السرية بأنني لا أريد أن أصدق ذلك تماماً. ماذا لو كنت هناك؟). حسناً، لو كنت هناك... ولكن يجب أن أكون مجنونة لكي... يا له من شهر عسل!

٢٨ كانون الثاني:

فكّرتُ في شيء غريب. منذ ثلاثة أيام لم يعد يصلني شيء من البعيدة. لعلها لم تعد تُضْرَب في الوقت الحاضر. ولعلها استطاعت أن تحتمي في مكان ما. أن أُرسل لها برقية، وجوارب... لقد فكرت في شيء غريب. كنت أصل

fb/mashro3pdf

إلى المدينة المرعبة، كان ذلك بعد ظهر أحد الأيام، بعد ظهر ضارب إلى الخضرة، ومائي كما لا تكون أبداً فترات بعد الظهر إذا لم يضف إليها التفكير قليلاً. في ناحية دوبرينا ستانا، في جادّة سكوردا، جياد منتفشة الغوارب على شكل صواعد متحجرة، ورجال شرطة متصلبو الأجسام، وأقراص خبز يتصاعد منها البخار، وأهداب ريح تثير كبرياء النوافذ، تسكعت على الدوبرينا كسائحة، والخريطة في جيب «تايوري» الأزرق (كوني، في هذا البرد، نسيت معطفي في «البورغلوس»)، حتى ساحة تقع قرب النهر، تقريباً فوق النهر الذي يرعد ويدحرج ثلوجه المحطمة، وقوارب به المسطحة، وطائر «مازور»، لا بد أنه يسمّى هناك سبونايا تجينو، أو أسوأ من ذلك أيضاً.

وافترضت أنه بعد الساحة يأتي الجسر. فكرت في هذا ولم أشأ أن أمضي إلى أبعد. كان ذلك مساء حفلة ايلسا بياجيو الموسيقية في «الأوديون»؛ وارتديت ملابسي دون اندفاع؛ وكنت أحس مسبقاً بأن الأرق ينتظرني في نهاية السهرة. هذه العادة المستهجنة، عادة التفكير أثناء الليل، حتى ساعة متأخرة من الليل... من يعلم إذا كنت لن أهلك على هذا النحو! حين يرحل المرء بالفكر، يبتكر أسماء وهو يتذكرها لتوّه، دوبرينا ستانا، سبونايا تجينو، بورغلوس... لكنني لا أعرف اسم الساحة. المسألة، بعض الشيء، كأنني وصلت حقاً إلى ساحة في بودابست وأنني، إذ كنت لا أعرف اسم هذه الساحة، أحسست بأنني ضعت هناك، هناك حيث الاسم هو ساحة.

أنا جئت، يا ماما. سوف نصل دون عائق إلى «باخك» وإلى «براهمزك». إنها طريق سهلة جداً، دون ساحة، وبدون «بورغلوس»، إيلسا بياجيو في طرف منها، ونحن في الطرف الآخر. وخسارة انني قوطعت، أن أعرف أنني في ساحة (الآن ما عدت متأكدة من ذلك، أنا أظن ذلك فقط، وهذا شيء قليل). وأنه في نهاية الساحة يبدأ الجسر.

نفس هذا المساء:

ابدئي واستمري. بين نهاية الحفلة الموسيقية وطلب الإعادة الأوّل، وجدت الاسم والطريق. ساحة فلاداس، وجسر الأسواق. اجتزت الساحة

fb/mashro3pdf

حتى مدخل الجسر، تارة بخطوة جادّة، وطوراً بالرغبة في أن أتوقف عند المنازل، وواجهات المحلات الزجاجية، والأطفال المدثّرين بالملابس، والمناهل التي يعلوها أبطال كبار ذات اللفاعات المكسوة بالجليد، تاديو ألانكو، فلاديسلاس نيرو، وشاربو التوكاي، وضاربو الصنوج. كنت أرى إيلسا بياجيو تحيي بين لحنين لشوبان، المسكينة، ومن مقعدي الأمامي كان يمكن الوصول مباشرة إلى الساحة حيث يصل الجسر بين أعمدة جبارة. لكن هذه، أرجو الانتباه، هي فكرة طوعية كأنما للقيام بالجناس التصحيفي: إنها الملكة و... لأجل ألينارييس أو لأتخيل أن ماما هي عند آل سواريز وليست إلى جانبي. هذه كلها هي قصص مني، لأجل المتعة. متعة ملكية. ملكية بسبب ألينا... فلننتقل إلى شأن آخر. لكن الانطباع الآخر، الإحساس بأنها تشعر بالبرد، وأنه تساءُ معاملتها، ليس مشابهاً. إنها فكرة تمر في رأسي وأنا أتابعها لكي أتسلى، لأرى إلى أين تمضي، لأعرف ما إذا كان لويس ـ مازيا سوف يصطحبني إلى بودابست، إذا كنا سنتزوج، وإذا كنت سأطلب إليه أن يصطحبني إلى بودابست. ولكن من الأسهل المضي للبحث عن هذا الجسر، والمضي للبحث عني وللعثور علي، شأني الآن، ذلك لأنني اجتزت نصف الجسر تحت صيحات «مرحى»، صيحات الـ «ألبينيز!». «Albeniz!». وموجات التصفيق المتكررة و «البولونيز!»[1]، وكأن لهذا معنى وسط أعاصير الريح والجليد التي كانت تجرني، يدي منشفة ـ سفنجة تمسكان بي من قامتي وتدفعانني إلى وسط الجسر.

(من الأسهل التكلم في الوقت الحاضر. كان ذلك يحدث في الساعة الثامنة، في نفس اللحظة حيث كانت إيلسا بياجيو تعزف المقطع الثالث «المعاد»، لحن معين لـ «جوليان آغير»، أو لكارلوس غواستافينو فيه مروج وعصافير صغيرة). لكنني أصبحت وقحة بمضي الزمن، ولم أعد أوليها أي احترام. وأذكر أنني كنت أفكر يوماً: «هناك، يشبعونني ضرباً؛ هناك الجليد

---

(١) «البولونيز» la Polonaise .. لحن بيانو مشهور لشوبان. (المترجم).

fb/mashro3pdf

ينفذ إلى حذائي، وأنا أعرف هذا فوراً، أعرف في نفس اللحظة حين يحدث لي هناك. ولكن لماذا في اللحظة نفسها؟ ربما كان هذا يصلني بتأخر، وربما هو لم يحدث بعد. وربما بعد أربعة عشر عاماً سوف تُضْرَب، وربما هي قد أصبحت صليبا مع بلاطتين في مقبرة «سانت أورسيل»، وبدا هذا لي جميلاً، ممكناً، وأحمق تماماً. ذلك لاننا، وراء هذه الأشياء، نسقط في الوقت المتزامن، فإذا كانت إيلسا، في هذه اللحظة تصل حقاً إلى الجسر، فإنني سأحس بهذا من هنا حيث أنا موجودة. أنا أذكر أنني توقفت لأنظر إلى النهر الذي كان يشبه المايونيز المحمضة، وكان يضرب الأعمدة، مجنوناً من الغضب، يرنّ ويسوط (هذا الأمر، أنا الذي كنت أتصوره). كان هذا يستحق عناء الانحناء فوق الحاجز وأن أحس في أذني طقطقة الجليد هناك في القاع. وكان هذا يستحق عناء التوقف قليلاً لأجل المنظر، وقليلاً لأجل الخوف الذي كان يتصاعد في داخلي ـ أم كان ذلك لأنني كنت قليلة الملابس، أم بسبب الإعصار الثلجي العنيف، أم بسبب نسياني معطفي في الفندق؟ ـ أنا متواضعة، هذا مفهوم، أنا فتاة بدون ادعاءات، لكنكم تعرفون كثيرات مثلي، أنتم، الذين حدث لكم مثل هذه المغامرة، الرحلة إلى المجر في وسط «الأوديون»؟. إن هذا يمكن أن يربك أياً كان، أليس كذلك؟

لكنّ والدتي كانت تشدني من كمي، إذ لم يعد هناك أحد تقريباً في قاعة الموسيقى. وأتوقف عند هذا الحد، فلست أرغب في مواصلة تذكّر ما فكرت فيه. فسوف أحس بالألم إذا واصلت التذكر. لكن هذا مؤكد، مؤكد. لقد فكرت في شيء غريب.

٣٠ كانون الثاني:

مسكين لويس ـ ماريا، ما أغباه حين يتزوجني. إنه لا يعلم ماذا يحمّل نفسه، أو ماذا يضع فوقه، كما تقول نورا، التي تصطنع لغة المثقفة المتحررة.

fb/mashro3pdf

٣١ كانون الثاني:

سنذهب إلى هناك. لقد وافق على هذا تمام الموافقة إلى حد أنني كدت أصرخ. لقد خفت، وبدا لي أنه يدخل بسهولة كبيرة في اللعبة، وهو لا يعلم شيئاً، إنه مثل البيدق الصغير في لعبة الشطرنج، الذي يربح المباراة دون أن يدري. البيدق الصغير لويس ـ ماريا إلى جانب ملكته. ملكته و...

٧ شباط:

يجب الشفاء. لن أكتب عن نهاية ما فكرت فيه في الحفلة الموسيقية. أمس مساء، أحسست بها تتعذب مجدداً. أنا أعلم أنهم هناك عادوا يضربونها. لا أستطيع الامتناع عن معرفة ذلك، ولكن يكفي حول هذه القصة. كان الأمر يهون لو أنني اكتفيت بأن أدون كل هذا لمجرد المتعة، لكي أتحرر... لكن الأمر كان أسوأ، فعند مراجعة ما كتبت، كانت تستولي عليّ رغبة في المعرفة، في العثور على مفتاح في كل كلمة دونت على الورق بعد كل هذه الليالي. وهكذا حين فكرت في الساحة، وفي النهر المحطم، وفي الأصوات... لكن هذا، لن أكتبه، لن أكتبه أبداً، في الوقت الحاضر.

أن أذهب إلى هناك وأقنع نفسي بأن العزوبة تزعجني، هكذا بكل بساطة؛ سبعة وعشرون عاماً، وما من رجل، لكنني، في الوقت الحاضر، لدي أرنبي الكبير، أحمقي الكبير، كفاني تفكيراً، لنعش، لنعش أخيراً وليكن كل شيء كأفضل ما يكون.

ولكن، نظراً لأنني سأقفل هذه اليوميات ـ الفتاة تتزوج أو تكتب يومياتها، والأمران لا يسيران معاً ـ لا أُريد أن أتركها دون أن أقول ذلك ببهجة الأمل، بأمل البهجة. نحن ذاهبان إلى هناك، لكن الأمور لن تحدث على النحو الذي توقعته مساء الحفلة الموسيقية، (أنا أكتب هذا، وتنتهي اليوميات، وهذا يحقق أكبر خير لي). على الجسر سوف ألتقيها، وستبادل النظر. وفي مساء الحفلة الموسيقية، كنت أحس في اذني طقطقة الجليد هناك في القاع. وسيكون انتصار الملكة على هذا الالتزاق الخبيث، هذا

fb/mashro3pdf

الاغتصاب غير المُسْتَحَقّ، والخفي. فإذا كنت حقاً أنا نفسي، فإنها سوف تنحني وتذوب في ضيائي؛ سيكفي أن أقترب وأضع يدي على كتفها.

* * *

وصلت ألينا ريس وزوجها إلى بودابست قي ٦ نيسان ونزلا في فندق «ريتز». كان ذلك قبل شهرين من طلاقهما. وفي اليوم التالي لوصولهما في فترة بعد الظهر، خرجت ألينا لتتعرف إلى المدينة وإلى ذوبان الجليد. ولما كانت تحب أن تتنزه وحدها، ـ كانت تمشي بسرعة، وكانت فضولية ـ فقد زارت جيذاً عشرين مكاناً مختلفًا، ولكن دون أن تتأخر فيها، تاركة لهواها عناية الاختيار والتعبير عن ذاتها في اندفاعات مفاجئة كانت تحملها من مخزن إلى آخر، فتغير الرصيف كما تغيّر الواجهة.

وصلت إلى الجسر واجتازته حتى منتصفه؛ كانت تسير الآن بصعوبة، لأنها كانت تواجه الجليد، وكانت تتصاعد من نهر الدانوب ريح معادية تتشبث بالمرء وتسوطه. كانت تحس بتنورتها تلتصق بساقيها ـ لم تكن كاسيةً البتة ـ وفجأة أحست بتلك الرغبة في الاستدارة، والعودة نحو المدينة المعروفة. ووسط الجسر المقفر، كانت امرأة بثياب رثة، ذات شعر أسود ومتيبس، تنتظر، وتعبير ثابت ومتلهف على وجهها المغضن، مع انثناء يديها نصف المطبقتين ولكن في بدء امتدادهما. اقتربت ألينا منها، مكررة ـ الآن أصبحت تعرف ذلك ـ الحركات والمسافات، كأنما بعد تجربة تمثيلية عامة. وبدون خوف، ومتحررة أخيراً، ـ كانت تعتقد ذلك في انتفاضة مرعبة من البرد والابتهاج ـ اقتربت منها، ومدت يديها هي أيضاً دون أن تريد التفكير في أي شيء، وشدتها المرأة إلى صدرها وتعانقت المرأتان، متصلبتين وصامتتين في وسط الجسر في حين كان النهر المتفجر يضرب الأعمدة. كان مشبك حقيبة ألينا، الذي سمرته بين ثدييها قوة المعانقة، يؤلمها، إنه تمزق لطيف، محتمل. كانت تشد بين ذراعيها المرأة الشديدة النحول، كانت تحس بها بكلّيتها مستسلمة بين ذراعيها، وكانت بهجة تتسع في ذاتها مثل نشيد، مثل طيران يمائم، مثل غناء النهر. وفي الاتحاد الشامل أغمضت عينيها، غريبة

fb/mashro3pdf

عن الأحاسيس الخارجية، في ضياء المغيب؛ أصابها تعب مفاجىء شديد، لكنها وهي الواثقة بانتصارها دون أن تحتفل به، هذا الانتصار الحميم جداً والمتوقع جداً.

بدا لها أن إحدى الامرأتين تبكي بهدوء. لا بد أنها هي التي كانت تبكي، ذلك لأنها أحست بابتلال وجنتيها، وبوجنتها تؤلمها كما لو أنها ضربت. والعنق أيضاً كان يؤلمها وفجأة انثنى كتفاها تحت ثقل إرهاقات لا تحصى. وحين فتحت عينيها مجدداً (ولعلها كانت قد بدأت الصراخ) ورأت أنهما قد افترقتا. حينئذٍ، نعم، صرخت. من البرد لأن الجليد كان ينفذ إلى حذائها المثقوب. وألينا رييس، الفاتنة في تايورها الأزرق، رحلت مجدداً نحو الساحة، وشعرها محلول بعض الشيء بفعل الهواء، رحلت مجدداً دون أن تدير رأسها.

* * *

fb/mashro3pdf

نهاية لعبة

في أيام الحرّ، كنّا، ليتيسيا وهولاندا وأنا، نذهب لنلعب قرب الخط الحديدي، فكنا ننتظر صعود ماما وخالتي روث للقيلولة، ونهرب عبر الباب الأبيض. كانت أمي والخالة روث دائماً تتعبان كثيراً بعد جلي الأواني، على الأخص حين نكون هولاندا وأنا اللذين نمسح الصحون، فحينئذٍ تكون مناقشات، وملاعق صغيرة تتساقط على الأرض، وعبارات كنا نحن وحدنا نفهمها، وجو كانت فيه رائحة الدهن، ومواء «جوزيه» وظلام المطبخ تنتهي بصورة عامة في ارتباك عام. ولم يكن يبقى لنا حينئذٍ سوى أن نهرب.

كانت هولاند تتلطف وتستثير هذا النوع من الارتباك؛ مثلاً، كانت تُسْقِط كوباً سبق جليه في حويض الماء الوسخ، أو تذكّر بأنه عند آل «لوزا» يوجد خادمتان. وكنت، أنا، استخدم طريقة أخرى، فكنت أفضل أن ألفت نظر خالتي روث إلى أن يديها سوف تتشققان إذا واصلت فرك الطناجر وأن الأفضل لها أن تهتم بالأقداح والصحون؛ ونظراً لأن أمي كانت تحب أن تجلي هذه الأواني بالضبط، فإن هذا كان يثير إحداهما ضد الأخرى. وكان ملاذنا الأخير، حين تتراكم فوق رؤوسنا النصائح والوصايا العائلية، هو أن نسكب الماء الساخن على ظهر القط. إنها مزحة طريفة، هذه القصة عن «القط الملسوع بالماء الساخن»، اللهم إلاّ إذا كان يجب أن نصدق حرفياً التلميح إلى الماء البارد. وتعلم القط «جوزيه» أن لا يخشى الماء الساخن،

fb/mashro3pdf

بل كان يبدو أنه يقدّم نفسه، يا للحيوان الصغير المسكين، كان يمد ظهره لفنجان الماء الغالي ـ لم يكن يغلي تماماً بلا شك، إذ لم يكن شعر القط يتساقط أبداً، وأخيراً، كانت طروادة تحترق، ونحن نغتنم، هولاند وأنا، فرصة الارتباك العام المتوج بصيحة الـ «سي بيمول» التي كانت تطلقها خالتي روث، وركض أمي التي تذهب لإحضار السوط، لكي نضيع في الرواق المسقوف نحو الغرف الخالية في عمق المنزل حيث تكون ليتيسيا في انتظارنا وهي تقرأ رواية لبونسون دي تيراي، وهي قراءة لا تفسير لها.

وبصورة عامة، كانت أمي تطاردنا طوال فترة، لكن رغباتها في ضربنا كما يضرب الطين كانت تزول بسرعة، إذ ينتهي بها الأمر إلى أن تتعب ـ كنا نقفل الباب بالمزلاج ونطلب عفوها بعبارات مؤثرة ـ وكانت تذهب مرددة دائماً نفس العبارة:

«سيكون مصيركم إلى الشارع، أيتها البذور الرديئة».

ويكون مصيرنا في الوقت الحاضر خط السكة الحديدية، حين يعود الصمت إلى المنزل، وبعد رؤية النهر يذهب ليتمدّد تحت شجرة الليمون لكي يقوم بقيلولته المعطرة والمدندنة بالدبابير. كنا نفتح، على مهل، الباب الأبيض، وحين نعيد إغلاقه، كان الأمر فجأة كأنما ثارت ريح، حرية تأخذنا من أيدينا، ومن قاماتنا وتدفعنا إلى الأمام. كنا نأخذ بالركض، ونستعد لكي نتسلق دفعة واحدة مرتفع الخط الحديدي، وحين نصل إلى ذروة العالم هذه، نروح نتأمل مملكتنا في صمت.

كانت مملكتنا هي منحنى كبير من الخط الحديدي ينتهي بالضبط عند نهاية الحديقة. لم يكن هناك شيء آخر سوى الرصّة الحجرية، والعوارض، والخط الحديدي المزدوج، وعشب هزيل ونادر نابت بين الحجارة ـ المؤلفة من الميكا والصوان ـ التي كانت تتلألأ مثل ماسات حقيقية تحت شمس الساعة الثانية. وحين كنا ننحني لنلمس الخط الحديدي (بسرعة، إذ كان من الخطر أن نبقى هناك وقتاً طويلاً، ليس بسبب القطارات بمقدار ما كان ذلك بسبب الأهل إذا ما رأونا ـ كانت نار الحجارة تتصاعد إلى وجوهنا، وحين كنا

fb/mashro3pdf

ننهض، مواجهين هواء النهر، كانت حرارة ندية تلتصق بخدودنا وبآذاننا، كنا نحب أن نثني ركبنا، ونحنفض، وننهض، ثم ننخفض، مارين على هذا النحو من منطقة حرارة إلى منطقة أخرى مع مراقبتنا على وجوهنا درجة النضج؛ وفي أقل من دقيقتين نكون قد تبللنا تماماً. كل هذا دون أن ننبس بكلمة واحدة، ونحن ننظر تارة إلى نهاية الخط الحديدي، وطوراً إلى النهر في الجانب الآخر، قطعة النهر التي بلون القهوة باللبن.

بعد هذا التفقد الأوّل لمملكتنا، كنا نعاود النزول من مرتفع خط السكة الحديدية، ونعود إلى الظل الهزيل لأشجار الصفصاف، الملتصقة بجدار منزلنا، حيث يفتح الباب الأبيض. كانت تلك هي عاصمة المملكة، المدينة الغابيّة، مقر ألعابنا. كانت ليتيسيا تفتتح الجولة. كانت هي أكثرنا سعادة نحن الثلاثة، والمميَّزة. لم تكن ملزمة بتنظيف الأواني ولا بترتيب الأسرة، كان بوسعها أن تقضي طوال النهار في القراءة أو في إلصاق الصور، وفي المساء كان يسمح لها، بأن تسهر إلى وقت متأخر أكثر مما يسمح لنا نحن، إذا شاءت، هذا بالإضافة إلى غرفة لها وحدها، وحساء اللحم، وغيرها من الأفضليات. وشيئاً فشيئاً اعتادت على أن تُمَيِّز في كل شيء ومنذ الصيف الماضي، أصبحت هي التي تدير اللعبة، بل واعتقد تماماً أنها كانت تدير المملكة بأسرها؛ كانت هي على كل حال أوّل من يتكلم؛ كنا، هولاندا وأنا، نقبل قراراتها، دون كلام، بل كان يروق لنا أن نطيعها. ولا بد أن توصيات أمنا لنا حول الكيفية التي يجب أن نتصرف بها إزاء ليتيسيا قد آتت ثمارها، أو ربما، بكل بساطة، كنا نحب ليتيسيا بمقدار كاف لكي نقبل أن تكون رئيستنا. وخسارة أنها لم يكن لها الجسم الملائم لوظيفتها، فإنها كانت أصغرنا جسماً، كما كانت نحيفة جداً... وهولاندا هي أيضاً كانت نحيفة وأنا نفسي لم يزد وزني أبداً عن ٥٠ كلغ، لكن ليتيسيا كانت أكثرنا نحافة، ومما زاد الطين بلّة أنها كانت نحافة من تلك التي تظهر للعيان، حتى ولو كانت صاحية مرتدية ملابسها، لا سيما عند العنق وفي الأذنين. وربما كان تصلب الظهر هو الذي يجعلها تبدو بكل هذه النحافة؛ كانت بالكاد تستطيع أن تدير رأسها، وكانت أشبه بلوح الكوي، ذلك الموجود عند آل «لوزا»، المغطى بقماشة

fb/mashro3pdf

بيضاء. إنها، أي ليتيسيا، لوحة كوي واقفة، قسمها الأعرض في الأعلى، ومسنودة إلى الجدار. وهي التي كانت تقودنا.

كانت أكبر متعة لي هي أن أتخيل أن ماما والخالة روث تكتشفان يوماً اللعبة. فلو أنهما علمتا بأمرها، فما أكبر المشكلة التي ستحدث! إن صوت «السي بيمول» وحالات الإغماء، والاحتجاجات المهيبة، «كل هذا الإخلاص وكل هذه التضحيات تلاقي أسوأ الجزاء!». والأحاديث الطويلة جداً عن العقوبات الشهيرة، وفي الختام، التنبؤ بأننا سيكون مصيرنا ثلاثتنا إلى الشارع. هذا القول الأخير كان يدعنا دائماً في حيرة، إذ كان يبدو لنا طبيعياً أن ينتهي أمرنا إلى الشارع.

في البدء، كانت ليتيسيا تختار أحدنا بالقرعة: كنا نخفي حصوات في أيدينا، أو أية عملية أخرى، فإذا اخترنا أن نعد حتى العشرين، فإننا كنا نختلق بنتين أو ثلاث بنات زيادة ونضعهن في الدائرة لأجل تلافي عمليات الغش الممكنة. فإذا وقع الرقم عشرون على إحداهن، كنا نخرجها من المجموعة ونعاود العد إلى أن يقع الرقم المطلوب على أحدنا نحن الثلاثة. إثر ذلك، كنا، هولاندا وأنا، نرفع الحجر ونخرج علبة الزينات، فإذا كانت هولاندا هي الرابحة، كنا أنا وليتيسيا نختار الزينات. وكانت اللعبة تتيح إمكانيتين: التماثيل والأوضاع. بالنسبة للأوضاع لم تكن ثمة حاجة إلى الزينات، لكن ذلك كان يتطلب حركات إيمائية معبرة جداً. لأجل الرغبة إبراز الأسنان، وتقليص اليدين، وتدبر الأمر لكي يصبح وجه اللاعب أصفر شاحباً. ولأجل المحبة، كان المثل الأعلى هو وجه ملائكي ذو عينين رحيمتين، في حين تقدم اليدين شيئاً ما ـ قطعة قماش، أو طابة، أو عرق صفصاف ـ إلى يتيم صغير مسكين غير مرئي. ولأجل الخجل و الخوف، كان من السهل التعبير عنهما، أمّا الضغينة و الحسد. فكانا يتطلبان تفكيراً أكثر. وكانت الزينات كلها تقريباً مخصصة للتماثيل التي كانت تسود بالنسبة لها حرية كاملة. ولكي يكون تمثال ما ناجحاً، كان ينبغي التفكير بعناية بكل تفصيل من تفاصيل الملابس. وكانت قاعدة اللعبة تنص على أن الذي «يخرج» لا يستطيع الاشتراك في اختيار

fb/mashro3pdf

التماثيل والأوضاع. وكانت الاثنتان الباقيتان تناقشان المسألة فيما بينهما ويفرضان إثر ذلك الزينات على الآخر. وكان على الرابحة أن تبتكر تمثالها على أساس الزينات المحددة. وهكذا تكون اللعبة أكثر تعقيداً وأشد إثارة بكثير، ذلك لأن الضحية كانت تجد نفسها أحياناً مكسوة بزينات متنافرة بحيث لا تستطيع أن تستفيد منها بأي شكل؛ فكان يتوقف حينئذٍ على براعتها لإنجاح تمثالها أم لا. وحين كانت اللعبة تقول: وضعا، كانت المرشحة تتدبر أمرها بصورة جيدة عادة، لكن التماثيل كانت أحياناً إخفاقات فظيعة.

إنّ ما أرويه قد بدأ في زمن يعلمه الله، لكن الأمور تغيرت يوم سقطت أوّل ورقة صغيرة من القطار. وغني عن القول ان التماثيل كان لها متفرجون غيرنا، وإلاّ لكنا سنملّها بسرعة، لولا ذلك. وكانت «القاعدة» تنص على أن الذي «يخرج» يجب أن يقف في أسفل مرتفع الخط الحديدي خارج ظل أشجار الصفصاف وأن ينتظر مرور قطار الساعة الثانية وثماني دقائق، القادم من «تيغر». وفي هذا الموضوع من باليرمو تمر القطارات، مسرعة ولم نكن نخجل من تمثيل دور «التماثيل» أو إظهار «الأوضاع». كنا نرى بالكاد المسافرين، ولكن بمساعدة الوقت والعادة، كنا نعرف أن بعضهم كانوا ينتظرون رؤيتنا. كان رجل أبيض الشعر يلبس نظارتين بإطار عظمي يمد رأسه من نافذة القطار ويحيينا وهو يهزّ منديله، والصبيان العائدون من المدرسة والجالسون على مصاعد القطار كانوا يصيحون بأقوال عند مرور القطار ولكن كان بينهم من ينظرون إلينا بأعين رصينة. أما التمثال، من جهته، فلم يكن يرى أي شيء، وكان يجد عناء كافياً بالبقاء واقفاً لكن الاثنين الآخرين تحت أشجار الصفصاف كانا يرقبان الاستقبال الذي يلقيانه. كان يوم ثلاثاء حين سقطت الورقة على مقربة من هولاندا التي كانت تقوم في ذلك اليوم بدور «الغيبة»، وتدحرجت الورقة نحوي. كانت قطعة ورقة مطوية وصغيرة جداً ومربوطة بزر. وجاء في الورقة، كتابة ذكورية غير بارعة: «التماثيل جميلة جداً، أنا في النافذة الثالثة للمقطورة الثانية. أريال ب». بدا لنا هذا جافاً بعض الشيء، نظراً للعمل الذي يمثله ربط الورقة بزر والقاؤه إلينا، لكننا سررنا كثيراً. وأجرينا القرعة لتحديد من الذي سيحتفظ بالورقة والزر، وربحت أنا،

fb/mashro3pdf

وفي اليوم التالي، لم يرد أحد منا أن يلعب، بل كنا جميعاً نريد أن نرى كيف هو آريال ب. ولكن خوفاً من أن يفسر هذا الامتناع بصورة سيئة، أجرينا أخيراً القرعة وربحتْ ليتيسيا، وقد سررنا كثيراً لأجلها، المسكينة، ذلك لأنها كانت موفقة كثيراً في «التماثيل». حين لم تكن تتحرك ولا تلاحظ عاهتها وكانت تعرف كيف تتخذ أوضاعاً نبيلة بصورة رائعة. وبالنسبة للأوضاع كانت تختار دائماً كرم النفس، والشفقة، والتضحية والتجرد. وبالنسبة للتماثيل، فقد كانت تعتمد بالأصح اسلوب فينوس الصالون التي كانت الخالة روث تسميها فينوس دو نينو[1]. وقد عنينا بأن نختار لـ ليتيسيا أفضل الزينات لكي تحدث انطباعاً جيداً لدى آريال. وقد ألبساها قطعة كبيرة من المخمل الأخضر بمثابة مئزر ووضعنا على شعرها تاجاً من أوراق الصفصاف. ولما كنا نلبس فساتين بدون أكمام، فقد كان ذلك يعطينا تماماً مظهراً إغريقياً، وتمرنت ليتيسيا فترة على دورها في الظل وقررنا، هولاندا وأنا أن نظهر نحن أيضاً وأن نحيي آريال سراً ولكن بصورة لطيفة.

كانت ليتيسيا رائعة، فلم تتحرك قيد أنملة حين وصل القطار. ولما كانت لا تستطيع أن تدير رأسها، فقد ألقت به إلى الوراء، واحتفظت بذراعيها ملتصقتين تماماً بجسمها بحيث كان يمكن التأكيد بأنها بلا ذراعين؛ وباستثناء المئزر الأخضر، كانت شبيهة تماماً بفينوس دو نينو. وفي النافذة الثالثة لاحظنا فتى صغيراً ذا خصلات شعر شقراء، وعينين فاتحتين، ابتسم لنا ابتسامة واسعة حين رأى تحيتنا له، أنا وهولاندا. وبعد ذلك بلحظة حمله القطار بعيداً، ولكن حتى الساعة الرابعة كنا ما نزال نتناقش لمعرفة ما إذا كانت بذلته غامقة، وما إذا كان يلبس عقدة رقبة حمراء، وما إذا كان بغيضاً أم جذاباً. ويوم الخميس اتخذت أنا وضع «اليأس» وتلقينا ورقة صغيرة جاء فيها: «الثلاثة يروقون لي كثيراً. آريال»، والآن أصبح يمد رأسه وذراعه من النافذة ويحيينا ضاحكاً. وقد حددنا عمره بثمانية عشر عاماً (مع اقتناعنا بأن

---

(١) تحريف ساخر، كما هو واضح، لاسم فينوس دوميلو، كما أن كلمة «نينو» في الأسبانية تعني «المسيح الصغير». (المترجم).

fb/mashro3pdf

عمره لا يزيد عن ستة عشر عاماً) وقررنا أنه لا بد يعود كل يوم من مدرسة انجليزية معينة. والأمر الأكثر تأكيداً بين كل هذه الأمور، كان المدرسة الإنجليزية، ولم نكن نستطيع الاحتمال بأن يكون آريال تلميذاً عادياً. كنا نرى فوراً أنه شخص مهم.

وأتيح لهولاند الحظ بأن تربح، في ثلاثة أيام متوالية. لقد تجاوزت نفسها. وقد قامت بأوضاع «خيبة الأمل» و«الاختلاس»، وقدمت تمثالاً صعباً جداً لراقصة تقف متوازنة، على إحدى قدميها عند اللحظة التي يدخل فيها القطار عبر المنحنى. وفي اليوم التالي، ربحت، وكذلك بعد يومين. كنت أقوم بتمثيل وضع «الرعب» حين تلقيت على أنفي تقريباً قصاصة من آريال لم نفهم معناها في البدء: «الأكثر جمالاً هي الأكثر كسلاً»، وكانت ليتيسيا هي آخر من فهم، ورأيناها تبتعد وقد احمر وجهها، وتبادلنا النظر، أنا وهولاندا، غاضبتين بعض الشيء. وكان أوّل رد فعل لنا هو تقريرنا أن آريال شخص أبله، ولكن لم نكن نستطيع أن نقول ذلك لـ ليتيسيا، هذا الملاك المسكين، بحساسيتها والصليب الذي تحمله. ولم تقل هي أي شيء لكنها لا بد أنها اعتقدت أن القصاصة لها فاحتفظت بها، في ذلك اليوم عدنا من هناك صامتات، ولم نلعب معها في المساء. وعلى المائدة، كانت ليتيسيا مرحة جداً، وكانت عيناها تلمعان، ونظرت ماما إلى الخالة روث مرة أو مرتين وكأنها تريد أن تُشْهِدَها على هذا المرح. لقد تلقت ليتيسيا علاجاً مقوياً وظاهره أنه كان يحقق أعجوبة.

وقبل أن نخلد إلى النوم، هولاندا وأنا، تحدثنا عن المسألة. قصاصة أريال لم تكن تهمنا، بالنسبة لما يمكن رؤيته من قطار وهو منطلق... ولكن كان يبدو لنا أن ليتيسيا تستغل الظرف بعض الشيء، بل تفرط في استغلاله. كانت تعلم أنهم لن يقولوا لها أي شيء، وأنه في أسرة يكون فيها شخص مصاباً بتشوه في الشكل، ولديه كثير من الاعتزاز، فإن الجميع، ابتداء من المريض، يتظاهرون بتجاهل ذلك، أو بالأصح، يتظاهرون بأنهم لا يعرفون أن الآخر يعلم. ولكن مع ذلك لم يكن ينبغي

fb/mashro3pdf

المبالغة، وإن موقف ليتيسيا على المائدة أو هذه الطريقة في الاحتفاظ بالقصاصة لها هي نفسها، فهي تتجاوز الحدود. في تلك الليلة، عدت أكرر في نفسي رؤية كابوس القطارات، كنت أسير في الصباح الباكر في محطات هائلة الاتساع للفرز، ملأى بخطوط حديدية وآلات التحويل، وكنت أرى عن بعد الأضواء الحمراء للقاطرات التي كانت تتقدم وكنت أتساءل بقلق ما إذا كان القطار سيمر على يساري أم على يميني. وفي نفس الوقت، كنت مهددة بالوصول الممكن لقطار سريع ورائي، أو، وهذا أسوأ، لأحد القطارات الذي يمكن أن ينحرف في آخر لحظة، ويدهمني فوراً. لكنني في الصباح كنت أنسى كل هذا، ذلك لأن ليتيسيا قد استيقظت وهي تعاني أوجاعاً وتكسرات فظيعة في الجسم وينبغي مساعدتها في ارتداء ملابسها. وبدا لنا أنها آسفة على ما حدث بالأمس وكنا طيبتين جداً معها، وقلنا لها إن آلامها ناتجة عن أنها تمشي كثيراً، وأنها ربما كان الأفضل لها لو أنها بقيت في غرفتها للمطالعة. لم تقل شيئاً لكنها جاءت إلى المائدة للغداء، وعلى أسئلة الأم أجابت بأنها تشعر بأنها في حالة جيدة جداً، وأن ظهرها لم يعد يؤلمها، تقريباً، ولدى قولها هذا كانت تنظر إلينا.

وكنت أنا التي ربحت بعد ظهر ذلك اليوم، ولكن لست أدري ما الذي انتابني، فقلت لليتيسيا إنني أتخلى لها عن دوري، دون أن أقول لها لماذا، طبعاً. ونظراً لأن الآخر يفضلها، فلينظر إليها قدر ما يشاء. كانت اللعبة تطلب تمثالاً، فاخترنا لها أشياء بسيطة لكي لا تتجشم المشقة، فابتكرت هي ما يشبه أميرة صينية مرتبكة المظهر، خافضة العينين، ويداها مضمومتان، كما تفعل الأميرات الصينيات. ولدى مرور القطار، أدارت هولاندا تحت شجر الصفصاف ظهرها له لكنني أنا كنت أنظر ورأيت أن آريال كان يوجه نظراته إلى ليتيسيا وحدها. كان يتابعها بنظراته إلى أن وصل القطار إلى المنحنى ولم تعرف ليتيسيا الواقفة بلا حراك إنه قد نظر إليها على هذا النحو. ولكن حين عادت للجلوس تحت أشجار الصفصاف، رأينا أنه لو علمت بذلك، لأحبت أن تحتفظ بالزينات عليها طوال بعد الظهر، وطوال الليل.

fb/mashro3pdf

يوم الأربعاء أجرينا القرعة بين هولاندا وبيني، لأن ليتيسيا قالت لنا إن العدل أن يكون الآن دورنا. وربحت هولاندا بفعل حسن حظها. لكن رسالة آريال سقطت قربي. وحين التقطها، كنت أعتزم أن أعطيها فوراً إلى ليتيسيا التي كانت تلزم الصمت، لكنني كنت أفكر بأنه لا ينبغي على كل حال أن نستجيب دائماً لإرادتها، وفتحت الرسالة على مهل. وقد أعلن فيها آريال أنه سينزل غداً في أقرب محطة وأنه سيأتي إلى المرتفع ليدردش قليلاً معنا، كانت الكتابة سيئة جداً، لكن العبارة الأخيرة كانت جميلة: «مشاعري المتميزة جداً للتماثيل الثلاثة». وكان التوقيع خربشة غير مقروءة لكنه كان يدل على شخصيته.

حين كنا ننزع الزينات عن هولاندا، نظرت ليتيسيا إليّ مرة أو مرتين. قرأت لهما الرسالة لكنّ لم تعلق أية منهما على المسألة، وكان ذلك مثيراً للضجر، ذلك لأن آريال سوف يأتي على كل حال وكان ينبغي التفكير في هذا الحدث وتقرير شيء ما. فلو أنهم عرفوا هذا في المنزل، أو إذا حدثت مصيبة وخطر لإحدى بنات آل «لوزا» أن تراقبنا، نظراً لأنهن كن حسودات، هذه القزمات، فمؤكد أن هذا سوف يسبب لنا مشكلة مع أهلنا. ثم كان غريباً تماماً هذا الصمت فيما بيننا، على الأخص في صدد مسألة كهذه. رتبنا الزينات، ثم عدنا عبر الباب الأبيض دون أن نتبادل النظر مرة واحدة.

طلبت الخالة روث، منا، هولاند وأنا، أن نحمم القط «جوزيه»، وأخذت ليتيسيا لتحقنها بإبرها، وهكذا استطعنا أن نفضي بكل اطمئنان بدخيلة نفسينا. كنا نجد أنه شيء رائع أن يأتي آريال، فنحن لم يكن لنا أبداً صديق مثله، وابن عمنا تيتو لم يكن يُحْسَب له حساب. إنه ليس أكثر من دجاجة مبللة يجمع الصور الدينية ويؤمن بالتناول[1] الأوّل. وكنا عصبيين جداً لدى تفكيرنا في ما سيحدث، وكان جوزيه هو الذي دفع ثمن ذلك، المسكين. وكانت هولاند الأكثر شجاعة وتطرقت إلى مسألة ليتيسيا. وأنا لم

(١) التناول، المقصود تناول القربان (Communion). (المترجم).

fb/mashro3pdf

أكن أعرف كيف أفكر، فمن جهة كنت أجد أن من المرعب أن يطلع آريال على الحقيقة[٢]، ولكن من جهة أخرى كان من الصواب جلاء حقيقة الأمور، وليس هناك سبب للتضحية دائماً بالذات من أجل الآخرين. ومع ذلك فقد كنت أريد أن لا تتألم ليتيسيا من ذلك، فقد كان يكفيها أن تحمل صليبها ذاك، دون حسبان العلاج الجديد الآن، وسائر الباقي.

في السهرة دهشت ماما لرؤيتنا صامتات على هذا النحو؛ وقالت ان هذا الأمر مدهش: فهل أضعنا ألسنتنا؟ ثم نظرت إلى الخالة روث، وفكرت كلتاها بالتأكيد أننا ارتكبنا حماقة ما كبيرة، وأن ضميرنا غير مرتاح. وأكلت ليتيسيا القليل جداً، وقالت إنها تحس بألم، وانها تريد الذهاب إلى غرفتها لتقرأ «روكامبول». وأعطتها هولاندا ذراعها وإن كانت ليتيسيا لا تحب هذا كثيراً، ورحت أنا أحيك الصوف، مثلي في كل مرة أكون فيها عصبية. ومرتين كدت أذهب إلى غرفة ليتيسيا، وكنت أتساءل ماذا يمكن أن تكونا تفعلان وحدهما فوق، لكن هولاندا عادت بهيئة متعاظمة جداً، وجلست إلى جانبي دون أن تقول أي شيء، إلى أن رفعت أمي والخالة روث الصحاف عن المائدة. «إنها لن تأتي غداً، وقد كتبت هي رسالة وطلبت إلي أن أعطيها له، إذا طرح كثيراً من الأسئلة». وفتحت هولاندا قليلاً جيب مئزرها وأرتني مغلفاً خبازيّ اللون. وبعد ذلك، استدعينا لتنظيف الأواني، وفي ذلك المساء رقدنا بسرعة، بعد كل هذه الانفعالات وتعبنا من تحميم القط «جوزيه».

في اليوم التالي، كان دوري في الذهاب إلى السوق، وطوال فترة قبل الظهر لم أر ليتيسيا التي ظلت في غرفتها. وقبل دعوتنا إلى المائدة ذهبت للقائها، ووجدتها أمام النافذة مع وسائد كثيرة والجزء التاسع من «روكامبول». كان واضحاً أنها لم تكن في حالة جيدة، لكنها جعلت تضحك وحدثتني عن نحلة لم تكن تتمكن من الخروج من الغرفة، وعن حلم غريب

---

(٢) يقصد الكاتب أن يطلع آريال عند اللقاء أن ليتيسيا معاقة. (المترجم).

fb/mashro3pdf

حلمت به . وقلت لها إنها خسارة أن لا تأتي إلى تحت أشجار الصفصاف، ولكن كان من الصعب أن أفصح لها عن ذلك جيداً . «إذا شئت، نستطيع أن نوضح لاريال أنك كنت مريضة» هكذا اقترحت عليها لكنها أومأت نفياً برأسها ولم تجب بشيء . وألححت قليلاً لكي تأتي وفي النهاية حزمت أمري وتشجعت وقلت لها انه لا يجب الخوف، وأن الحب الحقيقي لا يعرف الحواجز، وأشياء جميلة أخرى قرأتها في «كنز الشبيبة»، ولكن كان التحدث إليها قد أصبح صعباً أكثر فأكثر، كانت تنظر عبر النافذة، وبدا لي أنها على وشك البكاء . وذهبت أخيراً، قائلة إن ماما بحاجة إليّ . واستمر الغداء دهوراً وكسبتْ هولاندا صفعة من الخالة روث لأن الأولى سكبت الصلصة على الشرشف . إنني لا أذكر حتى كيف نظفنا الأواني، وأصبحنا الآن تحت أشجار الصفصاف، وكنا نتبادل القبلات، مجنونتين من الفرح، ولا نحس إطلاقاً بالغبرة، إحدانا من الأخرى. وأوضحت لي هولاندا كل ما ينبغي قوله عن دراستنا لكي نحدث انطباعاً جيداً لدى آريال ـ فتيان الثانوية يزدرين البنات اللواتي لم يرتدن المدرسة الابتدائية واللواتي يكتفين بعد ذلك بمتابعة دروس في الخياطة أو في تجليد الكتب. وحين مر قطار الساعة الثانية وثمان دقائق، راح أريال على النافذة يهز ذراعيه بحماسة فبادلناه باشارات الترحيب، بمناديلنا المزركشة . وبعد بضع دقائق رأيناه يتقدم على طول مرتفع الخط الحديدي . كان أطول قامة مما حسبنا، وكانت بذلته رمادية .

ما عدت أذكر تماماً عن أي شيء تحدثنا في البداية؛ كان خجولاً جداً بالرغم من الرسائل الصغيرة والزيارة، ولم يكن يقول إلاّ أشياء عاقلة جداً . وفوراً تقريباً قدم لنا مجاملات كبيرة حول «التماثيل» وسألنا عن اسمينا ولماذا لم تكن الثالثة معنا . وأوضحت هولاندا أن ليتيسيا لم تستطع المجيء فقال إن هذا خسارة وأن ليتيسيا اسم جميل جداً . وإثر ذلك روى لنا أشياء حول مدرسة «الفنون والصنائع» ـ لم تكن لسوء الحظ مدرسة انجليزية ـ وأراد أن يعرف ما إذا كنا سنريه الزينات . رفعت هولاندا الحجر وأرته «الملابس» . وبدا مهتماً جداً، وكان بين حين وآخر يأخذ بيده إحدى الزينات ويقول: «هذه وضعتها ليتيسيا مرةً»، أو «هذه الزينة، كانت للتمثال الشرقي» . كان

fb/mashro3pdf

يقصد الأميرة الصينية. جلسنا في ظل شجرة صفصاف، كان مسروراً ولكن شارد الفكر، وكان واضحاً أنه بقي معنا بدافع اللياقة. وحين توقف الحديث، نظرت إليّ هولاندا، وكان الأمر يؤلمنا نحن الاثنتين، كنا نحس برغبة في الهرب، وكنا نفضل لو أن اريال لم يأت إطلاقاً. وسأل مجدداً ما إذا كانت ليتيسيا مريضة، فنظرتْ إليّ هولاندا وحسبتُ أنها ستقول كل شيء، لكنها أجابت فقط بأن ليتيسيا لم تستطع المجيء. كان اريال يرسم على الأرض رسوماً هندسية بطرف غصن، وينظر بين حين وآخر إلى الباب الأبيض وحزرنا في أي شيء كان يفكر؛ لذلك أحسنت هولاندا صنعاً إذ أخرجت المغلف الخبازي اللون ومدته نحوه. فوجيء تماماً، والمغلّف في يده، ثم تضرّج وجهه بحمرة شديدة حين أوضحنا له أن هذا المغلف هو من ليتيسيا، ووضعه في جيب سترته الداخلي، ولم يكن يريد أن يقرأه أمامنا، وإثر ذلك على الفور تقريباً قال إنه سر كثيراً وأنه قد ابتهج لأنه جاء لكن مصافحته لنا كانت رخوة، ومنفّرة، وكان الأفضل أن تنتهي الزيارة بأسرع ما يمكن! ومع ذلك، بعدئذٍ، لم نفكر إلاّ في عينيه الرماديتين وفي طريقته هذه الحزينة في الابتسام. وتذكرنا أيضاً طريقته في الاستئذان بالانصراف: «بكل صداقة»، صيغة لم يسبق لنا أبداً أن سمعناها في المنزل والتي بدت لنا شعرية بصورة إلّهية. روينا كل شيء لـ ليتيسيا التي كانت تنتظرنا تحت شجرة الليمون الحامض في الباحة، وأنا كنت أحب أن أسألها عما قالت له في الرسالة، لكن شيئاً ما كان يوقفني لأنها أقفلت المغلف قبل أن تعطيه إلى هولاندا؛ وروينا لها ببساطة كيف هو اريال، وكم أنه طلبها، لم يكن من السهل قول هذا، لأنه كان شيئاً طيباً وقاسياً. كنا ندرك أن ليتيسيا كانت سعيدة جداً، لكنها كانت أيضاً على حافة الدموع، وفي النهاية ذهبنا قائلين بأنّ الخالة روث محتاجة إلينا، وتركنا ليتيسيا تتأمل دبابير شجرة الليمون.

لدى ذهابنا للنوم، قالت لي هولاندا: «سترين أن في الغد ستنتهي اللعبة» لقد اخطأت، ولكن قليلاً؛ فبعد يومين في وقت التحلية، بعد تناول الطعام، وجهت ليتيسيا إلينا الإشارة المتفق عليها، ذهبنا لغسل الأواني، مندهشتين وغاضبتين بعض الشيء، ذلك لأننا كنا نعتقد أن هذه وقاحة من جانب ليتيسيا،

fb/mashro3pdf

وأن الأمر ليس جيداً اطلاقاً. كانت تنتظرنا عند الباب، وكدنا نموت فزعاً حين رأيناها، لدى وصولنا إلى تحت أشجار الحور، تخرج من جيبها عقد اللؤلؤ الخاص بأمنا، وكل الخواتم، حتى الخاتم الجميل جداً للخالة روث ذو الياقوتة الحمراء. لكن ليتيسيا، هي، لم تكن خائفة، وقالت إنه إذا حدث شيء فستكون هي وحدها المسؤولة. «أحب كثيراً أن تتركا لي دوركما اليوم»، هكذا أضافت قائلة دون أن تنظر إلينا. أخرجنا الزينات فوراً، ونشأت لدينا فجأة الرغبة بأن نكون طيبتين مع ليتيسيا، وأن نحقق لها السرور، حتى ولو كنا لا نزال، في أعماقنا، ناقمتين عليها قليلاً. ونظراً لأن اللعبة قالت: «تمثال»، فقد اخترنا لها أشياء جميلة كانت تتلاءم جيداً مع الحليّ: كثيراً من ريش الطاووس لتضعها في شعرها، وفروا يشبه، من بعيد، ثعلباً مفضضاً ووشاحاً ورديا جعلت منه ما يشبه العمرة. كان ظاهراً أنها كانت تفكر وهي تجرّب مختلف الأوضاع. وحين ظهر القطار في المنحنى ذهبت ووقفت عند أسفل المرتفع وتلألأ جميع الحلي في الشمس. ورفعت ذراعيها كأنما بدلاً من التمثال سوف تمثل وضعاً، وكانت تشير بيديها إلى السماء وتحني رأسها إلى الوراء (كان هذا كل ما تستطيع فعله، المسكينة)، محنية جسمها إلى حد مخيف. بدت لنا رائعة، أنبل تمثال قدمته في أي وقت مضى، ورأينا أريال ينظر إليها؛ كان منحنياً على النافذة، ولا ينظر إلاّ إليها - ليتيسيا -، وكان يتابعها بعينيه دون أن يرانا إلى أن أخذه القطار دفعة واحدة. لست أدري لماذا سارعنا كلتانا في الوقت نفسه لإسناد ليتيسيا التي كانت تغمض عينيها، ودموع كبيرة تسيل على محيّاها. دفعتنا بلطف لكننا ساعدناها رغم ذلك لإخفاء الحلي في جيبها، وذهبت وحدها نحو المنزل في حين كنا نرتب الزينات لآخر مرة في علبتها. كنا نعرف جيداً ما سوف يحدث، ولكن رغم كل شيء ذهبنا كلتانا في اليوم التالي إلى تحت أشجار الصفصاف بعد أن أوصتنا الخالة روث بأن نلزم الصمت تماماً لكي لا نزعج ليتيسيا التي كانت تحس بالألم وتريد أن تنام. وحين وصل القطار رأينا دون أن نفاجأ أنّ النافذة الثالثة كانت فارغة وتبادلنا النظرات ونحن نبتسم، نصف متعزيتين ونصف غاضبتين، ونحن نتصور اريال جالساً في الجهة الأخرى من المقطورة، ساكناً في مكانه، وعيناه الرماديتان موجهتان نحو النهر.

fb/mashro3pdf

خيوط العذراء

لن يعرف أحد أبداً كيف سوف ينبغي رواية هذه القصة : بضمير المتكلم أم بضمير المخاطب (بفتح الطاء) أم بضمير الغائب الجمع ، أم بابتكار صيغ جديدة مع التقدم في القص ، لكنّ هذا في الأساس لن يفيد في شيء . إذا كان يمكن القول : أنَا رأينا بزوغ القمر، أو: أنا أحس بالألم في عمق عيوننا، أو بصورة خاصة : أنت ، المرأة الشقراء ، كانت الغيوم التي تمر بسرعة كبيرة أمام وجوهي وجوهها وجهكم وجوههم . ولكن في الحقيقة . . .

ونظراً لأنه يجب أن أروي ، فسيكون المثل الأعلى هو أن تستطيع الآلة الكاتبة (أنا أكتب على الآلة) أن تواصل الدق بمفردها ، وأنا ، في هذا الوقت ، سأذهب لشرب كأس جعة في الحانة القريبة . وحين أقول أن هذا سيكون هو المثل الأعلى ، فإنني أعرف ما أقول . وفي الواقع فإن الثقب الذي علينا أن نروي قصته هو ثقب آلة أخرى ، هي آلة كونتاكس ١,٢ ، ويمكن تماماً أن تعرف آلة أشياء عن آلة أخرى أكثر مما أعرف أنا ، وأنت ، وهي (المرأة الشقراء) ومن الغيوم . ولكن ليس لي حتى الحظ الذي يبتسم للأبرياء ، وأنا أعرف جيداً أنني إذا ذهبت ، فإن هذه «الريمنغتون» ستبقى متجمدة على الطاولة بهذه الهيئة الساكنة بصورة مضاعفة ، التي تتخذها الأشياء المتحركة حين لا تتحرك . إذن ، فأنا مجبر تماماً على الكتابة . فإذا كان يراد أن تروى هذه القصة ، فيجب تماماً أن يكتبها واحد منا . فإذا كان هذا

fb/mashro3pdf

الواحد أنا، فأنا ميت، وكتابة هذه القصة لا تعرضني للشبهة. أنا الذي لا أرى سوى الغيوم وأستطيع أن أفكر دون أن يضايقني شيء (ها هي غيمة أخرى تمر وهي ذات طرف رمادي)، أنا الذي أستطيع أن أتذكر دون أن يضايقني شيء، أنا الميت (والحي أيضاً، ولا أريد أن أخدع أحداً، وستلاحظون ذلك في النهاية)، بدأت، بما أنه كان يجب أن أنطلق بصورة أم بأخرى، من الطرف الموجود في ما هو أبعد، طرف البداية؛ وبعد كل حساب، فهذه هي أيضاً أفضل وسيلة حين يراد رواية شيء ما.

أتساءل فجأة ما هي حاجتي لرواية كل هذا، ولكن إذا بدأ المرء يتساءل لماذا يفعل ما يفعله، لماذا، مثلاً، يقبل دعوة إلى العشاء. (مرت حمامة، وعصفور دوري أيضاً، كما أعتقد) أو لماذا، حين تروى لك قصة جميلة، تحس مثل دغدغة في المعدة، تدفعك إلى المكتب المجاور لكي تروي القصة للجار... ما من أحد أبداً، على حد علمي، فسرّ هذه الظاهرة؛ فلنتجاوز هذا النوع من الخَفَر، فالأمر أبسط، ولنروِ القصة. بعد كل شيء، ما من أحد يخجل من التنفس أو من لبس حذائه، فهذه أشياء تحدث، وحين يحدث شيء غير طبيعي، مثلاً حين يعثر المرء على عنكبوت في حذائه أو حين يحدث مثل ضجة كوب يتكسر حين يتنفس ذلك الشخص، حينئذٍ نحس بحاجة لأن نمضي ونروي ما حدث، أن نرويه للأصدقاء في المكتب، أو للطبيب: «آه! يا إلهي، يا حكيم، إنني كلما تنفست...». الرواية دائماً، دائماً التحرر من هذه الدغدغة المزعجة في تجويف المعدة... إذاً، بما أننا سوف نروي هذه القصة، فلنرتبها بعض الشيء ولننزل على درجات سلم هذا المنزل ولنصل إلى هذا الأحد ٧ تشرين الثاني، قبل شهر من الآن، بالضبط. ننزل خمس طبقات، ونجد أنفسنا في صبيحة يوم الأحد مع شمس مدهشة بالنسبة لشهر تشرين الثاني في باريس، مع رغبة قوية في الذهاب من اليمين إلى اليسار، وفي أن نرى أشياء، وأن نلتقط صوراً فوتوغرافية (لأننا كنا مصوّرين، أنا مصور فوتوغرافي).

أنا أعلم أن الأكثر صعوبة سيكون العثور على الطريقة الجيدة لرواية كل

fb/mashro3pdf

هذا، لكنني لا أخاف أن أكرر الكلام. سوف يكون هذا صعباً لأننا لا نعرف بالضبط من الذي يروي، وما إذا كان أنا أم هو ما حدث أو أيضاً ما أراه (غيوم، وحمامة بين حين وآخر) أم أنني، بكل بساطة، وفقط، أروي حقيقة ليست هي حقيقتي. ولكن حينئذٍ لن تكون الحقيقة إلاّ بالنسبة لمعدتي، إلاّ بالنسبة لرغبتي هذه في الفرار وللخلاص بأسرع ما يمكن من هذه القصة.

سوف نرويها على مهل، وسنرى جيداً ماذا سيحدث وأنا أكتب. فإذا ما استبدلت بسواي في مهمتي الكتابية، أو إذا ما توقفت، وإذا ما توقفت الغيوم، أو إذا ما حدث شيء آخر (لأن هذا، حقاً، لا يمكن أن يسمّى حقاً «أن أكون»، هذا، أن أرى بلا توقف غيوماً تمر، ومن حين إلى آخر، حمامة)، إذا... وبهذ الـ «إذا»، ماذا سأكتب، وكيف سأنهي بصورة صحيحة عبارتي؟ ولكن إذا بدأت أطرح أسئلة فإنني لن أروي أي شيء أبداً. سيكون الأفضل أن أروي، فالرواية ربما كانت جواباً حقاً، على الأقل بالنسبة للذين يقرأون.

إن روبيرتو ـ ميشال، وهو فرنسي ـ تشيلي، مترجم ومصور فوتوغرافي هاو، في أوقات فراغه، قد خرج من الرقم ٢ من شارع موسيولو برينس يوم الأحد ٧ تشرين الثاني من هذا العام. (انظر، ها هما غيمتان اخريان تمران، أصغر حجماً، ذواتا نهايات فضية). منذ ثلاثة أسابيع كان يجهد في ترجمة «مبحث الطعون والنقوض» لجوزيه نوربرتو أللينـدي، الأستاذ في جامعة سانتياغو. ونادراً ما تهب الريح في باريس وأندر من ذلك أيضاً أن تكون ريحاً تدوّم في زاوية الشوارع وتتصاعد حتى النوافذ لتضرب بشدة مغالق النوافذ العتيقة التي تقف وراءها نساء مندهشات يعلقن بصور مختلفة تقلب الطقس في الأعوام الأخيرة. لكن الشمس، صديقة القطط، كانت هناك، هي أيضاً، تمتطي الريح، إذاً، ما من شيء يحول دون القيام بجولة على الأرصفة، والتقاط بعض الصور لـ «الكونسييرجري»[1] وللسانت ـ

(١) الكونسييرجري la Conciergerie ، القسم القديم العائد للعصر الوسيط، في قصر العدل بباريس، وقد كان هذا القسم سجناً منذ عام ١٣٩٢، وقد لعب دوراً رهيباً بصورة خاصة =

fb/mashro3pdf

شابيل[1]. كانت الساعة العاشرة تقريباً، وحوالي الحادية عشرة سيكون هناك نور جيد، وأفضل ما يكون في الخريف ولإضاعة الوقت اتجهت نحو جزيرة سانت لويس، ورحت أذرع الطريق على طول رصيف «أنجو». توقفت لحظة أمام فندق «لوزون»، ورددت بعض أشعار أبوللينير التي تخطر في ذهني دائماً حين أمر أمام فندق «لوزون» (كان ينبغي أن يذكرني بشاعر آخر، لكن ميشال عنيد). وحين خفت الريح فجأة، وأصبحت الشمس أكبر بمرتين، جلست على الدرابزين وأحسست بسعادة هائلة في صبيحة يوم الأحد هذه.

إن طريقة، من جملة طرق كثيرة، لمحاربة العدم، هي التقاط صور فوتوغرافية، وهذا نشاط يجب تعويد الأولاد عليه في وقت مبكر، ذلك لأنه يتطلب الانضباط، وتربية جمالية، واليد الثابتة، والنظرة السريعة. وحين يتنزه المرء ومعه آلة تصوير، يكون عليه ما يشبه الواجب بأن يكون منتبهاً، وأن لا يفقد هذا الانعكاس السريع والبديع لأشعة الشمس على حجر قديم، أو هذه البنت الصغيرة التي تركض، وضفائرها في الهواء، مع زجاجة الحليب بين ذراعيها. كان ميشال يعرف أن على المصور الفوتوغرافي أن يكيّف طريقته الشخصية في رؤية العالم مع الطريقة التي تفرضها عليه آلة التصوير، بصورة ماكرة (تمر الآن غيمة ضخمة سوداء تقريباً). لكن هذا لم يكن يقلقه كثيراً. ذلك كان يكفي أن يخرج بدون آلته الـ «كونتاكس» لكي يعود إلى هذه الهيئة الشاردة، والرؤية بدون عمليات ضبط للصورة، والضوء بدون سِجاف واق. في هذه اللحظة بالذات (يا لها من كلمة: «في هذه اللحظة»، يا لها من أكذوبة حمقاء)، مثلاً، كنت أستطيع أن أبقى جالساً على الدرابزين، فوق النهر، أنظر إلى القوارب السوداء والحمراء دون أن أرغب في التفكير فيها فوتوغرافياً؛ كنت أستسلم لمجرى الأمور كما هي، كنت أركض مع الزمن ساكناً بلا حراك. كانت الريح قد هدأتْ.

= في الأعوام ١٩٧٣ - ١٩٧٤ (عهد الإرهاب). (المترجم).

(١) السانت - شابيل: كنيسة في باريس بنيت في عهد القديس لويس، وألحقت بقصر العدل. (المترجم).

fb/mashro3pdf

ثم سلكت رصيف «بوربون»، حتى رأس الجزيرة حيث توجد ساحة صغيرة حميمة (حميمة لأنها صغيرة وليس لأنها خفية، فهي مكشوفة تماماً للنهر وللشمس) وهي تروق لي كثيراً. لم يكن هناك سوى زوجين، هما، طبعاً حمامتان. (ربما هذان اللذان يمران الآن في مجال بصري). وبقفزة، جلست على الدرابزين وتركت الشمس تغمرني، تقيدني، ومددت لها وجهي وأشعلت سيجارة لكي أفعل شيئاً. وأعتقد أنني، في لحظة تقريبي عود الثقاب من السيجارة، رأيت الغلام لأوّل مرة. إن ما حسبته زوجاً من الأشخاص كان أكثر شبهاً بأم وولدها، لكنني كنت أحس مع ذلك بأنه لم يكن غلاماً مع والدته، بل كانا تماماً زوجاً من الأشخاص بالمعنى الذي نعطيه دائماً للأزواج من الأشخاص حين نراهم مستندين إلى الدرابزينات، أو متعانقين على مقاعد الساحات. ولما لم يكن لدي شيء خاص أفعله، توفر لدي الوقت لأتساءل لماذا كان مظهر الشاب عصبياً إلى هذا الحد، مثل أرنب بري، أو مثل مهر. كان يدس يديه في جيوبه، ويسحب إحداهما منها بعد قليل، ثم الأخرى، وكان يدس أصابعه في شعره، ويغيّر وضعه، ولكن على الأخص، لماذا كان خائفاً؟ كان الخوف ملموساً في كل حركة من حركاته، خوف لخنق الخجل، ورغبة في الانكفاء إلى الوراء، وكان جسمه على حافة الهرب، ولم يكن يمسكه سوى حس باللياقات، نهائي ومثير للشفقة.

كل هذا كان واضحاً جداً، وعلى بعد خمسة أمتار مني، بحيث أن خوف الفتى، في تلك اللحظة، لم يتح لي أن أرى جيداً المرأة الشقراء. لكنني الآن، حين أفكر في ذلك، أراها مجدداً بصورة أفضل مني حين قرأت وجهها (لقد استدارت فجأة، مثل دوّارة هواء نحاسية، وعيناها، عيناها كانتا مائلتين)، في اللحظة التي فهمت فيها بصورة غير مميّزة ما كان يحدث، وحيث قلت في نفسي أن هذا يستحق عناء البقاء والنظر. فإذا كنت أستطيع أن أفعل شيئاً ما، فأنا أعتقد أنني أعرف أن أنظر. وأنا أعرف أيضاً أن كل نظر مشوب بالخطأ، ذلك لأنه، أي النظر، هو العمل الذي يلقي بنا، أكثر من سواه، خارج ذواتنا، وبدون أية ضمانة، في حين أن حاسّة الشمّ . . . (لكن ميشال خرج بسهولة عن موضوعه، ولا ينبغي تركه يتكلم خبط عشواء). وعلى

fb/mashro3pdf

كل حال، يمكن، مع أخذ الاحتياطات، وبالاحتراس من أخطاء النظر، يمكن النظر مع احتمالات أقل للخطأ، وربما كان يكفي المرء أن يعرف ما يريد: أن ينظر، أو أن يرى ما ينظر إليه: أن يعرف تجريد الأشياء من جميع هذه الثياب الغريبة. وهذا، بكل تأكيد، صعب إلى حد ما.

والأصح القول إن صورة الغلام هي التي أستعيد رؤيتها أولاً، قبل جسمه الحقيقي، (سنفهم في التالي ماذا يعني هذا)؛ وفي المقابل، أنا متأكد، في الوقت الحاضر، إنني أستعيد بصورة أفضل بكثير رؤية جسم المرأة، أكثر من صورتها. كانت نحيفة وممشوقة القامة، وهاتان كلمتان غير دقيقتين للقول ماذا كانت، وكانت ترتدي معطفاً من الفرو شبه أسود، وشبه واسع جداً، وشبه جميل. كان كل هواء الصبيحة (تقريباً لم يعد يهبّ الآن، ولم يكن الطقس باردا) قد مر عبر شعرها الأشقر الذي يؤطر وجهاً شاحباً ومعتماً - كلمتان غير دقيقتين - وكان يخالجك إحساس فظيع بالوحدة، والهشاشة، حين تنظر تلك المرأة إليك بعينيها السوداوين، عينيها اللتين تنقضان على الأشياء مثل عُقابين، قفزتان في الفراغ، دفقتان من وحل أخضر.

ولنكن عادلين، كان الفتى أنيق الملابس، بل وكان يلبس قفازين أصفرين، لا بد أنهما يعودان لأخيه الأكبر، الطالب في كلية الحقوق، أو «العلوم السياسية»، وكان من المضحك بعض الشيء رؤية أصابع القفازين تخرج من جيب سترته. وخلال فترة طويلة، لم أر من وجهه سوى جانب حساس، طائر مرتاع، ملاك من رسم فرا فيليب، ورز بالحليب، وظهر مراهق يريد أن يلعب دور الفتيان الأشداء، وقد قاتل مرتين أو ثلاث مرات من أجل فكرة أو من أجل شقيقة. في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، يغذيه ويكسوه ذووه، لكنه لا يملك فلساً واحداً في جيبه، وهو يضطر لإجراء مشاورة مع صحبه قبل أن يقرر شرب فنجان قهوة أو كأس كونياك، أو شراء علبة سجائر. وفي منزله (منزل محترم، الغداء يقدم عند الظهر، ورسوم لمناظر رومانسية على الجدران، ورواق معتم مع حاملات مظلات من خشب الأكاجو قرب الباب) إن زمن الدراسة، وأن يكون أمل والدته، وأن يشبه

fb/mashro3pdf

أباه، وأن يكتب إلى الخالة في أفينيون، قدر له أن يتساقط في رذاذ رفيع. وهذا ما كان يطرده إلى الشوارع، النهر كله له وحده (لكنه بدون فلس) والمدينة الغامضة للأعوام الخمسة عشر مع إشاراتها على الأبواب، وقططها المثيرة للقلق، وقرن البطاطا المقلية، والمجلة الخلاعية المطوية أربع طيات، والوحدة مثل فراغ في الجيوب، واللقاءات السعيدة، والحرارة من أجل كثير من الأشياء، غير المفهومة ولكن المضاءة بحب كليّ، وبحرية مشابهة للريح وللشوارع. كل هذا يمكن تماماً أن يكون سيرة هذا الفتى، أو سيرة أيّما فتى آخر، لكن ما كان يميز فتانا، ذاك، في الوقت الحاضر، وما كان يجعله فريداً في نظري، هو وجود المرأة الشقراء التي كانت تواصل التحدث إليه. (هذا يضجرني، أن أعود إلى هذا الموضوع بلا انقطاع، ولكن لقد مرت أيضاً غيمتان ممزقتان، علماً بأنني لم أنظر هذا الصباح إلى السماء مرة واحدة، ومنذ اللحظة التي فهمت فيها ما كان يحدث للغلام، لم أستطع أن أحول نظري عنه). كان الولد عصبياً، وكان يمكن أن أحزر بلا عناء ما يحدث. لقد وصل الصبي إلى الساحة الصغيرة ورأى المرأة ووجدها مثيرة. وهذا ما كانت تنتظره المرأة. ولكن ربما كان الفتى قد وصل أولاً، ورأته المرأة من شُرْفَة أو من سيارة وجاءت للقياه، وبدأت الحديث بأوّل ذريعة خطرت لها، عالمة تماماً أنه سيخاف منها، وأنه يريد الفرار لكنه سيبقى رغم ذلك، وهو خجول ومتبجح، يتظاهر بالخبرة وبمتعة المغامرة. والنهاية كان سهلاً توقعها. فأي كان يستطيع أن يسجل مراحل اللعبة، والتطورات المثيرة للسحر؛ كان سحر المشهد يكمن لا في ما كان يحدث، بل في توقع النهاية. سينتهي الأمر بالفتى لأن يتذرع بموعد ما، أو بالتزام ما، وسوف يبتعد، متعثراً على بلاط الطريق، يريد أن يصطنع مشية لا مبالية لكنه يحس بأنه عار تحت النظرة الساخرة التي ستتبعه حتى النهاية. أو أنه حينئذٍ سوف يبقى، مبهوراً وعاجزاً عن الإتيان بأية حركة، وستبدأ المرأة بمداعبة وجهه، ونبش شعره، وستكلمه بلا صوت، وتمسكه فجأة من ذراعه لكي تصطحبه، إلاّ إذا لم يغامر هو، بجسارة أكثر تلوّناً بالرغبة وبحب المغامرة، فيطوق قامتها، ويقبلها. كل هذه الأشياء كانت ممكنة، ولكن شيئاً لم يكن يحدث

fb/mashro3pdf

بعد، وكان ميشال، بصورة منحرفة، كان ينتظر جالساً على الدرابزين، معداً على نحو آلي تقريباً، آلته لالتقاط صورة رائعة لهذا الزوج من العشاق، غير العادي، في رأس الجزيرة.

والغريب أن هذا المشهد (لا شيء تقريباً في الواقع: رجل وامرأة ليسا من سن واحدة) كان له ما يشبه الهالة المقلقة. وكنت أعتقد بأنني أنا الذي أضفت إليه حبي للأسرار وأن صورتي الفوتوغرافية، إذا ما التقطها، ستحل محل الأشياء في حقيقتها البلهاء. وكنت أحب أن أعرف ما رأيه في ذلك، الرجل ذو القبعة الرمادية، الجالس وراء مقود السيارة المتوقفة على الرصيف قرب العبّارة، والذي كان يقرأ الجريدة أو ينام. لقد اكتشفته الآن فقط، ذلك لأن الأشخاص الذين يجلسون في سيارة متوقفة يختفون تقريباً، ويضيعون في هذا القفص البائس المجرد من الجمال الذي تمنحه له الحركة والخطر. ومع ذلك فإن السيارة كانت هناك منذ البداية، مشكّلة جزءاً (أو مخربة هذا الجزء) من الجزيرة. السيارة، كأنك تقول «مصباح»، أو «مقعد».

أما الهواء والشمس، بالمقابل، وهما عنصران جديدان دائماً بالنسبة للبشرة والعينين، فكانا حاضرين تماماً، وكذلك الفتى والمرأة، الجالسان هنا لتغيير الجزيرة، ولكي يظهراها لي تحت ضوء مختلف. وكان من الممكن تماماً، من جهة أخرى، أن الرجل قارىء الجريدة كان منتبهاً، هو أيضاً، لما كان يحدث، وأنه أحس مثلي بطعم الانتظار، هذا المنحرف. لقد استدارت المرأة بلطف على عقبيها بحيث يصبح الغلام بينها وبين الدرابزين. كنت أراهما، تقريباً بوضعهما الجانبي، كان هو أطول منها، ولكن ليس بكثير، وعلى كل حال كانت هي التي تهيمن عليه، التي تحلّق فوقه. (ضحكتها فجأة مثل سوط من الريش؛ كانت تسحقه بمجرد كونها هناك، وبأن تبتسم، وتهز يدها. ولماذا انتظر أكثر، فبانفتاحة ١٦، مع ضبط للصورة بحيث لا تدخل فيها هذه السيارة السوداء الفظيعة، ولكن نعم هذه الشجرة التي ستفصم هذا المدى الرمادي جداً... رفعت آلتي إلى مستوى العينين، متظاهراً بدراسة مجموعة منازل، بعيداً عنهما، وظللت أترقب، متأكداً من استطاعتي التقاط الحركة الكاشفة،

fb/mashro3pdf

التعبير الذي يختصر الحركة، الحياة التي تعين الحركة إيقاعها، لكن الصورة الجامدة تدمرها بتجزئتها الزمن، إذا لم نختر نحن الجزء الأساسي منه. لم يكن علي أن أنتظر طويلاً، كانت المرأة تنتهي بتطويق الغلام بلطف، وتنتزع منه خيطاً فخيطاً. آخر بقايا حريته، في عملية تعذيب بطيئة جداً ولذيذة. كنت أتصور الحلول الممكنة (هذه المرة، إنها غمامة صغيرة مزبدة تبدأ بالظهور، وحيدة في السماء)، كنت أتصور مسبقاً وصولهما إلى منزلها. (طابق أرضي ربما مليء بالوسائد والقطط)، وتوقعت رعب الغلام، وجهوده اليائسة لكي لا يظهر عليه شيء من ذلك، وللتظاهر بأنه معتاد على مرافقة النساء. وباغماضي عينيّ، هذا إذا كنت أغمضهما، كنت أرتب المشهد، القبلات الساخرة، المرأة تصد بلطف اليدين اللتين تريدان تعريتها كما في الروايات، على سرير من ريش وردي، لكنها في المقابل ترغمه، هي، على التعري، مثل أم وولد، تحت نور أصفر بنّي اللون، للانتهاء بالنهاية المعتادة. هذا إلاّ إذا لم يكن كل شيء قد حدث بصورة أخرى، حيث ربما لن يتجاوز تعليم المراهق تمهيداً طويلاً، حيث الحركات الفاقدة البراعة، والمداعبات المُخيفة، وركض الأيدي تنتهي بما لست أدريه، بلذة منفردة، برفض ممتزج بين إتعاب وإرباك كل هذه البراءة الجريحة. كان هذا يمكن أن ينتهي تماماً على هذا النحو. هذه المرأة لم تكن تبحث عن عشيق في هذا الغلام ومع ذلك كانت تستولي عليه لأغراض يستحيل فهمها، إلاّ إذا تصورنا لعبة قاسية، وذوق الرغبة غير المشبعة، والحاجة إلى التهيج قبل العودة إلى رجل آخر.

إن ميشال هو مذنب أدب، ومرتكب تراكيب وابنية غير معقولة. ولا يروق له شيء مثل تصور حالات شاذة، وأشخاص خارج النوع الاعتيادي، مسوخ ليس لهم بالضرورة مظهر مُنَفّر. وهذه المرأة كانت تتيح ألف افتراض، بل انها ربما كانت تعطي المفاتيح الضرورية لتخمين الحقيقة. وقبل أن تذهب، وبما أنها سوف تشغل ذهني طوال عدة أيام ـ أنا لديّ ميل إلى الاجترار ـ فقد كان يتوجب التقاطها. وضعتُ كل شيء في المصوّب[1]، الشجرة،

(١) المصوب le Viseur : جهاز بصري للتصويب. (المترجم).

fb/mashro3pdf

والدرابزين، وشمس الساعة الحادية عشرة، وضغطت على الفَصّال . . . وأنا ألاحظ أنهما أدركا حيلتي وأنهما ينظران إليّ، الغلام بهيئة مندهشة ومتسائلة، لكنها هي، كانت غاضبة، عدائية بتصميم، جسداً ووجهاً، يعرفان أنهما تعرضا للسرقة، وأخذا بسفالة في صورة كيميائية صغيرة.

بوسعي أن أروي لكم التتمة بالتفصيل، لكن هذا لا يستحق العناء. لقد قالت المرأة إنه ما من أحد يحق له التقاط صورة بدون إذن، وطلبت الفيلم. كل هذا بصوت جاف وواضح، بلهجة باريسية تماماً، كانت تتصاعد بالنبرة واللون مع كل جُملة. وشخصياً لم أكن أجد مانعاً في اعطائها الفيلم، لكن الذين يعرفونني يعلمون أنه يجب أن تطلب مني الأشياء بلطف. لذلك اكتفيت بالإجابة بأنه ليس فقط غير محظور التقاط صور فوتوغرافية في الأماكن العامة، بل قلت أيضاً إن هذا الفن ـ فن التصوير ـ يتمتع بأكبر تقدير رسمي وخاص. ولدى قولي هذا، كنت أتذوق بمكر لذة رؤية الغلام ينطوي، ويبقى متراجعاً، وذلك فقط بعدم الحركة. وفجأة، بدا هذا غير قابل للتصديق تقريباً، فقد أخذ يركض؛ لا بد أنه اعتقد، المسكين، أنه يسير، لكنه في الواقع انطلق بأسرع ما يمكن، ومر بقرب السيارة، ومثل خيط العذراء ضاع في جو الصباح.

لكن خيوط العذراء تسمّى أيضاً في بلادي لُعاب الشيطان، وقد اضطر ميشال لتلقّي شتائم مفصلة، وأن يسمع وصفه بـ «غير المؤدب» و «الأحمق»، واكتفى بأن يقابل ذلك بالابتسام وبأن ينحّي بحركات رأس بسيطة كلمات رخيصة بهذا الشكل. وبدأت أحس بالتعب حين سمعت باب سيارة يُقْفَل. كان الرجل ذو القبعة الرمادية أمامنا وينظر إلينا. حينئذٍ فقط فهمت أنه كان يلعب دوراً في هذه الكوميديا.

تقدم نحونا، ممسكاً بيده الجريدة التي كان يتظاهر بقراءتها. وما أتذكره بصورة أفضل، هو البرطمة التي كانت تلوي فمه وتكسو وجهه بالتجاعيد. كان فمه يرتجف وانزلقت التكشيرة من جانب إلى آخر على الشفتين مثل شيء مستقل وحيّ، خارج عن الإرادة. لكن باقي وجهه كله كان ساكناً، بلا حركة، مهرج مطلي الوجه بالطحين، رجل منزوف، ذو بشرة جافة ومنطفئة،

fb/mashro3pdf

وعينين غائرتين بعمق؛ وفتحتا أنفه سوداوان وظاهرتان، أشد سواداً من الحاجبين، ومن الشعر، ومن عقدة الرقبة السوداء. كان يسير باحتراس كما لو أن بلاط الطريق يؤلم قدميه؛ كان يلبس حذاء لمّاعاً ذا نعل لمّاع بحيث أن الرجل كان يحس بجميع تضرّسات الطريق. لست أدري لماذا نزلت عن الدرابزين ولا لماذا قررت أن لا أعطيهم الصورة، وأن أواجه بالرفض طلبهم الذي كنت أحزر فيه الخوف والجبن. كان المهرج والمرأة يتشاوران بالنظر، وكنا نشكل مثلثاً كاملاً، لا يطاق، على وشك الانفصام في تفجر. ضحكت في وجهيهما وانصرفت، بصورة أبطأ قليلاً من سير الغلام، كما آمل. وعلى مستوى المنازل الأخيرة، من جهة العبّارة الحديدية، استدرت للنظر إليها. كانا بلا حراك، لكن الرجل كان قد أسقط جريدته، وبدا لي أن المرأة، المستندة بظهرها إلى الدرابزين، تمرر يدها على الحجر بهذه الحركة المعهودة للشخص المطارد الذي يحاول الإفلات.

وقد حدثت التتمة هنا، منذ لحظة فقط، في غرفة بالطبقة الخامسة، لقد مرت عدة أيام قبل أن يقوم ميشال بتظهير صور يوم الأحد؛ كانت الكونسييرجري والسانت شابيل كما ينبغي أن تكونا. وقد وجد في الشريط علاوة على ذلك موضوعين أو ثلاثة موضوعات كان قد نسيها، المحاولة غير البارعة لتخليد قط جاثم بصورة خَطِرة على سطح مبولة عامة، وأخيراً المرأة الشقراء والمراهق. وكانت النسخة السلبية جيدة بحيث التقط عنها فوراً صورة مكبرة؛ وكانت هذه الصورة المكبّرة جيدة بحيث التقط عنها صورة مكبرة أخرى، بنفس حجم الملصق تقريباً. وهو لم يعتقد لحظة، والآن فإن هذه الفكرة ترهقه، ان صور الكونسييرجري كانت تستحق كل هذه العناية. ومن مجموعة الصور كلها، كانت صورة رأس الجزيرة وحدها هي التي تهمه. وقد ثبت الصورة المكبرة على جدار الغرفة، وقضى فترة كبيرة، في اليوم الأوّل، وهو يتأملها ويتذكر، وهو مشغول كلياً بعملية المقارنة هذه الحزينة للذكرى تجاه الواقع المفقود؛ ذكرى متجمدة مثل الصورة هي ذاتها حيث لم يكن ينقص أي شيء، ولا حتى العدم، المثبت الحقيقي، في الواقع، لهذا المشهد. كانت ثمة المرأة، وكان الغلام، والشجرة الجامدة فوق رأسيهما،

fb/mashro3pdf

والسماء ساكنة مثل سكون الدرابزين، والحجارة والغيوم مختلفة في مادة واحدة لا انفصال لها، (تمر الآن غيمة منها ذات أطراف ممزقة، وهي تجري وكأنها تحس مسبقاً بقدوم العاصفة)، في اليومين الأوّلين قبلت ما فعله، منذ بادرة التقاط الصورة حتى الصورة المكبرة، المثبتة على الحائط، ولم أكن أتساءل حتى لماذا كنت أتوقف في كل لحظة عن ترجمة كتاب نوربرتو أللينديِ، للنظر مجدداً إلى وجه المرأة، والبقع المعتمة على الدرابزين. وكانت لي مفاجأة أولى بلهاء: لم تكن قد خطرت لي أبداً حتى ذلك الحين الفكرة بأننا حين ننظر إلى صورةٍ مواجهة، فإن العينين تكرران بالضبط وضع ورؤية العدسة. وهذه أشياء حققت مرة أخيرة ونهائية ولا يفكر أحد في إعادة النظر فيها. ومن على مكتبي، وآلتي الكاتبة أمامي، كنت أنظر إلى الصورة التي كانت على بعد ثلاثة أمتار مني، ولاحظت فجأة أنني قد جلست بالضبط عند نقطة هدف العدسة. كان الأمر ممتازاً هكذا، رغم أن تفحصاً في خط مائل كان يمكن أن يكون له سحره بل وحتى مفاجآته. وفي كل لحظة ـ حين لم أكن أجد طريقة لأقول بلغة فرنسية جيدة ما كان نوربرتو أللينديِ يقوله باسبانية ممتازة ـ كنت أرفع بصري، وأنظر إلى الصورة. أحياناً كانت المرأة هي التي تجتذبني وأحياناً الغلام، وأحياناً أرض الشارع حيث سقطت ورقة شجر يابسة في موضع مناسب لإعطاء نتوء لوجه معين من الصورة. وارتحت فترة من عملي وغرقت مجدداً بمتعة في هذه الصبيحة التي تغمر الصورة، وتذكرت بمرح الهيئة الغاضبة للمرأة حين كانت تطالب بالصورة، والفرار المضحك والمؤثر للغلام، وتدخل الرجل الأبيض الوجه في المسألة. وفي العمق، كنت مسروراً من نفسي؛ ومع ذلك فإن انصرافي لم يكن لامعاً جداً. وبما أنه أعطي للفرنسيين حق الجواب الحاضر، والرد البديهي، فإنني لا أرى لماذا أركنت إلى الفرار دون أن أقوم قبل ذلك باثبات حسب الأصول لامتيازات وصلاحيات وحقوق المواطن. إن المهم، المهم حقاً، كان هو مساعدة الغلام على الفرار في الوقت المناسب. وبتدخلي في ما لا يعنيني، أعطيته إمكانية أن يستخدم أخيراً خوفه في شيء نافع؛ وفي هذه الساعة، لا بد أنه نادم، يحس بالمهانة، وقليل الاعتزاز بنفسه. لكن هذا أفضل من صحبة

fb/mashro3pdf

امرأة قادرة على النظر إليه كما كانت تنظر إليه في الجزيرة. إن ميشال هو أحياناً طهراني (بيورتياني) إلى حد ما، وهو يعتقد أنه لا ينبغي استعمال القوة للإغراء أو الإفساد. وفي الأساس، كانت هذه الصورة عملاً طيباً.

ولكن ليست فكرة هذا العمل الطيب هي التي كانت تجعلني أوقف عملي كل خمس دقائق. وفي هذه اللحظة بالذات، ما كنت أعرف لماذا أنظر إلى الصورة ولا لماذا قمت بتثبيت الصورة المكبّرة على الجدار: ربما هكذا تحدث الأشياء التي لا مرد لها، والتي لا يمكن تلافيها. ولا أعتقد أن اهتزاز أوراق الشجرة، السريع قد أقلقني في هذه اللحظة، بما أنني تابعت وأنهيت جملة كنت قد بدأت بكتابتها. إن العادات هي مثل معاشب كبيرة، وبعد كل حساب، فإن صورة مكبرة بقياس ٦٠ × ٨٠ تشبه شاشة تعرض عليها صور متحركة، وحيث عند رأس جزيرة، تتحدث امرأة مع غلام، في حين تهز شجرة أوراقها اليابسة فوقهما.

لكن اليدين، شيء كثير كنت قد كتبت: «إذاً، يكمن المفتاح الثاني في طبيعة الصعوبات التي على المجتمعات أن . . .» حين رأيت يد المرأة تنطبق على مهل إصبعاً بعد إصبع. لم يبق شيء مني، عبارة بالفرنسية لن تنتهي أبدا، آلة كاتبة تسقط على الأرض، كرسي يصرّ ويهتز، سحابة. أحنى الغلام رأسه مثل ملاكم لم يعد يستطيع الاستمرار، وهو ينتصر بالضربة القاضية، ورفع - الغلام - ياقة معطفه، كان يشبه أكثر من أي شيء آخر سجيناً، الضحية الكاملة التي تجتذب الكارثة. كانت المرأة، الآن، تحدثه في أذنه، دون استعجال، وكانت يدها تنفتح مجدداً لتكون على خد الولد، لمداعبته طويلاً جداً، ولإشعاله دون استعجال. كان يبدو الغلام حذراً أكثر منه خائفاً؛ وألقى نظرة أو نظرتين من فوق كتف المرأة التي استمرت تحدثه، وتوضح له شيئاً ما، وكان الغلام ينظر بلا انقطاع نحو الموضع الذي كان ميشال يعرف جيداً جداً أن فيه توجد السيارة مع الرجل ذي القبعة الرمادية؛ السيارة التي تركها بعناية جانباً على الصورة ولكن التي كانت تنعكس في عيني الغلام و (لم يعد يمكن الشك في ذلك) في أقوال ويدي المرأة وحضورها الوسيط. وحين رأيت

fb/mashro3pdf

الرجل يقترب، حين رأيته يقف قربهما وينظر إليهما، ويداه في جيوبه، بهيئة متعبة وحاسمة في وقتٍ معاً، السيد الذي يتأهب للصفير لكلبه بعد أن تركه يتواثب فترة في الساحة، فهمت، إذا كان يمكن تسمية هذا فهما، ماذا سيحدث، ما كان لا بد أن يحدث لو لم آت لأقلب عن غير قصد خطة هذين الشخصين ـ الرجل ذو القبعة الرمادية والمرأة الشقراء ـ، لو لم آت لأتدخل في ما لم يمكن أن يحدث ولكن كان سيحدث هذه المرة، كان سيتحقق هذه المرة. إن ما أمكن أن أتصوره قبلاً كان أقل فظاعة بكثير من الواقع. هذه المرأة لم تكن هناك لأجل متعتها، لم تكن تشجع، لم تكن تداعب لامتلاك الملاك المنبوش الشعر والتسلي إثر ذلك برعبه، وبفتنته اللاهثة. كان السيد الحقيقي ينتظر، باسماً، واثقاً من قضيته؛ ولم يكن أوّل من يرسل امرأة كطليعة متقدمة لتحضر له أسرى مقيدين بالأزهار. والبقية كانت بسيطة جدا، السيارة، أوّل طابق أرضي متوفر، المشروبات، الرسوم المثيرة، والاستيقاظ في الجحيم. وما كان بوسعي أن أفعل شيئاً، هذه المرة لم أكن أستطيع هذه المرة أن أفعل أي شيء إطلاقاً. كان سلاحي حينئذٍ صورة، هذه الصورة التي كانوا ينتقمون مني فيها الآن، باطلاعي جهاراً على ما سوف يحدث. لقد التقطت الصورة، والزمن قد مر؛ كنا بعيدين جداً بعضاً عن بعض، وقد فعل الفساد فعله، والدموع المسكوبة والباقي كله لم يكن سوى تخمين وحزن. لقد انقلب نسق الأشياء فجأة، وهم الذين أصبحوا أحياء، الذين يقررون، ويمضون نحو مستقبلهم؛ وأنا، في هذه الناحية، سجين زمن آخر، وغرفة في الطبقة الخامسة، سجين لعدم معرفتي من كان هذا الرجل، وهذه المرأة وهذا الولد، وأن، لا أكون سوى عدسة آلة التصوير خاصتي. كانوا يسخرون مني على المكشوف، وبالطريقة الأكثر فظاعة، مستغلين عجزي ليفعلوا ما يريدون؛ وكنت أرى أن الغلام بعد أن نظر المهرج لآخر مرة المطلي الوجه بالطحين، سوف يقبل؛ كانوا يعدونه بالنقود أو كانوا يخدعونه، وما كنت أستطيع أن أناديه ليهرب، أو فقط أن أسهّل هربه مجدداً بالتقاط صورة أخرى، وهو تدخل مسكين ومتواضع كان مع ذلك سيهدم البناء المزيف المصنوع من لعاب قذر وابتسامات. كل شيء سوف يُسْتَنفد، هنا بالذات

fb/mashro3pdf

وفي هذه اللحظة؛ كان يسود ما يشبه الصمت الهائل، هو أبعد بكثير من الصمت المادي. صمت كان يتوتر، ويتسلح. وأعتقد أنني صرختُ، صرخة رهيبة، وأحسست على الفور أنني كنت أتقدم نحوهم، خطوة ثم أخرى، كانت الشجرة تؤرجح أغصانها بإيقاع في مقدمة الصورة، وطرف الدرابزين يضيع خارج الإطار، ووجه المرأة المستدير نحوي بهيئة مندهشة متزايدة: حينئذ استدرت أنا قليلاً ـ أقصد أن أقول إنَ آلة التصوير استدارت قليلاً ـ واقتربت الآلة، دون أن تتحول تماماً عن المرأة، من الرجل الذي كان ينظر بهاتين الفتحتين السوداوين اللتين كانتا له بدلاً من العينين، كان ينظر إليّ مندهشاً وغاضباً، وكأنه كان يريد أن يسمّرني على الهواء، وفي هذه اللحظة، رأيت ما يشبه الطائر الكبير خارج المجال يمر أمام الصورة برفة جناح، واستندت إلى جدار غرفتي وأحسست بالسعادة لأن الغلام قد تمكن من الفرار؛ كنت أراه يركض، مجدداً في مجال الرؤية، هارباً وشعره متناثراً في الهواء، طائراً فوق الجزيرة، واصلاً إلى العبّارة، وعائداً منها إلى المدينة. كان يفلت منهما للمرة الثانية، وللمرة الثانية كنت أنا الذي أساعده على الفرار، وعلى أن يستعيد فردوسه العابر. وبقيت في مواجهتهما، لاهثاً؛ لا حاجة لي للتقدم، كانت اللعبة قد لُعِبَتْ. لم يعد يرى من المرأة سوى كتف وخصلة من الشعر مقطوعة بفظاظة بحافة الصورة؛ ولكن في مواجهتي كان الرجل، فاغر الفم، وكنت أرى لسانه الأسود يرتعش، وكان يرفع يديه ببطء ويمدهما نحو مقدمة الصورة، صورة واضحة مُدّةَ لحظة، ثم لم يعد سوى كتلة كبيرة سوداء محت الجزيرة، والشجرة، وأغمضت أنا عينيّ ولم أعد أُريد النظر وخبأت وجهي بيديّ، ورحت أبكي مثل معتوه.

تمر الآن غيمة كبيرة بيضاء، مثل تلك التي مرت بالأمس، وكما سوف يمر من غيوم طوال هذا الزمن الذي لا يُعَدّ. وما بقي علي أن أقوله أيضاً، هو غيمة، غيمة أيضاً، أو ساعات طويلة من السماء الصافية تماماً، مستطيل من صفاء تام، مثبت بدبابيس على جدار غرفتي. هذا ما رأيته حين فتحت عيني مجدداً، بعد أن مسحتهما بظاهر يدي: السماء الصافية، ثم غيمة تصل على اليسار، وتجيل فترة فتنتها البطيئة وتتبدد نحو اليمين. ثم غيمة أخرى، ولكن

fb/mashro3pdf

أحياناً يصبح كل شيء رمادياً، كل شيء لم يعد سوى غيمة هائلة الضخامة، وفجأة تتدفق سيول المطر؛ طوال فترة مديدة، تمطر على الصورة، مثل دموع منعكسة، كما يمكن أن يهطل المطر على عدسة آلة تصوير «كونتاكس» سقطت على الرصيف؛ ثم شيئاً فشيئاً، تتنور الصورة، الشمس تعاود الظهور بلا شك، ومجدداً. تدخل الغيوم إلى الساحة، اثنتين اثنتين، وثلاثة ثلاثة. والحمائم أيضاً، وأحياناً عصفور دوري.

* * *

fb/mashro3pdf

خدمات حميدة ومخلصة

أجد صعوبة منذ بعض الوقت في إشعال النار. فعيدان الثقاب لم تعد البتة كما كانت، فالآن يجب أن أضعها ورؤوسها إلى أسفل لكي تشتعل؛ والحطب، يحضرونه إليّ رطباً تماما، وعبثاً أوصي فريدريك بأن يختار لي حطبات جافة تماما، فإنها تفوح دائما برائحة البلل وتشتعل بصورة سيئة. ويجب القول انه منذ أن أخذت يداي ترتعشان، أصبح كل شيء أصعب عليّ. قبلاً، كنت أرتبّ لك سريراً في ثانيتين، وكان يبدو أن الأغطية قد كويت منذ فترة قريبة. والآن، دوري كي تدوري، فأنا لا أنتهي من عملي ذاك، وتغضب السيدة بوشامب وتقول إنها لا تدفع لي أجري لقضاء وقتي وأنا أملّس غطاء سرير. كل هذا لأن يدي ترتعشان وأيضاً لأنّ أغطية الوقت الحاضر ليست كأغطية الزمن الماضي، السميكة جداً والمتينة جداً. وقد قال لي الدكتور لوبران أنه ليست هناك مشكلة وأنني فقط يجب أن أنتبه، وأن لا أصاب بالبرد، وأن علي أن أنام باكراً. «وهذا القدح من النبيذ الذي نشربه من حين إلى آخر، أليس كذلك أيتها السيدة فرانسينيه؟ سيكون من الأفضل أن تلغيه وكذلك «البيرنود» وقت الظهر. الدكتور لوبران هو طبيب شاب ذو أفكار هي بالتأكيد جيدة جداً بالنسبة للشبان. في زمني، لم يكن يمكن أن يعتقد أحد أن قدحاً من النبيذ يمكن أن يحدث ضرراً. على الأخص أنني لا أشرب كما يُسَمَّى الشرب، مثل الـ «جرمين»، امرأة الطابق الثالث، أو مثل هذا السكير فيلكس، النجار. ولست أدري لماذا دعاني هذا للتفكير في هذا المسكين

fb/mashro3pdf

السيد «بيبيه»، في ذلك المساء حين سقاني كأس ويسكي. يا للسيد «بيبيه» هذا! كان ذلك في مطبخ السيدة روزاي، مساء العيد. كنت أخرج كثيراً في ذلك الحين، حيث يجري استخدامي كخادمة طارئة أو إضافية. عند السيد رينفيلد، وعند الأوانس اللواتي يقمن بتعليم عزف البيانو والكمان، وعند كثيرين غيرهم، وكلهم أناس طيبون. والآن، بالكاد أستطيع أن أذهب إلى منزل السيدة بوشامب ثلاث مرات في الأسبوع، ولدي ما يشبه الانطباع بأن هذا لن يدوم زمناً طويلاً. ذلك لأن يديّ ترتعشان إلى حد يثير غضب السيدة بوشامب. ولا يمكن أن توصي بي الآن السيدة روزاي، ولا أن تأتي السيدة روزاي لاستدعائي، ولا أن يدعوني السيّد «بيبيه» لاحتساء كأس في المطبخ.

في المساء الذي جاءت فيه السيدة روزاي إلى منزلي، كان الوقت متأخراً ولم تمكث عندي سوى لحظة. والواقع أن منزلي يتألف من غرفة واحدة، ولكن نظراً لأن لدي مطبخاً وكل ما بقي لي من قطع الأثاث غير التي توجب علي بيعها بعد وفاة جورج، فإنه يبدو لي أنه يحق لي أن أسمي هذا المكان منزلي. ولديّ على كل حال ثلاثة كراسٍ. نزعت السيدة روزاي قفازيها، وجلستْ، وقالت إن الغرفة صغيرة لكنها لطيفة. ولم أكن إطلاقا منبهرة بزيارة السيدة روزاي لي، لكنني كنت أحب رغم ذلك لو كانت ملابسي أفضل. لقد وصلت السيدة روزاي فجأة وكنت أرتدي التنورة الخضراء التي أعطتني إياها الأوانس. ولحسن الحظ، لم تكن السيدة روزاي تُنْعِم النظر في أي شيء، أو بالأصح فإنها إذا ما نظرت فإنها كانت تحوّل نظرها على الفور وكأنما لفصله عما شاهدت. وكانت أيضاً تقطّب أنفها قليلا؛ ولعل رائحة البصل كانت تضايقها (أنا أُحبّ البصل كثيراً) أو كان يضايقها «بول» القطة المسكينة مينوش. لكنني كنت مع ذلك مسرورة جدا لأن السيدة روزاي قد جاءت لزيارتي، وقد قلت لها ذلك.

- بالتأكيد يا سيدة فرانسينيه. وأنا أيضاً مسرورة لأنني وجدتك، لأنني مشغولة جداً...

- كانت تقطّب أنفها وكأن مشاغلها ذات رائحة كريهة.

fb/mashro3pdf

ـ أود لو أنك . . . أعني أن السيدة بوشامب اعتقدت أنك ربما ستكونين حرة مساء الأحد .

أجبتُ: بالطبع . وماذا لدي من عمل يوم الأحد بعد عودتي من القداس؟ إنني أقضي برهة عند غوستاف و . . .

ـ بكل تأكيد، قالت السيدة روزاي . إذا كنت حرة يوم الأحد، فهل تريدين المجيء لمساعدتي؟ سوف نقيم أمسية .

ـ أمسية؟ تهاني . يا سيدة روزاي .

ولكن يظهر أنّ قولي هذا لم يعجب السيدة روزاي، التي نهضت بسرعة .

ـ سوف تساعدين في المطبخ، سيكون هناك عمل كثير . وإذا كنت تستطيعين الوصول منذ الساعة السابعة، فإن مدير الخدم عندي سيطلعك على ما هو مطلوب منك .

ـ بكل تأكيد، يا سيدة روزاي .

ـ إليك عنواني، هكذا قالت السيدة روزاي وهي تعطيني قطعة ورق مقوى سكرّية اللون وسألتني : ١٣٠٠ فرنك هل هي جيدة؟

ـ ١٣٠٠ فرنك!

ـ فلتكن ١٤٠٠ . سيكون بإمكانك الانصراف عند منتصف الليل، وسيكون لديك متسع من الوقت للحاق بآخر مترو . لقد قالت لي السيدة بوشامب انكِ كنت موضع ثقة حين عملت لديها .

ـ أوه! يا سيدة روزاي!

بعد ذهابها أحسست بالرغبة في الضحك حين فكرت في أنني كدت أقدم لها فنجان قهوة (لأجل هذا كان ينبغي أولاً العثور على فنجان غير مُشَقّق) . إنني أنسى أحياناً مع من أتكلم . وأنا لا أتصرف وأتكلم كخادمة إلاّ حين أكون في منزل بورجوازي . وفي منزلي لا أحس بأنني خادمة أي كان، ولا بد أن

fb/mashro3pdf

ذلك لأنني أحسب أنني ما زلت في بيتنا الصغير المؤلف من ثلاث غرف، حين كنا جورج وأنا نعمل في المصنع ولم نكن بعد في حالة عوز. . . وثم أيضاً لأنني لكثرة تأنيبي القطة المسكينة «مينوش» التي تبول تحت موقد الطبخ، اعتبر نفسي ربة منزل، مثل السيدة روزاي.

لحظة وصولي إلى أمام الشقة كدت أصاب بالحازوقة. وسارعت أقول: «عندي الحازوقة، الله أصابني بها. فليعش يسوع، لقد زالت عني». ودققت الجرس.

جاء رجل ذو سالفين رماديين، كما في المسرح، وفتح لي الباب، ودعاني للدخول. كانت شقة واسعة جداً، تشم منها تماماً رائحة الشمع[1].

السيد ذو السالفين الرماديين كان هو مدير الخدم، ومن جهته، كانت تفوح منه رائحة «صمغ جاوة».

- أخيراً! هكذا قال. وسارع لاصطحابي إلى رواق طويل يؤدي إلى غرفة الخدمة. وأضاف: في المرة القادمة، يجب أن تدقي على الباب الذي على اليسار.

- السيدة روزاي لم تقل لي شيئاً.

- وهل لدى السيدة الوقت للتفكير في هذه الأشياء؟! يا «آليس»، ها هي السيدة فرانسينيه. سوف تعطينها إحدى وزراتك.

وقادتني «آليس» إلى غرفتها، وراء المطبخ (ويا له من مطبخ!) وأعطتني وزرة كبيرة جداً. وقد كلفتها السيد روزاي بأن توضح لي ما علي أن أفعل لكنني في البدء لم أفهم شيئاً من قصة الكلاب هذه ورحت أنظر إلى أليس، والتؤلول التي تحت أنفها، وأنا أحملق بعينيّ. إن كل ما رأيته لدى اجتيازي المطبخ كان بديعاً جداً، ولامعاً جداً بحيث أن مجرد فكرة قضائي سهرتي هنا في تنظيف الأشياء البلورية وإعداد الأطباق الحاوية للأشياء الطيبة التي تؤكل

(١) الشمع الذي تشمع به أرضية المنزل. (المترجم).

fb/mashro3pdf

في هذه المنازل، كانت تروق لي أكثر بكثير من الذهاب إلى الريف أو إلى المسرح. وربما لأجل هذا لم أفهم على الفور قصة الكلاب هذه، ورحت أنظر إلى أليس ببلاهة.

ـ أجل! رددت أليس التي كانت بريتانية (كان هذا ظاهراً). هذا ما قالته السيدة.

ـ ولكن كيف؟ والسيد ذو السالفين الرماديين، ألا يستطيع أن يهتم بالكلاب، هو؟

ـ السيد رودولوس هو مدير الخدم، قالت أليس بلهجة احترام كبير.

ـ حسناً، إذا كان لا يستطيع، فليقم بذلك شخص آخر. ولا أفهم لماذا عليّ أنا أن أقوم بذلك.

وردّت أليس بوقاحة:

ـ ولماذا لا تقوم بذلك السيدة...؟

ـ ... فرانسينيه، في خدمتك.

ـ لماذا لا تقوم بذلك السيدة فرانسينيه؟ ليس هذا عملاً صعباً. وباستثناء «فيدو» الذي لا يطاق، لأن الآنسة لوسيني أساءت تربيته كثيراً...

كانت أليس الآن ناعمة مثل الجيلاتين.

ـ ما عليك إلاّ أن تحشيه بالسكاكر وأن تجلسيه على ركبتيك. إن السيد «بيبيه» يدلله كثيراً أيضاً حين يجيء، وهذا لا يصلح من أمر «فيدو»، أنت تفهمين جيداً... أمّا «ميدور» فهو لطيف وعاقل جداً وفيفين لن تتحرك من زاويتها.

قلت، وأنا لا أصدق: إذن، لا يوجد عدة كلاب؟

ـ نعم، يوجد عدة كلاب.

ـ في شقة واحدة! هكذا قلت دون أن أستطيع إخفاء استيائي.

fb/mashro3pdf

وأضفت: لا أدري ما رأيك في هذا، يا سيدة . . .

- بل آنسة . . .

- «أوه، المعذرة، ولكن على زماني، كانت الكلاب تعيش في حجرتها الخاصة بها وأنا أعرف هذا جيداً، بما أنه كان لنا، المرحوم زوجي وأنا، بيت صغير إلى جانب فيللا السيد . . .» لكن أليس لم تترك لي الوقت لأوضح لها. ولا يعني هذا أنها وجهت إليّ ملاحظة، لا، ولكن كان واضحاً أن صبرها قد نفد، وهذا الأمر أحسّه أنا فوراً عند الأشخاص. حينئذٍ لزمتُ الصمت وبدأت هي تقول لي إن السيدة روزاي تعبد الكلاب وأن السيد يستجيب لجميع نزواتها. ثم هناك أيضاً الآنسة لوسيني التي ورثت هوايات والدتها.

- الآنسة مجنونة بحب «فيدو» وهي بالتأكيد سوف تشتري كلبة من نفس الجنس للحصول على جراء. وليس عندنا سوى ستة كلاب كمجموع: ميدور، وفيفين، وفيدو، و «الصغيرة»، وشو، وهنيبعل. وأسوأهم، وبكثير، هو فيدو، لقد أساءت الآنسة لوسيني تربيته كثيراً. ألا تسمعين؟ إنه ينبح الآن في البهو، قدر ما يستطيع.

- وأين سوف أهتم بها؟ هكذا سألت بلهجتي الأكثر طبيعية. لم أكن أريد أن تعتقد أليس أنني متكدرة.

- سوف يدلك السيد رودولوس على حجرة الكلاب.

- «آه، هكذا، للكلاب حجرة» . . . قلت مجدداً بلهجتي الأكثر طبيعية. لم يكن الخطأ من أليس، في الأساس، لكنني كان يمكن أن أمنحها صفعتين بكل سرور. أجابت أليس: طبعاً لديها غرفتها. وتريد السيدة أن ينام كل كلب على فرشته، وقد رتبت لها حجرة خاصة تماماً بها. سوف يحضر لك كرسيًّا لكي تستطيعي مراقبتها دون أن تتعبي.

لبست الوزرة ورتبتها قدر ما أستطيع وعدنا إلى المطبخ. وفي هذه اللحظة بالضبط فتح باب آخر وظهرت السيدة روزاي. كانت في ثوب منزلي (روب دو شامبر) أزرق مطرز بالفرو الأبيض ووجهها مليء بالمرهم. كانت

fb/mashro3pdf

أشبه بقالب كاتو، أقول هذا دون أن أقصد إهانة أحد. لكنها أظهرت لطفاً كبيراً؛ كان ظاهرا أن وصولي يريحها من عبء كبير.

- آه يا سيدة فرانسينيه. لا شك في أن أليس قد أوضحت لك طبيعة عملك. وربما، في نهاية السهرة، سوف يطلب منك المساعدة في بعض الأشياء الصغيرة، تنظيف كؤوس أو في أمور أخرى لست أدري ما هي، لكن مهمتك الرئيسة ستقوم في حراسة كنوزي الغالية، جداً. إنها محبوبة جداً لكنها لا تستطيع أن تظل بمفردها، أي كل كلب بمفرده، كما لا تستطيع أن تظل معاً؛ فهي تتشاجر على الفور ولا أستطيع أن أتحمل فكرة أن يعض فيدو شوو أو أن ميدور... خفضت صوتها واقتربت قليلاً: سيكون عليك أن تراقبي «الصغيرة» على الأخص؛ وهي كلبة من جنس الـ «لولو»[1] من بوميرانيا، ذات عينين رائعتين. ولديّ انطباع.. أنه قد آن الأوان بالنسبة لـ «الصغيرة...»... ولا أريد أن يقوم ميدور أو فيدو... هل تفهمينني؟ سوف أرسلها غداً إلى منزلنا الريفي ولكن حتى ذلك الحين أحرص على أن تُحْرَس، أن تراقَب، ولا أستطيع أن أضعها في مكان آخر، هذا المساء. يا لكنزي المسكين، إنها ودودة جداً وملأى بالعاطفة والحب! وهي لا تحب أن تفارقني لحظة طوال السهرة. وسترين، إن هذه الكلاب لن تسبب لك أية مشكلة، بل بالعكس، فسوف تتسلين كثيراً، فهي ذكية جداً. وسآتي مرة أو مرتين لأرى إذا كان كل شيء على ما يرام.

فهمت أن هذا ليس تلطفاً بل هو تحذير بالأصح، رغم أن السيدة روزاي استمرت تبتسم تحت مرهمها الذي كانت تفوح منه رائحة الأزهار.

- وستأتي ابنتي لوسيني لرؤيتها أيضاً، بالطبع. وهي لا تستطيع مفارقة صديقها الحبيب «فيدو». بل إنها تنام معه، تصوري...

لكن هذا، كان لا بد أن السيدة روزاي تقوله لشخص خيالي، ذلك أنها

---

(١) لولو Loulou كلب صغير ذو وبر طويل. (المترجم).

fb/mashro3pdf

استدارت واختفت كانت أليس، المستندة إلى الطاولة، تنظر إلي بصورة بلهاء. أنا لست معتادة على اغتياب الناس، لكنها كانت تنظر إلي بصورة بلهاء.

وسألت أنا: في أية ساعة تبدأ الحفلة؟ ودونما قصد، رحت أتكلم مثل السيدة روزاي، بطريقتها هذه في طرح الأسئلة بعض الشيء إلى جانب الشخص، وكأنها تكلِّم مشجباً أو باباً.

قالت أليس: الحفلة ستبدأ بعد قليل.

والسيد رودولوس، الذي دخل في تلك اللحظة، أضاف بلهجة مهمة: نعم، إنهم لن يتأخروا. وأشار إلى أليس بأن تهتم بالأطباق الفضية الجميلة. وأضاف: إن السيد بيبيه والسيد فريجوس قد وصلا، وهما يريدان كأسي كوكتيل.

- هذان الرجلان يصلان دائماً قبل الموعد. وعلى هذا النحو يشربان أكثر قليلاً من الجميع... حسناً، يا سيدة فرانسينيه، أعتقد أنني أوضحت لك كل شيء. وسأقودك الآن إلى حجرة الكلاب. إن السيد رب المنزل والسيد بيبيه يلاعبانها في هذه اللحظة.

وعلى هذا النحو وجدت نفسي جالسة على مقعد قديم من طراز «لويس الخامس عشر» (لوي كانز)، تماماً في وسط غرفة واسعة ملأى بالفرشات الممدودة على الأرض؛ وفي إحدى الزوايا كان كوخ صغير ذو سقف من القش، مثل كوخ الزنوج، إنه نزوة من نزوات الآنسة لوسيني خصت بها صديقها فيدو، هكذا أوضح لي السيد رودولوس. وعلى طول جدار، كان صف من القصاع الملأى بالماء والطعام. وكانت اللمبة الكهربائية الوحيدة تتدلى فوق رأسي بالضبط وهي قليلة الإنارة.

قلت للسيد رودولوس أنني بمثل هذه الإنارة معرضة لأن أنام.

- أوه! إنك لن تنامي، يا سيدة فرانسينيه! هكذا أجابني. الكلاب لطيفة

fb/mashro3pdf

جداً لكنها سيئة التربية جداً وسيكون عليك أن تهتمي بها باستمرار ودون توقف. انتظريني لحظة.

حين أقفل الباب وأصبحت وحدي، جالسة وسط هذه الحجرة الغريبة جداً التي تفوح منها رائحة الكلاب (الكلاب النظيفة، والحق يقال) أحسست قليلاً بالانزعاج؛ كان يخيل إليّ أنني أحلم، لا سيما مع هذا الضوء الأصفر فوقي، والصمت. صحيح أن الوقت سيمضي بسرعة، وأن الأمر لن يكون مزعجاً جداً، على كل حال، ولكن كان يبدو لي مع ذلك أن شيئاً ما، ليس على ما يرام. ولم يكن ذلك بالضبط أنني أُحضرت لأجل هذا العمل دون إبلاغي مسبقاً، بل ربما كان ذلك لأنه عمل غريب، أو في الأساس، بكل بساطة، لأنني كنت أرى إنه غير مناسب، كانت أرضية الحجرة تلمع، مرآةً حقيقية! لا بد أن الكلاب تقضي حاجتها في مكان آخر، إذ لم تكن هناك رائحة، (باستثناء رائحة الكلاب، بالطبع، لكنني اعتدت عليها أخيراً)، لا، الأمر الأسوأ هو أنني كنت هنا، وحدي، وأن أنتظر، بحيث أنني استقبلت الآنسة لوسيني بسرور تقريباً؛ كانت تحمل فيدو بين ذراعيها، وهو كلب من نوع «بكيني»[1] فظيع الشكل (لا أستطيع أن أطيق الكلاب البكينية) وكان السيد رودولوس يتبعها داعياً بصيحات كبيرة جميع الكلاب الأخرى. كانت الآنسة لوسيني جميلة جداً، بيضاء ناصعة البياض، وفستانها أيضاً، أبيض رائع، وشعرها أشقر رمادي، ينسدل على كتفيها. قبلَتْ الآنسة لوسيني فيدو وداعبته طويلاً دون أن تهتم بالكلاب الأخرى التي راحت تشرب أو تلعب، منذ أوّل دخولها ـ أي الكلاب ـ إلى الحجرة، ثم اقتربت الفتاة مني ونظرت إليّ لأوّل مرة. قالت: هل أنت التي ستهتمين بها؟ كان صوتها حاداً بعض الشيء، لكنها كانت جميلة، ولا يمكن أن يقال العكس.

ـ السيدة فرانسينيه، في خدمتك. هكذا قلت وأنا أحني رأسي.

ـ إن فيدو هو رقيق جداً. خذيه. نعم، بين ذراعيك. إنه لن يلوثك،

(١) البكيني أو كلب بكين Pekinois هو كلب صغير ذو شعر طويل. (المترجم).

fb/mashro3pdf

فأنا أحممه كل صباح. وكما قلت لك، إنه رقيق جداً. ولا أريد أن يختلط بهؤلاء. واسقيه ماء، بين حين وآخر.

وتجمع الكلب بهدوء تام في كرة على ركبتي، لكن هذا مع ذلك، كان يثير قرفي قليلاً. اقترب منه كلب دانمركي[1] ضخم مليء الجسم بلطخات سوداء وأخذ يشمّه كما تفعل الكلاب! حينئذٍ أطلقت الآنسة لوسيني صيحة ورفسته ـ الكلب الدانمركي ـ برجلها.

ظل السيد رودولوس في زاويته، جامداً متصلباً كالعدالة، وكان واضحاً أنه اعتاد هذه المشاهد.

صاحت الآنسة لوسيني: ها أنت ترين، ها أنت ترين! هذا ما يجب الحيلولة دونه بأي ثمن. لقد أوضحت لك أمي جيداً، أليس كذلك؟ عليك أن تحتفظي بفيدو على ركبتيك حتى نهاية السهرة، وأن لا تغادري الحجرة أبداً. فإذا أحس فيدو بالشقاء وأخذ يبكي، فإن هذا[2] سيأتي لإبلاغي.

وانصرفْت دون أن تنظر إليّ ولكن بعد أن أخذت مجدداً للمرة الأخيرة «البكيني» بين ذراعيها وقبلته إلى أن جعلته يئن.

ـ الكلاب لطيفة جداً، يا سيدة فرانسينيه. سوف ترين. وعلى كل حال، فإذا وجدت صعوبة ما، دقي الباب وسأحضر، هكذا قال لي مدير الخدم.

«ولا تحملي هماً» أضاف هذا وكأن هذه الفكرة الأخيرة خطرت له في آخر لحظة، وأغلق الباب وراءه بكثير من الاحتراس. بل إنني تساءلت إن لم يكن قد أقفله بالمفتاح، لكنني قاومت الرغبة في الذهاب لأتحقق من ذلك، لأنني كنت سأشعر بانزعاج أكثر بعد ذلك.

لم يكن من الصعب جداً في الحقيقة الاهتمام بهذه الكلاب. لم تكن

---

(١) الدانمركي Danois كلب قصير الوبر كبير الجسم. (المترجم).
(٢) تقصد مدير الخدم السيد فيدولوس. (المترجم).

fb/mashro3pdf

تتشاجر وما قالته السيدة روزاي عن «الصغيرة» لم يكن صحيحاً على الإطلاق. بالطبع، ما كاد الباب يقفل، حتى تركت البكيني الفظيع يتمرغ كما يشاء مع الكلاب الأخرى. كان أسوأها جميعاً، دائماً يسعى إلى الخصام ويبحث عن سبب ليحدث المشاكل؛ ولحسن الحظ، كانت الكلاب الأخرى صبورة، بل كنت أراها وهي تدعوه إلى اللعب، وبين حين وآخر، كانت الكلاب تشرب أو تأكل اللحم الجيد الموجود في القِصاع. ما كان يجدر بي أن أقول ما يلي، لكن رؤية هذا اللحم الجيد في القصاع كانت تقريباً تسبب لي الجوع.

أحياناً كان يسمع ضحك شخص ما، بعيداً جداً؛ وبدا لي أيضاً سماع عزف بيانو، ولكن ربما كان هذا آتياً من شقة مجاورة. كنت أجد الوقت طويلاً، على الأخص بسبب هذه اللمبة المتدلية من السقف والتي كانت ضئيلة الإنارة. ونام اربعة من الكلاب بسرعة، ولعب فيدو وفيفين (لا أعرف بالضبط إذا كانت هي فيفين ولكن يبدو لي أنها هي) معاً فترة، في عض أحدهما الآخر عضات خفيفة في الآذان، ثم شربا معاً ملء قصعة من الماء ثم رقدا أحدهما مقابل الآخر على إحدى الفرشات. كان يبدو لي أحياناً أنني أسمع وقع خطى، في الرواق وكنت أسارع وأحمل فيدو بين ذراعي، خوفاً من أن تكون الآنسة لوسيني قادمة. ولكن لم يجيء أحد، وانتهى بي الأمر إلى أن نمت نصف نوم على كرسيّ، بل كانت لدي رغبة تقريباً في إطفاء الضوء والنوم جدياً على إحدى الفرشات.

وقد سررت كثيراً مع ذلك حين جاءت أليس إليّ. كان وجهها شديد الحمرة، وكان ظاهراً أن الحفلة وكل ما أمكن أن يرووه في المطبخ قد هيجها بشدة.

قالت: يا سيدة فرانسينيه. أنت آية من الروعة. سوف تسر السيدة كثيراً وسوف تستدعيك في كل السهرات المقبلة. والمرأة التي جاءت في المرة الماضية لم تنجح في جعلها (تقصد الكلاب) تحافظ على هدوئها، واضطرت الآنسة لوسيني أن تنزعج مرتين لأجل تهدئة الكلاب. انظري كيف هي ترقد في هدوء!

fb/mashro3pdf

- هل انصرف فعلاً المدعوون؟ هكذا سألت أنا وقد اخجلتني كل تلك المجاملات بعض الشيء.

- المدعوون، نعم، انصرفوا، ولكن هناك من يعتبرون من أهل المنزل وهم ما زالوا ساهرين... الجميع شربوا كثيراً، هذا المساء، يمكنك أن تصدقيني. وحتى السيّد، الذي عادةً لا يشرب أبداً في المنزل، قد جاء وهو في غاية السرور إلى المطبخ، ومازحنا كثيراً، أنا وجينيت، وأعطى كلاً منا خمسمئة فرنك، وأعتقد أنهم سيعطونك شيئاً ما، أنت أيضاً. إن الآنسة لوسيني ما زالت ترقص مع خطيبها، والسيد بيبيه وأصدقاؤه يلعبون لعبة التنكّر.

- إذن، هل يجب أن أبقى أيضاً؟

- لا، لقد قالت السيدة إنه يمكن إطلاق الكلاب حين يكون النائب والآخرون قد انصرفوا، إنهم يحبون كثيراً أن يلعبوا معها في الصالون. سآخذ فيدو، وبوسعك أن تتبعيني. تبعتها؛ كنت أقف بصعوبة على رجلّي من التعب لكنني كنت أرغب في أن أرى شيئاً من الحفلة حتى ولو كان ذلك الكؤوس والصحون في المطبخ. ورأيت كؤوساً وصحوناً، كانت هناك جبال منها مكومة في جميع الزوايا، وزجاجات الشمبانيا والويسكي، التي لم تكن بعضها فارغة كلياً. كانت ثمة أنابيب من النور الأزرق في السقف، وهذا النور على جميع خزائن الحائط وعلى هذه الرفوف الجدارية حيث تلمع الملاعق والسكاكين والشُوَك والطناجر، كان كل هذا يبهرني، كانت «الجينيت» فتاة قصيرة حمراء الشعر، متهيّجة جداً، هي أيضاً، وكانت هيئتها ماجنةً بصورة كافية مثل أغلب بنات اليوم.

- هل الأمر مستمر؟ هكذا سألتها أليس بإيماءة من ذقنها نحو الباب.

- نعم! أجابت جينيت وهي تتلوى. هل هذه هي السيدة التي حرست الكلاب؟

كنت عطشى وجائعة، لكنهم لم يقدموا لي أي شيء، ولا حتى كرسياً

fb/mashro3pdf

لأجلس. كانتا منشغلتين جداً بكل ما شاهدتاه وهما تخدمان على المائدة أو لدى أخذهما المعاطف إلى حجرة الملابس، دق جرس، فانطلقت أليس راكضة وهي تحمل البكيني بين ذراعيها. ومر السيد رودولوس دون أن ينظر إليّ، تتبعه الكلاب الخمسة التي كانت محتفية به لأنه كان يحمل لها في يده قطع السكر. استندت إلى الطاولة الكبيرة محاولة أن لا أنظر إلى جينيت التي ما أن عادت أليس، حتى أخذت تتحدث عن السيد بيبيه وعن عمليات التنكر، وعن السيد فريجوس، وعن عازفة البيانو التي لها هيئة مصابة بالسل، وعن الآنسة لوسيني التي تشاجرت مع والدها. وأمسكت جينيت بزجاجة خمر ما زالت نصف ملأى ورفعتها إلى شفتيها بحركة فظة إلى حد لم أصدق عيني وما عدت أعرف أين أنظر. وأسوأ من ذلك هو أنها أعطتها بعد ذلك للفتاة حمراء الشعر التي أفرغتها وكأنّ شيئاً لم يكن. وكانتا تضحكان كلتاهما وكأنهما نصف ثملتين. ولهذا السبب بلا شك لم تكونا تفكران في أنني يمكن أن أكون جائعة، وعلى الأخص عطشى. وكانتا سوف تلاحظان ذلك لو أنهما كانتا تملكان كامل صوابهما. ليس الناس خبثاء ولا أشرار، وكل مواقف السفاهة أو الفظاظة التي يرتكبونها فذلك لأنهم كانوا يفكرون في شيء آخر؛ الأمر هكذا في الأوتوبيس وفي المخازن، وفي المكتب.

رنّ الجرس مجدداً وذهبت الفتاتان راكضتين. كانت تسمع قهقهات ضحك كبيرة وعزف بيانو بين حين وآخر. وما كنت أفهم لماذا يدعونني أنتظر على هذا النحو. ما كان عليهم إلاّ أن يدفعوا لي أجري ويتركوني أنصرف بأسرع ما يمكن. جلست على كرسي وأسندت مرفقيّ إلى الطاولة. ما عاد بوسعي إبقاء عيني مفتوحتين ولم أسمع حتى حين دخل أحدهم إلى المطبخ. إنه صوت كأس وصفير ناعم جداً جعلني ألتفت.

ـ أوه، المعذرة، يا سيدي، هكذا قلت وأنا أنهض واقفة ـ ما كنت أعرف أنك هنا. قال السيد الذي كان شاباً تماماً: أنا لست هنا، أنا لست هنا، لولو تعال وانظر.

fb/mashro3pdf

كان يترنح قليلاً ويستند إلى الرفوف الجدارية، وملأ كأساً بمشروب أبيض وأخذ ينظر إليه في الضوء وكأنه يحذر منه. ونظراً لأن لولو لم يظهر، اقترب السيد الشاب وطلب مني الجلوس. كان أشقر، شديد الشحوب، وكل ملابسه بيضاء. وحين لاحظت أن جميع ملابسه بيضاء في إبان الشتاء، تساءلت إن كنت لا أحلم. ولا أقول هذا كطريقة للتعبير فقط؛ إنني حين أرى شيئاً غريباً أتساءل دائماً إذا لم أكن حقاً في سياق حلم. وهذا ممكن تماماً، بعد كل شيء، بما أنني أحلم أحياناً بأشياء غريبة. لكن هذا السيد كان هنا، في مواجهتي، وكان يبتسم بهيئة تَعِبَة ومشمئزة قليلاً. كان يؤلمني أن أراه شاحباً إلى هذا الحد.

ـ أنت ولا شك التي اهتممت بالكلاب؟ هكذا قال، وجعل يشرب.

قلت: السيدة فرانسينيه، في خدمتك. كان لطيفاً جداً بحيث أنه لم يثر تَهَيُّبي اطلاقاً. بل بالعكس، فقد أحسست برغبة في أن أكون نافعة له، وأن أوليه اهتماماتي. والتفت مجدداً نحو الباب المنفرج:

ـ لولو! هل ستأتي؟ يوجد فودكا هنا. هل بكيت!، يا سيدة فارنسينيه؟

ـ أوه، كلا يا سَيِّدي. لا بد أنني تثاءبت قبل أن تصل. لقد تعبت قليلاً، إن الضوء في حجرة الـ... في الحجرة الأخرى، لم يكن جيداً جداً. وحين يتثاءب المرء...

ـ تدمع عيناه، قال. كانت أسنانه ممتازة، ويداه الأشد بياضاً ـ من كل ما رأيت عند رجل. نهض قافزاً وتقدم نحو شاب آخر كان داخلاً وهو يترنّح.

قال له موضحاً: هذه السيّدة هي التي خلّصتنا من تلك الحيوانات الصغيرة، الشنيعة. الق تحية المساء على السيدة، يا لولو.

نهضتُ مجدداً وسلّمت مجدداً. لكن السيّد الذي دعى لولو لم يكن ينظر إلي. لقد وجد زجاجة شمبانيا في البراد، وكان يحاول نزع سدادة الزجاجة. وتقدم الشاب ذو الملابس البيضاء لمساعدته، وجعل الاثنان يضحكان وهما يجرّران الزجاجة في جميع الاتجاهات. ولكن حين يضحك الشخص يفقد

fb/mashro3pdf

قوته، وهكذا لم يستطع أحد منهما فتح الزجاجة. وحينئذٍ أرادا أن يجربا القيام بذلك معاً، وبعد أن بذلا جهداً كبيراً انتهى بهما الأمر إلى الارتماء أحدهما على الآخر، ميتين من الضحك ودائماً دون فتح الزجاجة. كان السيد لولو يقول: «يا بيبيه، يا بيبيه، أرجوك، لنذهب الآن». لكن السيد بيبيه كان يضحك بشدة متزايدة، ويدفع الآخر ضاحكاً؛ وفجأة انفتحت الزجاجة وغمرت دفقة كبيرة من الزَبَد وجه السيد لولو الذي أطلق كلمة ضخمة، وراح يدور على نفسه وهو يفرك عينيه.

- يا عزيزي المسكين، أنت سكران جداً. قال السيد بيبيه وهو يدفعه بظهره لإخراجه. «اذهب لمرافقة نينا المسكينة التي هي حزينة جداً...» وكان يضحك، ولكن بضحكة مغتصَبة هذه المرة.

التفت نحوي ووجدته أكثر لطفاً وجاذبية من أي وقت مضى. كان لديه عرّة[1] تجعله يرفع قليلاً أحد حاجبيه. رفع حاجبه ثلاث مرات متتالية وهو ينظر إليّ.

- مسكينة السيدة فرانسينيه. قال وهو يمسح رأسي بيده في لطف، وأضاف: لقد تركت وحيدة وقد نسوا بالتأكيد إعطاءك مشروباً.

أجبت: إنهم سيأتون بعد قليل ولا شك ليقولوا لي إن بوسعي العودة إلى منزلي، يا سيدي. ولم يضايقني إطلاقاً أنه يداعب شعري.

- إنك تستطيعين العودة، تستطيعين العودة... ما حاجتك لانتظار الإذن لتفعلي ما تريدين؟ هكذا قال السيد بيبيه وهو يجلس في مواجهتي. ورفع كأسه لكنه سرعان ما وضعها وذهب وأحضر كأساً نظيفة ملأها بمشروب بلون الشاي:

- يا سيدة فرانسينيه، سوف نشرب معاً، قال وهو يمد نحوي الكأس. إنك تحبين الويسكي، بكل تأكيد.

---

(١) عرة tic : تشنج عضلي خفيف في موضع من الوجه. (المترجم).

fb/mashro3pdf

قلت مرتبكة تماماً: يا إلهي! باستثناء النبيذ وكأس صغيرة من البرنو يوم السبت عند غوستاف، فإنني لا أعرف، يا سيدي، ما هو الشرب.

- ألم تشربي الويسكي أبداً، في الحقيقة؟ قال السيد بيبيه مندهشاً جداً. حاولي جرعة. جرعة واحدة، سترين، هذا لذيذ جداً. هيا يا سيدة فرانسينيه، الشجاعة! الجرعة الأولى وحدها هي الصعبة... وراح يلقي قصيدة لا أتذكرها وهي تتحدث عن ملاحين ما عدت أعرف كثيراً أين. شربت جرعة ويسكي ووجدته معطراً جداً بحيث شربت جرعة أخرى ثم أخرى أيضاً. كان السيد بيبيه يتذوق فودكاه وينظر إليّ، بهيئة المفتون.

- إنه لمتعة الشرب معك، يا سيدة فرانسينيه. يا لهذا الحظ أن لا تكوني شابة، يمكن أن نكون أصدقاءك: يكفي النظر إليك لنحزر أنك طيبة، مثل خالة من الريف، مثل شخص يمكن تدليله ويستطيع تدليلك، ولكن بدون محذور، بدون محذور... خذي نينا، مثلاً لديها خالة في «البواتو»[1]. ترسل إليها فراريج، وسلالاً من الخضار، بل وحتى العسل.. أليس هذا رائعاً؟

- بلى، في الواقع يا سيدي. أجبت تاركة إياه يملأ كأسي مجدداً بما أن هذا كان يسره. وأضفت قائلة: إنه يروق دائماً لك أن يكون لديك شخص يسهر عليك، على الأخص حين يكون المرء شاباً مثلك. وحين يكون الشخص مسنا، فإنه يضطر إلى أن يسهر عليه نفسه بذاته، لأنّ الآخرين...

- اشربي قليلاً أيضاً، يا سيدة فرانسينيه. إن خالة نينا بعيدة وهي تكتفي بإرسال فراريج. إنها لا تجازف بأن تواجه مشاكل عائلية...

كان رأسي في دوار بحيث أنه كان سيان الآن بالنسبة لي أن أفكر في أن السيد رودولوس يمكن أن يدخل إلى المطبخ ويجدني أتحدث إلى أحد المدعوين. كان يفتنني أن أنظر إلى السيد بيبيه، وأن أسمع ضحكته الحادة

---

(١) البواتو le Poitou : مقاطعة فرنسية قديمة، (في الوسط الغربي من فرنسا). عاصمتها بواتييه. (المترجم).

fb/mashro3pdf

جداً، لا شك لأنه كان ثملاً. وهو، كان يحب أن أنظر إليه، وإن كان قد بدا عليه في البدء أنه حذر بعض الشيء، ولكن بعد ذلك، لم يكن يفعل سوى الابتسام والشرب وهو ينظر إليّ. كنت أعلم أنه سكران بصورة فظيعة، فأليس قالت لي انه لم يتوقف عن الشرب، ثم كان يكفي النظر إلى كيفية لمعان عينيه. ولو لم يكن سكران كلياً لما جاء إلى المطبخ للتحدث إلى عجوز مثلي! لكن الآخرين أيضاً كانوا سكارى، ومع ذلك كان السيد بيبيه هو الوحيد الذي اهتم بي، الوحيد الذي أعطاني مشروباً وداعب شعري، وإن كان هذا ليس عملاً مناسباً. ولهذا كنت أحس نفسي مسرورة قربه وأنظر إليه أيضاً وأيضاً، وهو، كان يحب أن يُنْظَر إليه؛ مرة أو مرتين اتخذ وضعاً جانبياً. وكان له أنف جميل جداً، مثل تمثال. كان تمثالاً من أخمص القدمين حتى نقرة الرأس، وعلى كل حال على الأخص بهذه البذلة البيضاء. وحتى ما كان يشربه كان أبيض، وكان شديد الشحوب بحيث يخيفني بعض الشيء. كان ظاهراً تماماً أنه كان يقضي حياته في شقق مثل كثير من الشبان اليوم. كنت أحب أن أقول له ذلك، ولكن من أكون أنا، لإعطاء النصائح لسيد مثله، ثم إن الوقت لم يسمح لي بذلك، إذ سمعتْ ضربة شديدة على الباب ودخل السيد لولو، يجره الكلب الدانمركي الضخم الذي ربطه السيد لولو بستارة فتلت مثل حبل. وكان أكثر سكراً من السيد بيبيه بكثير، وكاد ـ السيد لولو ـ يسقط حين استدار الدانمركي وطوق ساقي الشاب بالستارة المفتولة. وكانت تسمع جَلَبة أصوات في الرواق، ودخل شاب رمادي الشعر لا بد أنه السيد روزاي، تتبعه السيدة روزاي، وشاب طويل القامة ونحيف، ذو شعر أسود لم أر أبداً مثيلاً له من قبل. كانوا يحاولون تحرير السيد لولو الذي كان يلتف أكثر فأكثر في ستارته، مطلقاً صيحات قوية وضحكات كبيرة. ولم يعد أحد يوليني انتباهاً، ولكن السيدة روزاي لاحظتني فجأة واستعادت جديتها دفعة واحدة. لم أستطع سماع ما كانت تقوله للسيد الرمادي الشعر لكنه نظر إلى كأسي (الفارغة لكن الزجاجة كانت قربي) ثم إلى السيد بيبيه وهي تقوم بحركة استياء وسخط. أجابها السيد بيبيه بغمزة وانقلب على كرسيه مستغرقاً في ضحك صاخب.

fb/mashro3pdf

وأنا كنت مرتبكة جداً واعتقدت أنني أحسنت صنعاً بالنهوض مع احناءة لرأسي قبل أن أختفي في زاوية . غادرت السيدة روزاي المطبخ ، وسرعان ما ظهرت أليس والسيد رودولوس وطلباً إلي أن أتبعهما. حييت مجدداً الجميع لكنني أعتقد أن أحداً لم ير ذلك، ذلك لأنهم كانوا منشغلين جداً في تهدئة السيد لولو الذي انخرط فجأة في البكاء وأخذ يقول أشياء غير مفهومة وهو يشير إلى السيد بيبيه باصبعه . وآخر شيء أتذكره هو ضحك السيد بيبيه المنقلب على كرسيه .

انتظرت أليس حتى نزعت وزرتي وأعطاني السيد رودولوس ١٤٠٠ فرنك، وفي الخارج كان الثلج يتساقط وكان المترو الأخير قد مر منذ وقت طويلة. وتوجب علي أن أمشي أكثر من ساعة للوصول إلى بيتي لكن الويسكي كان يبقيني دافئة وأيضاً ذكرى هذه السهرة هذه اللحظة الطيبة التي قضيتها في المطبخ مع السيد بيبيه .

المرء لا يرى مرور الزمن، كما يقول غوستاف. ويعتقد الإنسان أن اليوم هو الاثنين ويكون في الحقيقة هو الخميس . الشتاء يشارف نهايته وفجأة جاء الصيف في إبّانه . وفي كل مرة يأتي روبير ليسألني ما إذا كانت مدخنتي بحاجة لتنظيف (إنه لطيف جداً، روبير، فهو يتقاضاني دائماً نصف ما يتقاضاه من المستأجرين الآخرين) أفكر: الشتاء ليس بعيداً. كل هذا لكي أقول إنني لا أتذكر بالضبط كم من الوقت مضى منذ الحفلة حين رأيت في مساء أحد الأيام مجيء السيد روزاي . جاء عند هبوط الليل، تقريباً في نفس موعد مجيء السيدة روزاي في المرة السابقة. وهو أيضاً بدأ كلامه بقوله لي إنه جاء بناء لتوصية من السيّدة بوشامب، وبعد ذلك جلس وقد بدا عليه الضيق . ما من أحد يحس براحة في بيتي، حتى ولا أنا حين أستقبل أشخاصاً لا أعرفهم جيداً . أحك يديّ كأنهما وسختان، ثم أحسب أن الآخرين سيعتقدون أنهما حقاً وسختان، ولا أعود أعرف أين أجلس. ولحسن الحظ، هذه المرة، كان السيد روزاي مرتبكاً مثلي، وإن كان يخفي ذلك بصورة أفضل . كان يضرب بين حين وآخر أرضية الغرفة بعصاه ـ وهذا كان يثير خوفاً شديداً لدى قطي

fb/mashro3pdf

«مينوش» ـ وكان نظره يتوقف قليلاً عند كل مكان ولكن ليس أبداً عندي. ما عدت أعرف ماذا أفعل، وكانت هذه أوّل مرة أرى فيها سيداً يرتبك على هذا النحو أمامي، وما عدت أعرف إطلاقاً ماذا يجب فعله في مثل هذه الحالات، ربما أن أقدم له فنجاناً من الشاي . . .

قال بنفاد صبر: لا، لا، لقد كلفتني زوجتي . . . أنت تذكرينني، بالتأكيد . . .

ـ وكيف لا، يا سيد روزاي! تلك السهرة عندكم، الناجحة جداً، مع كل أولئك المدعوين . . .

ـ أجل، تلك السهرة، بالضبط . . . أقصد زيارتي لا علاقة لها بتلك السهرة لكنك قدمت لنا خدمة كبيرة في ذلك المساء، يا سيدة . . .

ـ السيدة فرانسينيه، في خدمتك.

ـ السيدة فرانسينيه، أجل هذا. لقد اعتقدت زوجتي . . . أخيراً، إنها مسألة دقيقة جاءت بي إليك. لكنني أريد قبل كل شيء أن أطمئنك. إن ما سأعرضه عليك ليس . . . كيف أقول . . . ليس مخالفاً للقانون.

ـ مخالفاً للقانون، يا سيد روزاي؟

ـ أوه! أنت تعلمين، في العهد الذي نعيش فيه . . . لكنني أكرر لك هذا، إن الأمر يتعلق بمسألة دقيقة ولكن مضبوطة تماماً. إن زوجتي مطلعة على قراراتنا وهي قد أعطت موافقتها. أقول لك هذا لكي أطمئنك تماماً.

ـ إذا كانت السيدة روزاي موافقة، إذن فأنا مطمئنة تماماً، هكذا قلت، فقط لكي أريحه ـ في الأساس لم أكن أعرف هذه السيدة روزاي وأنا بالأصح لم أستلطفها.

ـ باختصار، الوضع هو التالي، يا سيدة . . . فرانسينيه، نعم، بالضبط، السيدة فرانسينيه. إن أحد أصدقائنا . . . إحدى معارفنا بالأصح، قد توفي في ظروف خاصة جداً.

fb/mashro3pdf

- أوه! يا سيد روزاي، أقدم لك كل تعازيّ.

- شكراً، قال السيد روزاي، وظهرت على وجهه تكشيرة غريبة، كان يخيل إليّ أنه سيصرخ لشدة الغضب أو يأخذ في البكاء، إنها تكشيرة مجنون حقيقية، ولم أكن مطمئنة. وكان الباب، لحسن الحظ، مفتوحاً نصف فتحة، ومشغل فريسناي موجود على مقربة.

- إذاً، فهذا السيد... الأمر يتعلق بخياط شهير... كان يعيش وحيداً، لم يكن له أحد غير أصدقائه؛ أمّا الزبائن، وتفهمين هذا جيداً، فلا يحسب حسابهم فيْ مثل هذه الحالات. حسناً، ولأجل أسباب عديدة يطول شرحها، فكرنا، نحن أصدقاءه، إنه سيكون من الأفضل، ساعة الدفن...

كم كان السيد روزاي يتكلم بصورة جيدة! كان يختار كل كلمة، ويؤكد عليها بضربة صغيرة من عصاه، دون أن ينظر إليّ أبداً. كان يبدو لي أنني أسمع مذيع الراديو، لكن السيد روزاي، من جهته، كان يتكلم بصورة أبطأ. ثم كان يمكن أن نرى أنه لا يقرأ ما يقوله. وهذا كان يزيد استحقاقه. كنت مفعمة بالإعجاب إلى حد أنني نسيت ارتباكي وقربت كرسيّ قليلاً من كرسي السيد روزاي. كان يدفيء حنايايَ، إذا صح التعبير، ان سيداً بهذه الأهمية جاء يطلب مني خدمة، وأخذت أفرك يدي دون انتباه.

- لقد بدا لنا، كأن السيد روزاي يقول، ان احتفال تشييع ودفن لا يحضره سوى أصدقاء، سيكون بعض الشيء... باختصار، ان هذا لن تكون له الأهمية ولا المهابة المطلوبتان في مثل هذه الحالة. وهو، في الوقت نفسه، وعلى هذا النحو، لن يعبر عن الحزن العام (تلك هي كلماته بالذات) الذي سببها فقدانه... هل تفهمينني؟ وقد رأينا أنك لو أثبتّ حضورك في السهرة على الميت، وفي احتفال الدفن، طبعاً بصفتك... لنقلْ قريبة المرحوم لحًّا... هل فهمت ما أعني؟ قريبة لحاً... لنقل خالته مثلاً... ولماذا، حتى، يجب أن نتجاسر على ذلك...

---

(١) لحًّا: أي لازم النسب أو القرابة (قريبي «لزم» كما نقول بالعامية). (المترجم).

fb/mashro3pdf

- ماذا، يا سيّد روزاي؟ هكذا قلت وأنا في ذروة الاندهاش.

- كل هذا يتوقف عليك، طبعاً... ولكن إذا تلقيت مكافأة مناسبة... لأنه لا يمكن، طبعاً، أن تزعجي نفسك مقابل لا شيء. فإذا ناسبتك المكافأة، أليس كذلك يا سيدة فرانسينيه، (وسوف نتحدث عن ذلك بعد قليل)، بدا لنا أنك سوف تستطيعين أن تحضري عملية الدفن بصفتك، لنقلْ أم المرحوم، أنت تفهمينني. اتركيني أشرح لك الأمر جيداً... الأم التي أبلغت بالوفاة والتي تصل من مقاطعة النورماندي لتشييع ولدها إلى مرقده الأخير. لا، لا، لا تجيبيني على الفور... وقد اعتقدت زوجتي أنك ربما ستقبلين مساعدتنا، بدافع الصداقة... وفكرت من جانبي، في أن أقدم لك عشرين ألف فرنك فهل سيكون الأمر جيداً هكذا، يا سيدة فرانسينيه؟ عشرون ألف فرنك للتعويض عليك... ستة آلاف فرنك الآن، والباقي عند الخروج من المقبرة، حين...

فتحت فمي - أو بالأصح أنه انفتح وحده - لكن السيد روزاي لم يترك لي وقتاً للكلام. كان شديد الاحمرار ويتكلم بسرعة كبيرة وكأنه يريد أن ينتهي من المسألة بأسرع ما يمكن.

- فإذا كنت تقبلين، يا سيدة فرانسينيه... وهذا ما آمله، بما أنك تريدين تماماً مساعدتنا، واننا لا نطلب منك أي شيء غير قانوني، بالإجمال... في هذه الحالة، فإن زوجتي ووصيفتها ستزورانك بعد نصف ساعة مع الملابس المناسبة... وسيارة، بالطبع، لكي تقلك إلى... طبعاً، سيلزم، كيف أقول، سيلزم أن تألفي فكرة أنك أم المرحوم... وعلى كل حال، فإن زوجتي ستقول لك كل ما سيكون عليك فعله. وأنت، بكل تأكيد، حين تكونين هناك، سيكون عليك أن تعطي الانطباع... الألم، واليأس، أنت تفهمينني. على الأخص بالنسبة للزبائن. أضاف، وأمامنا، سيكفيك أن تلزمي الصمت.

ظهرت كدسة من الأوراق المالية الجديدة في يده، وما زلت أتساءل

fb/mashro3pdf

كيف، وأريد أن أشنق إذا كنت أعرف كيف أصبحت هذه الكدسة في يدي فجأة. نهض السيد روزاي وانصرف وهو يهمهم، ناسياً أن يغلق الباب، مثل جميع الذين يأتون لزيارتي.

سوف يغفر لي الله جميع هذه الأشياء وأشياء كثيرة أخرى أيضاً، أنا أعرف هذا. لم تكن المسألة جيدة، لكن السيد روزاي أكد لي أن الأمر ليس غير قانوني، وأنني أستطيع أن أقدم لهم مؤازرة ثمينة، (أعتقد أن هذه هي كلماته بالذات). لم يكن الأمر جيداً أن أدعي بأنني والدة هذا السيد الذي مات والذي كان خياطاً؛ هذه أشياء غير لائقة، ولا ينبغي خداع الناس. ولكن كان ينبغي التفكير في الزبائن، فإذا لم تحضر الوالدة هذا الدفن، فإن الاحتفال لن يكون له كل الوقارالمطلوب. هذا ما قاله السيد روزاي وهو يعرف في هذا الصدد أكثر مما أعرف. لم يكن من المناسب أن أفعل ذلك، ولكن يشهد الله أنني أكسب بالكاد ستة آلاف فرنك في الشهر وأنا أنهك نفسي بالعمل في منزل السيدة بوشامب، وهنا في مسألة السيد روزاي والمرحوم سوف أحصل على عشرين ألف فرنك وذلك فقط لكي أبكي قليلاً وأتألم لفقدان هذا السيد الذي سيكون ولدي إلى أن يدفن.

كان المنزل على مقربة من سان كلود، وقد أخذت إلى هناك في سيارة لم أر مثيلاً لها أبداً، إلاّ من الخارج. وفي لحظة ألبستني السيدة روزاي ووصيفتها الملابس المناسبة، وأصبحت أعرف أن المرحوم كان يسمى السيد لينارد، أوكتاف لينارد، وأنه كان الابن الوحيد لأم مسنّة تعيش في مقاطعة النورماندي، وقد وصلتْ في قطار الساعة الخامسة، الأم المسنة كانت أنا، لكنني كنت مضطربة جداً ومنذهلة تماماً إلى حد أنني لم أسمع شيئاً كثيراً مما كانت توصيني به السيدة روزاي. وأذكر أنها توسلت إلي (أقول تماماً توسلت إلي، بأن لا أبالغ في إظهار «علامات ألمي» ولكن يجب بالأصح أن أعطي الانطباع بأنني متعبة بصورة فظيعة، وبأنني على حافة الاغماء).

وأضافت السيدة روزاي لحظة وصولنا: لن أستطيع لسوء الحظ أن أبقى معك. ولكن افعلي ما قلته لك، وعلى كل حال فإن زوجي سيكون حاضراً

fb/mashro3pdf

ويسهر على كل شيء، وعلى الأخص، أرجوك، أرجوك، يا سيدة فرانسينيه، حين سترين الصحافيين والزبونات، وعلى الأخص الصحافيين . . .

- ألن تكوني حاضرة، يا سيدة روزاي .

سألت أنا، مندهشة جداً .

- لا . إنك لا تستطيعين أن تفهمي، وسيطول الأمر إذا أردت أن أشرح لك ذلك . سيكون زوجي حاضراً، من جهته، فإن له مصالح في قضية السيد لينارد . . . وسيكون حاضراً فقط من باب اللياقة . . . إنه دافع تجاري وانساني . لكنني أنا لن أدخل، إذ لا يناسب أن . . . ولكن لا تنشغلي بكل هذا .

على عتبة الباب لمحت السيد روزاي وعدة سادة آخرين . وتراجعت السيدة روزاي بشدة إلى الوراء، وجاء السيد روزاي ليفتح باب السيارة ويساعدني في النزول . كنت أبكي بصوت مسموع وادخلني السيد روزاي إلى المنزل وهو يسندني . ولم أستطع أن أرى شيئاً كثيراً لأنني كنت أمسك أمام عيني منديلاً يحجب عني نصف الوجوه، ولكن من سماكة السجاجيد وكذلك من الرائحة، حزرت أن المنزل فخم . كان السيد روزاي يهمس لي بعبارات التعزية، بصوت مفعم بالبكاء، هكذا حسبت . وفي صالون واسع جداً ذي ثريات تتدلى فيها ذوائب بلورية، التقينا بسادة آخرين نظروا إليّ بهيئة مشفقة، وكانوا بالتأكيد سيتقدمون لتعزيتي لولا أن السيد روزاي قادني إلى مكان أبعد، وذراعه تطوق كتفي . وفتح باباً ودفعني إلى الغرفة حيث كان الشخص المتوفى ورأيت الميت الذي كان «ولدي»، رأيت الوجه الجانبي للسيد بيبيه، أكثر شقرة وأشد شحوباً منه في أي وقت مضى، الآن وقد مات .

أعتقد أنني تشبثت بحافة السرير، وانتفض السيد روزاي وسارع سادة آخرون لإسنادي في حين كنت أحدق في الوجه الجميل جداً للسيد بيبيه الميت، وجفونه الطويلة السوداء، وأنفه الشمعي، ما كنت أستطيع التصديق بأنه كان السيد لينارد، هذا السيد الذي كان خياطاً والذي مات مؤخراً، ما

fb/mashro3pdf

كنت أستطيع أن أقتنع بأن هذا الميت، أمامي، هو السيد بيبيه. ورحت أبكي جدياً، دون أن أدري، أقسم لكم، متشبثة بقائمة هذا السرير الكبير الفخم المصنوع من خشب السنديان الجسيم، وتذكرت كيفية مداعبة السيد بيبيه شعري مساء يوم الحفلة وكيف ملأ لي كأساً من الويسكي، وكيف حدثني، واهتم بي، في حين كان الآخرون يلهون ويتسلون. وحين همس السيد روزاي في أذني: «قولي له: يا ولدي، يا ولدي...» لم أجد صعوبة في الكذب بل وحتى كنت أرتاح لكي أبكي من أجله، لم يعد أي شيء يبدو لي غريباً، الآن، وحين رفعت عيني رأيت السيد لولو على الجانب الآخر من السرير، وعيناه حمراوان وشفتاه مرتعشتان، ورحت أبكي بشدة وأنا أنظر إليه وجهاً لوجه، وهو أيضاً كان يبكي، بالرغم من دهشته، كان يبكي لأنني كنت أبكي، وكان مندهشاً لأنني كنت أبكي بصورة جدية، مثله، لأنني كنت أحب السيد بيبيه، مثله، كنا نتبادل التحدي بالنظرات، كلانا، من طرف السرير إلى طرفه الآخر، لكن السيد بيبيه لم يعد يستطيع أن يضحك كما كان يفعل مساءً في المطبخ، حين كان جالساً إلى الطاولة ويسخر منا جميعاً.

وأعادوني إلى الصالون الكبير ذي الثريات، وأجلسوني على أريكة. وأخرجت سيدة كانت هناك من حقيبتها قارورة أملاح، ودفع أحد الخدم إلى جانبي طاولة نقّالة مع قهوة ساخنة وكوب من الماء. بدا السيد روزاي أكثر اطمئناناً في الوقت الحاضر، فقد رأى أنني قادرة على أن أفعل ما طُلب مني. وفهمت هذا جيداً حين رأيته يبتعد للذهاب والتحادث مع سادة آخرين. وعلى الأريكة المقابلة كان يجلس شاب سبق لي أن رأيته عند دخولي وكان يبكي ورأسه بين يديه. وكان بين حين وآخر يخرج منديله ويتمخط. وظهر السيد لولو على عتبة الباب ونظر إليه لحظةً قبل أن يأتي ويجلس قربه. كانا يسببان الألم كلاهما، وكان واضحاً أنهما كانا صديقين حميمين للسيد بيبيه، وكانا في شرخ الشباب ويتألمان كثيراً. كان السيد روزاي ينظر إليهما أيضاً، من زاوية الغرفة حيث كان مع سيدتين؛ كانت الدقائق تمر، وفجأة ها هو السيد لولو يطلق صرخة حادة ويبتعد عن الشاب الآخر قائلاً: «أنت يا نينا لا تبالي بأي شيء، في الأساس»، وتذكرت شخصاً يدعى نينا وكانت له خالة في مقاطعة

fb/mashro3pdf

«بواتو» ترسل إليه فراريج وخضروات. هز السيد لولو كتفيه وكرر القول إن السيد نينا كان كاذباً. ثم نهض مبدياً تكشيرات ومشيراً بحركات كبيرة. حينئذٍ نهض السيد نينا هو أيضاً وانصرف الاثنان راكضين تقريباً نحو الغرفة التي كان يرقد فيها السيد بيبيه. وسُمِعَا لحظةً يتناقشان بصوت عالٍ غير أن السيد روزاي ذهب لإسكاتهما، ولم يعد يسمع شيء بعد ذلك. وبعد فترة، عاد السيد لولو نحو الأريكة، وفي يديه منديل مبلل. ووراء أريكته، كانت ثمة نافذة تطل على باحة داخلية؛ ومن بين كل ما كان يوجد في هذه الحجرة، كانت النافذة هي التي تذكرتها أكثر من سواها (وأيضاً الثريات، البديعة جداً)، ذلك لأنني في آخر الليل رأيت لونها ـ النافذة ـ يتغير شيئاً فشيئاً، فتصبح رمادية أكثر فأكثر، ثم وردية. وأنا، طوال هذه الوقت، فكرت في السيد بيبيه، وأحياناً ما عدت أستطيع تمالك نفسي ورحت أبكي، مع أنه لم يعد يوجد في الحجرة سوى السيد روزاي والسيد لولو. لقد اختفى السيد نينا. هكذا مضى الليل، وأحياناً كنت لا أستطيع أن أتمالك نفسي لدى تفكيري في السيد بيبيه الذي كان في مطلع الشباب، ورحت أبكي، وإن كان ذلك بعض الشيء بسبب التعب. حينئذٍ جاء السيد روزاي وجلس قربي وهو بهيئة غريبة وقال لي إن الأمر لم يعد يستحق الآن عناء التظاهر بالبكاء، وأن الأفضل أن أوفر نفسي إلى بعد حين، حين سيأتي الصحافيون أو حين سنكون في المقبرة. ولكن من الصعب أحياناً أن يعرف الشخص لماذا يبكي. وطلبت من السيد روزاي أن يتركني لأعود لحظة إلى قرب السيد بيبيه؛ كان يبدو مندهشاً جداً لأنني ما كنت أريد الذهاب للنوم.

لقد حسبت أنني سأجد السيد بيبيه وحده، لكن السيد نينا كان هناك، واقفاً قرب السرير، ونظره ثابت، ونظراً لأننا لم نكن متعارفين، فقد تبادلنا النظرات، في حذر، لكنه لم يجرؤ على أن يقول شيئاً حين اقتربت كثيراً من السيد بيبيه. وبقينا هكذا فترة طويلة وكنت أنا أرى الدموع تسيل على طول خديه وقد أحدثت ما يشبه الثلم قرب أنفه.

قلت له أريد تسليته: لقد كنت هناك، أنت أيضاً، مساء الحفلة، والسيد

fb/mashro3pdf

بيبيه . . . السيد لينارد قال إنك كنت حزينة جداً وطلب من السيد لولو أن يذهب لمرافقتك .

كان السيد نينا ينظر إلي دون أن يفهم . وكان يهز رأسه وابتسمت له لكي أسرّي عنه .

وعدت أقول : مساء الحفلة في منزل السيد روزاي . لقد جاء السيد لينارد إلى المطبخ وقدم لي ويسكي .

- ويسكي؟

- نعم . كان الوحيد الذي فكر فيّ . . وقد أراد السيد لولو أن يفتح زجاجة شمبانيا ، وأطلق السيد لينارد السدادة في وجهه ، حينئذٍ . . .

- أوه! اصمتي ، اصمتي! لا تتحدثي عن هذا الـ . . . إن بيبيه قد فقد الصواب ، فقد الصواب كلياً . . .

- ومن أجل هذا كنت أنت حزيناً؟ هكذا سألت لكي أقول شيئاً . لكنه لم يعد يسمعني ، كان ينظر إلى السيد بيبيه ويسأله عن شيء ما ، ولكن دون أن يتكلم ، فقط وهو يحرك شفتيه ؛ كان يردد دائماً نفس السؤال ، وأنا ، بعد فترة ، لم أعد أستطيع النظر إليه . كنت أريد تماماً لو أنني سرّيت عن السيد نينا الشقيّ جداً ، ولكن في هذه اللحظة بالضبط دخل السيد روزاي إلى الحجرة وأشار لي بأن أقترب منه .

- سوف يشرق النهار ، يا سيدة فرانسينيه ، هكذا قال لي (كان أخضر اللون ، المسكين) . وعليك أن تأخذي قسطاً من الراحة ، وإلاّ فسوف تموتين من التعب حين سيأتي الناس : سوف يجري الدفن في الساعة التاسعة والنصف .

كنت متهالكة من التعب ، وتركت السيد روزاي يقودني . ولدى مروري في الصالون ذي الثريات البلورية رأيت أن النافذة أصبحت ذات لون وردي زاه ، وأحسست بالبرد بالرغم من النار الموقدة في المدخنة .

fb/mashro3pdf

وفجأة تركني السيد روزاي وظل ينظر إلى الباب المؤدي إلى البهو. كان رجل قد دخل، وحول عنقه وشاح، وأحسست بالخوف لحظة من أن أمرنا قد اكتشف (مع أنه ليس فيه شيء غير قانوني) ومن أن يكون الرجل ذو الوشاح شقيق السيد بيبيه، أو شيئاً من هذا. لكن هذا لم يكن ممكناً، إذ كان مظهره فلاحياً تماماً، كأن بيار أو غوستاف يمكن أن يكونا شقيقين لشخص رقيق الملامح مثل السيد بيبيه.

ووراء الرجل ذي الوشاح لمحت السيد لولو الذي كانت هيئته غريبة، كما لو أنه كان خائفاً، ولكن أيضاً كما لو كان مسروراً مما سيحدث. حينئذٍ أشار لي السيد روزاي بأن لا أتحرك وخطا بضع خطوات نحو الرجل ذي الوشاح لكن هذا لم يبد أنه سَرّه، كما يظهر.

- أنت تعالي... هكذا بدأ يقول بهذا الصوت الذي كان يستعمله معي، والذي لم يكن، في الأساس، لطيفاً بالمرّة.

- أين هو بيبيه؟ سأل الرجل، بصوت كأنه قد شرب الخمر، أو صرخ.

قام السيد روزاي بحركة كأنما ليقطع عليه الطريق، لكن الرجل تقدم وأبقاه بعيداً عنه بالنظر إليه فقط. كان يدهشني كثيراً موقف فظ كهذا في لحظة حزينة كهذه. لكن السيد لولو الذي كان قد بقي عند الباب (أعتقد أنه هو الذي سمح لهذا الرجل بالدخول) راح يضحك مقهقهاً بشدة، حينئذٍ اقترب منه السيد روزاي وصفعه صفعتين مثلما يصفع ولد، تماماً مثلما يصفع ولد. ولم أسمع جيداً ما كانا يقولانه لبعضهما، لكن السيد لولو بدا مسرور وكان يقول شيئاً مثل «سوف يعلمها هذا... سوف يعلمها هذا، تلك العاهرة...»، وإن كان ليس من المناسب أن أردد أقواله، بل لقد كرر قول ذلك مراراً عديدة متوالية، ثم انخرط فجأة في البكاء وأخفى وجهه بيديه، وسحبه السيد روزاي ودفعه نحو الكنبة حيث بقي يبكي ويصرخ، وهكذا نسيني الجميع، أنا، كالعادة.

كان السيد روزاي يبدو عصبياً جداً. ولم يقرر الدخول إلى الحجرة

fb/mashro3pdf

الجنائزية ولكن بعد مضي فترة سُمِعَ صوت السيد نينا الذي كان يحتج، وهذا ما جعل السيد روزاي يقرر الدخول، وركض نحو الباب ويمكن أن أقسِم أن الرجل ذا الوشاح هو الذي ألقى به خارجاً تقريباً، تراجع السيد روزاي وهو ينظر إلى السيد نينا، وراح كلاهما يتحدثان بصوت منخفض، ولكن كان مع ذلك صوتاً حاداً، وكان السيد نينا يبكي من الضيق وكان يظهر تكشيرات، بحيث أنه كان يثير شفقتي. ثم هدأ قليلاً واقتاده السيد روزاي نحو الكنبة حيث كان السيد لولو الذي كان الآن يضحك (كان الأمر هكذا، يسارعون إلى الضحك مثل مسارعتهم إلى البكاء)، لكن السيد نينا أبدى برطمة ازدراء وذهب وجلس على كنبة أخرى قرب المدخنة. وأنا كنت في زاويتي أنتظر وصول السيدات والصحافيين كما أمرتني السيدة روزاي، وأخيراً وصلت الشمس إلى النافذة وقام خادم يرتدي بذلة رسمية بإدخال سيدين أنيقين جداً وسيدة نظرت أولاً إلى السيد نينا، معتقدة بلا شك أنه من العائلة، ثم نظرت إليّ وكنت أمسك رأسي بين يديّ لكنني أراه من بين أصابعي. ودخل سادة آخرون؛ كانوا يذهبون أولاً لمقابلة السيد بيبيه، ثم يعودون إلى الصالون. كان بعضهم يقتربون مني، مصحوبين بالسيد روزاي، وكانوا يقدمون لي تعازيهم وهم يشدون طويلاً على يدي. والسيدات أيضاً كن لطيفات جداً، وإحداهن على الأخص، كانت شابة جداً وجميلة جداً، جلست لحظة قربي وقالت لي إن السيد لينارد كان فناناً كبيراً وأن موته خسارة لا تُعَوَّض. كنت أقول نعم على كل شيء وكنت أبكي بصورة جدية، رغم أن هذا كله كان تمثيلاً بالنسبة لي، ولكن كان يؤلمني التفكير في السيد بيبيه، هناك، على سريره، الجميل جداً، والطيب جداً، وفي الفنان الكبير الذي كانه. وداعبت السيدة الشابة يديّ مراراً عديدة وقالت لي إن أحداً لن ينسى أبداً السيد لينارد، وأنها كانت متأكدة من أن السيد روزاي سوف يحل محله في دار الخياطة.

وحينئذٍ جاء السيد روزاي وقال لي بصوت منخفض ان الوقت قد حان لأودع ولدي، ذلك لأنهم سوف يقفلون النعش. وانتابني فجأة خوف فظيع لدى تفكيري في أن هذا هو أصعب مشهد سأمثله لكن السيد روزاي أسندني وساعدني في الذهاب نحو الحجرة. وهناك لم أعد أتمالك نفسي، فاقتربت

fb/mashro3pdf

من السيد بيبيه ورحت أبكي بصيحات شديدة؛ بل وكنت أريد أن أعانقه وأقبله، وتوجب على السيد روزاي أن يمسكني؛ كنت أريد تقبيل السيد بيبيه، الوحيد الذي كان طيباً معي، لكن السيد روزاي لم يدعني أفعل ذلك، كان يتوسل إليّ أن أهدأ، وفي النهاية، اقتادني إلى الصالون وهو يواسيني ويشد ذراعي بحيث كان يؤلمني، لكن هذا لم يكن يستطيع الآخرون ملاحظته، وأنا كان الأمر بالنسبة لي سيّان، وحين أجلسني على الأريكة، جاء الخادم بكوب ماء، وأخذت السيدات تهوّين لي بمناديلهن؛ وحدثت بلبلة كبيرة في حجرة السيد بيبيه، ودخل عدة أشخاص آخرين وأحاطوا بي، بحيث أنني لم أر شيئاً كثيراً مما كان يحدث، ولمحت السيد الخوري بين القادمين الجدد، وسرني هذا كثيراً لأجل السيد بيبيه. وستحل عما قريب ساعة الذهاب إلى المقبرة وكنت مسرورة لأن السيد الخوري جاء معنا، مع والدة وأصدقاء السيد بيبيه؛ ولا بد أن أصدقاءه كانوا مسرورين هم أيضاً لكون السيد الخوري معنا، وعلى الأخص السيد روزاي الذي بذل جهداً كبيراً لكي يجري كل شيء بصورة جيدة، وكي يستطيع الناس أن يلاحظوا أن الدفن كان كما ينبغي وأن الجميع يحبون السيد بيبيه.

* * *

fb/mashro3pdf

الأسلحة السرية

هذا غريب، فالناس يعتقدون أن ترتيب سرير، هو دائماً ترتيب سرير؛ وأن إعطاء اليد، هو دائماً إعطاء اليد، وأن فتح علبة سردين، هو فتح نفس علبة السردين دائماً وبلا نهاية. «بالعكس؛ فإن كل شيء هو استثنائي»، هكذا كان يفكر بيار، وهو يشد، بلا براعة، غطاء السرير الأزرق العتيق، «بالأمس كانت تمطر، واليوم الشمس مشرقة؛ بالأمس كنت حزيناً، واليوم ستأتي ميشالا. والشيء الوحيد الذي لا يتغير، هو أنني لن أتمكن أبداً من أن أعطي هذا السرير مظهراً مقبولاً». ولكن لا بأس، فالنساء يحببن فوضى حجرة فتى عازب، ويمكن أن يبتسمن ـ الأم فيهن تظهر حينئذٍ كل أسنانها ـ ويرتبن الستائر، ويغيرن موضع إناء أو كرسي، ويقلن: لا يوجد سوى أنت من تخطر له فكرة وضع هذه الطاولة هنا، في زاوية لا نور فيها. ستقول ميشالا أشياء من هذا النوع، وستحمل كتباً، وستغير موضع المصابيح، وهو، ممدداً على السرير، سيتركها تتصرف دون أن يحول عينيه عنها، ناظراً إليها عبر دخان سيجارة «غولواز»، وهو يشتهيها.

«الساعة السادسة، الساعة الخطيرة»، هكذا فكر بيار؛ إنها الساعة المذهبة، حيث يبدأ كل حي سان ـ سولبيس في التغير، ويستعدّ لأجل الليل. وعما قريب سوف تخرج الضاربات على الآلة الكاتبة من مكتب الكاتب العدل، وسيجر زوج السيدة لونوتر ساقه على السلّم، وسوف تسمع أصوات

fb/mashro3pdf

الأخوات في الطابق السادس، وهي اصوات لا انفصال لها عن الساعة التي يشترى فيها الخبز والصحيفة. والآن لن تتأخر ميشالا في الحضور، إلاّ إذا ضاعت، أو راحت تتسكع في الطرقات، مع عادتها في التوقف تماما أمام أية واجهة كانت، وتأخذ في الارتحال عبر هذه العوالم المصغّرة. وبعد ذلك ستروي له: دب من خيطان، واسطوانة لكوبيران، وسلسلة من البرونز مع حجر أزرق، وأعمال ستندال الكاملة، وموضة الصيف: وهي أسباب صالحة كأفضل ما يكون لكي تصل ميشالا متأخرة. وسيجارة «غولواز» أخرى حينئذٍ، وكأس كونياك أخرى، إنه يرغب في سماع أغان لماك أورلان، وأخذ يبحث بيد لاهية في أكداس من المجلات والدفاتر. لا بد أن رولان أو بابيت هي التي أخذت هذه الأسطوانة؛ كان يمكنهما مع ذلك التنبيه حين يأخذان شيئاً ما. لماذا لا تصل ميشالا؟ جلس على حافة السرير؛ انتهى الأمر، إنّ غطاء السرير مدعوك، وسوف يتوجب أيضاً شده من جهة ومن الجهة الأخرى، وإن حافة هذه الوسادة اللعينة سوف تظهر مجدداً بعناد. إن رائحة تبغ فظيعة تفوح هنا، وستقطّب ميشالا أنفها وتقول إن رائحة تبغ فظيعة تفوح. مئات ومئات من سجائر «الغولواز» دخّنت طوال مئات ومئات من الأيام، وشهادة (دبلوم)، وعدة صديقات، ونوبتا كبد، وروايات، والضجر. مئات ومئات من سجائر «الغولواز».

وإنه ليدهشه دائماً أن يفاجىء نفسه عاكفاً على الأشياء الصغيرة، ومتعلقاً كل هذا التعلق بالتفاصيل. إنه يتذكر الغرافتات العتيقة التي رماها منذ عشر سنوات، ولون طابع بريدي من الكونغو البلجيكي، مفخرة طفولة تهوى جمع الطوابع. وكأنه في أعماق ذاكرته كان يعرف بالضبط عدد السجائر التي دخنها في حياته، ونكهة كل واحدة منها، واللحظة التي أشعلها فيها، والموضع الذي رمى فيه أعقابها. إن الأرقام العبثية التي تظهر أحياناً في أحلامه ربما كانت انعكاساً لهذه الحسابات القاهرة. «ولكن إذاً، الله موجود» فكّر بيار. عكست مرآة الخزانة ابتسامته له، وأرغمه مجدداً مرة أخرى على إعادة تشكيل وجهه، وعلى أن يلقي إلى الوراء خصلة الشعر السوداء التي تهدد ميشالا بقطعها. لماذا لا تصل ميشالا؟ «لأنها لا تريد أن تأتي إلى غرفتي» فكّر بيار.

fb/mashro3pdf

سينبغي تماماً أن تأتي إلى غرفته وأن تنام معه إذا أرادت أن تقطع خصلة الشعر هذه. لقد دفعت دليلة الثمن الكبير، ولا يمكن مس شعر رجل بثمن أقل من ذلك. قال بيار في نفسه إنه أبله لتفكيره بأن ميشالا لا تريد الصعود إلى عنده. لقد فكر ذلك بصورة صماء، وكأنما عن بعد. ويبدو له أحياناً أن تفكيره يجب أن يشق طريقاً عبر حواجز لا تحصى قبل أن يصل إليه.

من الحماقة التفكير بأن ميشالا لا تريد أن تصعد إلى عنده فإذا كانت لا تصل فذلك لأنها مستغرقة في تأمل واجهة خردوات، أو أن فقمة صغيرة من الفرو أو صورة مطبوعة حجرية لـ زاو ـ وو ـ كي تثير حماستها. وبدا له أنه يراها، وفي نفس البرهة لاحظ أنه يفكر في بندقية صيد، في نفس اللحظة حيث يبتلع دخان سيجارته ويحس بأنه كأنما غفرت له بلاهته. إن بندقية صيد ليس فيها أي شيء غريب في حد ذاتها، ولكن ماذا يمكن أن تفعل صورة بندقية صيد في غرفته في هذه اللحظة، وهذا الإحساس بالغرابة الذي يحسه. إنه لا يحب هذه الساعة حيث كل شيء يتحول إلى اللون الرمادي. ومد ذراعه في كسل ليضيء مصباح الطاولة. لماذا لا تصل ميشالا؟ إنها لن تأتي الآن، ولم يعد الأمر يستأهل الانتظار. سيكون عليه التسليم بأنها لا تريد حقاً المجيء إلى غرفته. على كل حال، على كل حال، لا داعي ليجعل من ذلك مأساة. ليس هناك أي سبب لكي لا تريد الصعود إلى غرفته. صحيح أنه ليس هناك أي سبب للتفكير في بندقية صيد، أو لأن يقرر فجأة أن الأفضل أن يقرأ ميشو لاغراهام غرين. أن الاختيار الفوري قد شغل دائماً كثيراً بال بيار. لا يمكن أن يكون كل شيء مجانياً، وأن مجرد مصادفة تجعله يقرر غرين ضد ميشو، وميشو ضد غرين، وآنغيان، ضد غرين، بالأصح، ذلك مثل هذه الهفوة، الخلط بين غرين وانغيان. «لا يمكن أن يكون الأمر عبثياً إلى هذا الحد»، هكذا فكر بيار وهو يرمي سيجارته. «وإذا لم تأت، فذلك أنه قد حدث لها شيء ما؛ شيء ما، لا علاقة له بنا نحن الاثنين».

نزل إلى الشارع، وانتظر فترة على عتبة الباب. ورأى أضواء الساحة تضاء. لا يوجد أحد تقريباً في حانة «ليون»، جلس إلى طاولة، في الخارج،

fb/mashro3pdf

وطلب كأس جعة كبيرة. إنه يستطيع أن يرى، من حيث هو، باب المنزل؛ هكذا إذاً... كان ليون يتحدث عن دورة فرنسا. وصلت نيكول مع صديقتها بائعة الزهور ذات الصوت الأبح. كانت الجعة مثلجة، وكان هذا يدعوه لطلب نقانق، وقرب عتبة الباب، كان صغير البوابة يلعب بالقفز على إحدى قدميه؛ وحين تعب راح يقفز على القدم الأخرى، دون أن يتحرك من مكانه.

- ولكن، كم أنت أبله، قالت ميشالا. لماذا كنت لا أريد المجيء إلى عندك بما أن هذا كان مقرراً؟

أحضر ادمون لهما قهوة الساعة الحادية عشرة صباحاً. لم يكن هناك أحد تقريباً في هذه الساعة، وتوقف ادمون لحظة قرب طاولتهما ليعلّق على دورة فرنسا، ثم شرحت ميشالا، ما كان معقولاً، ما كان على بيار أن يفكر فيه: حالات إغماء أمها المتعددة، والدها الذي يجن جنونه ويتصل هاتفياً بالمكتب، وكان عليها القفز إلى سيارة تاكسي، وكل هذا لأجل لا شيء، من أجل حالة غثيان بسيطة وليست هذه أوّل مرة يحدث فيها ذلك، ولا يوجد غير بيار لكي...

- أنا مسرور لأن حالتها أفضل، قال بيار ببلاهة.

وضع يداً على يد ميشالا. ووضعت ميشالا يدها الأخرى على يد بيار. ووضع بيار يده الأخرى على يد ميشالا. وسحبت ميشالا يدها من تحت، ووضعتها فوق. وسحب بيار يده من تحت ووضعها فوق. وسحبت ميشالا يدها من تحت وأسندت راحتها إلى أنف بيار.

- بارد مثل أنف كلب صغير.

أقر بيار بأن درجه حرارة أنفه هي لغز مغلق.

- يا عزيزي الأبله، قالت ميشالا بمثابة استخلاص.

قبلها بيار على جبينها، وعلى شعرها. وحين أحنت رأسها تناول ذقنها وأرغمها على النظر إليه قبل أن يقبلها على ثغرها. قبلها مرة، ومرتين. وشم

fb/mashro3pdf

رائحة ندية، الظل تحت الأشجار، in Wunderschonen Monat Mai . وسمع الأغنية بوضوح تام . كان يدهشه بعض الشيء أنه يتذكر جيداً جداً الكلمات التي ليس لها معنى حقاً بالنسبة إليه إلاّ مترجمة . لكنه يحب هذه الأغنية، والكلمات متناسبة تماماً مع شعر ميشالا، ومع ثغرها الندي .

in Winderschönen Monat Mai als.

تشنجت يد ميشالا على كتفه .

ـ أنت تؤلمني، قالت وهي تدفعه ممرِّرة أصابعها على شفتيها. وداعب خدها وقبلها بلطف، هل هي غاضبة، ميشالا؟ كلا، إنها ليست غاضبة، متى، متى، متى سيكونان وحدهما . إنه يجد صعوبة في أن يفهم ؛ وإيضاحات ميشالا يبدو أنها تخص شيئاً آخر. كانت تلح عليه فكرة أن يراها تدخل يوماً إلى غرفته، فلم يفهم أن الوضع قد اتضح فجأة: إن ذوي ميشالا سيذهبون إلى الريف لقضاء مدة خمسة عشر يوماً . رحلة ميمونة، وهكذا فإن ميشالا . . . أدرك المسألة فجأة، ونظر إلى ميشالا بثبات . وضحكت هي :

ـ هل ستكونين وحدك في منزلك لمدة خمسة عشر يوماً؟

قالت ميشالا : كم أنت أبله . ومدت إصبعاً وراحت ترسم على الطاولة نجوماً غير مرئية، ومعيّنات غامضة .

إن والدتها تعتمد طبعاً على بابيت المخلصة لتبقى في رفقة ميشالا ؛ لقد حدث كثير من السرقات والهجمات بالسلاح في الآونة الأخيرة في الضاحية . لكن بابيت ستبقى في باريس طيلة الوقت الذي يريدان .

لم يكن بيار يعرف الفيللا لكنه تصورها مراراً كثيرة بحيث كان كما لو أنه زارها فعلاً ؛ ودخل مع ميشالا الى صالون صغير مشحون جداً بقطع أثاث قديمة ؛ وصعد على سلّم بعد أن لامس بأصابعه الكرة الزجاجية التي في أسفل درابزين الدَّرج. لم يرق له المنزل، ولا يستطيع أن يقول لماذا ؛ أحس برغبة في الخروج إلى الحديقة وإن كان من الصعب أن يتصور أن بيتاً صغيراً كهذا يمكن أن تكون له حديقة .

fb/mashro3pdf

بذل جهداً ليطرد هذه الصور واكتشف أنه سعيد، وأن المنزل لن يشبه ما تصوره، وأنه لن يكون له هذا الجو الخانق بكل أثاثه العتيق وبسطه البالية. فكّر بيار: «يجب أن أطلب من كزافييه أن يعيرني دراجته النارية»، وسوف يذهب بيار لينتظر ميشالا وسيكونان في كلامار في أقل من نصف ساعة؛ وسيكون لهما عطلة نهاية اسبوع للذهاب في نزهة؛ يجب شراء «ترمس» ونيسكافيه.

- هل توجد كرة زجاجية في أسفل درابزين الدرج عندكم؟

- لا، قالت ميشالا، إنك تخلط بين...

صمتت فجأة وكأن شيئاً أخذ يشد على عنقها بصورة مباغتة. كانت غائصة في المقعد، مسندة رأسها مقابل المرآة الكبيرة التي يريد بيار أن يضاعف بواسطتها طاولات المقهى، وقال بيار في نفسه بصورة غامضة إن ميشالا تشبه قطة أو صورة وجهية مغفلة. إنه يعرفها منذ زمن قصير جداً، وربما تجد صعوبة في فهمه هو أيضاً، أحياناً.

مؤكد أن تبادل الحب لا يفسر أبداً أي شيء، وكذلك أن يكون لدى المتحابين أصدقاء مشتركون، أو أن يشتركا في نفس الآراء السياسية. ويبدأ المرء دائماً بالاعتقاد بأنه لا يوجد سر في أي إنسان، ومن السهل جداً تكديس المستندات: ميشالا دوفيرنوا، أربعة وعشرون عاماً، شعر كستنائي، عينان رماديتان، موظفة مكتب. وهي، من جهتها، تعرف أن: بيار جوليفيه، ثلاثة وعشرون عاماً، شعر أشقر. لكنه غداً سيذهب إلى منزلها وفي أقل من نصف ساعة سيكونان في أنغيان: «أيضاً أنغيان» هكذا فكر بيار الذي طرد هذا الاسم كما طرد ذبابة. سوف يتمكنان من قضاء خمسة عشر يوماً معاً وتوجد حديقة وراء المنزل، مختلفة جداً بلا شك عن تلك التي يتصورها؛ وسيلزم أن يسأل ميشالا كيف هي الحديقة؛ لكن ميشالا دعت ليون، والساعة تجاوزت الحادية عشرة ورب العمل سيزوي حاجبيه إذا رآها تصل متأخرة.

- انتظري قليلاً، قال بيار، ها هما رولان وبابيت، غريب جداً لن يمكننا أبداً أن نكون نحن الاثنين وحدنا في هذا المقهى.

fb/mashro3pdf

- كيف وحدنا؟ قالت ميشالا. لكننا بالضبط جئنا إلى هنا لرؤيتهما.

- أعرف، ولكن مع ذلك.

هزت ميشالا كتفيها لكن بيار يعرف انها تفهمه وأنها تأسف، هي أيضاً، في الأساس، لأن يكون الأصدقاء أوفياء إلى هذا الحد للمواعيد. وصلت بابيت ورولان بهيئتهما الاعتيادية من السعادة الهادئة التي أغضبت ميشالا هذه المرة وأنفدت صبرها. إنهما من الجهة الأخرى، هما، محميان بحاجز الزمن؛ إن حالات غضبهما وحالات عدم ارتياحهما تنتمي إلى العالم، إلى السياسة، إلى الفن، وليس أبداً إلى ذاتيهما، وإلى قلقهما العميق. لقد أنقذتهما العادة، والحركات الآلية. كل شيء كان مملساً جيداً، ومكوياً جيداً، ومطوياً، ومعنوناً حسب بطاقات. خنازير صغار مسرورة تماماً، العجائز المساكين، والأصدقاء الطيبين جداً. وكاد لا يشد على اليد التي مدها إليه رولان. جرض بريقه، ونظر إليه في عينيه، ثم شد على أصابعه حتى لكاد يحطمها. ضحك رولان وجلس في مواجهتهما، وتحدث عن نادٍ لهواة السينما يجب الذهاب إليه يوم الاثنين، بلا شك. «خنازير صغيرة مسرورة» هكذا غمغم بيار قائلاً: هذه حماقة، هذا ظلم. ومع ذلك كان يمكنهم أن يجدوا شيئاً أكثر جدة من فيلم لبودفكين.

- أكثر جدة، قالت بابيت ساخرة. كم أنت عجوز، يا بيار.

لم يكن هناك أي سبب لأن لا يريد الشد على يد رولان.

وروت ميشالا قائلة: ولقد ارتدت بلوزة برتقالية ناسبتها بصورة رائعة.

وقدّم رولان سجائر «غولواز» وطلب فناجين قهوة. ليس هناك أي سبب لأن لا يريد الشد على يد رولان.

قالت بابيت: نعم، إنها فتاة ذكية. ونظر رولان إلى بيار وغمز بعينه. هادىء، بدون مشاكل. بدون مشاكل إطلاقاً: خنزير صغير هادىء تماماً. هذا يقزز نفس بيار، هذا الهدوء، وميشالا التي تستطيع أن تتحدث عن بلوزة

fb/mashro3pdf

برتقالية، بعيداً جداً عنه، شأنها دائماً. لا شيء مشتركاً معهم، كان آخر من دخل إلى المجموعة، وهم يتحملونه بالكاد.

وأثناء الحديث ـ عن الأحذية هذه المرة ـ مررت ميشالا إصبعاً على طرف شفتها. إنه حتى ليس قادراً على تقبيلها، لقد آلمها، وميشالا تذكر هذا. والجميع يؤلمونه، هو أيضاً، إنهم يغمزونه، ويبتسمون له، ويحبونه كثيراً. وهذا مثل ثقل على صدره، والحاجة إلى الذهاب، ولأن يكون وحيداً في غرفته يتساءل لماذا لم تأت ميشالا، ولماذا أخذت بابيت ورولان اسطوانة دون أن يقولا له.

نظرت ميشالا إلى ساعتها وانتفضت. لقد قرروا أن يقضوا أمسية في نادي هواة السينما. دفع بيار ثمن فناجين القهوة. وأحس أنه في حالة أفضل، إنه يريد أن يتحدث مطولاً أكثر مع رولان وبابيت، وشد بحرارة على أيديهما، خنازير صغيرة طيبة وأصدقاء طيبون لميشالا.

نظر رولان إلى بيار وميشالا وهما يبتعدان، ويجتازان الشارع تحت الشمس، واحتسى قهوته على مهل.

ـ أنا أتساءل... قال رولان.

ـ وأنا أيضاً. قالت بابيت.

ـ ولماذا لا، على كل حال.

ـ لماذا لا، بكل تأكيد. ولكن ستكون هذه أوّل مرة منذ...

ـ لقد حان الحين لكي تفعل ميشالا شيئاً ما بحياتها، قال رولان. وإذا كنت تريد رأيي، فإنها عاشقة جداً.

ـ كلاهما عاشقان جداً.

ظل رولان ساهماً يفكر.

لقد أعطى موعداً إلى كزافييه في مقهى بساحة سان ميشال. لكنه وصل

fb/mashro3pdf

مبكراًجداً، وطلب كأس جعة وأخذ يتصفح جريدة. . إنه لا يذكر جيداً ما الذي فعله منذ أن ترك ميشالا عند باب المكتب. إن الشهور الأخيرة هي مشوشة مثل هذه الصبيحة التي لم تنته بعد، والتي هي، منذ الآن، مزيج من الذكريات المزيفة، والأخطاء. في هذه الحياة التي يعيشها، والتي هي غريبة عنه تقريباً، اليقين الوحيد هو أنه كان قريباً جداً من ميشالا، إنه ينتظر ويدرك أن هذا لا يكفي، وأن كل شيء غريب بصورة غامضة، وأنه لا يعرف أي شيء عن ميشالا، أي شيء إطلاقاً في الحقيقة؛ عيناها رماديتان، ولها خمس أصابع في كل يد، وهي عزباء، وتسرّح شعرها مثل بنت صغيرة؛ لا شيء اطلاقاً في الحقيقة. وحينئذٍ، حين لا يُعْرَف أي شيء عن ميشالا، يكفي أن يكف عن رؤيتها لبعض الحين لكي يتغير الفراغ إلى دغل كثيف ومرير. أنت تخيفها، أنت ترعبها، وهي أحياناً تدفعك عنها وأنتما في أعماق قبلة، وهي لا تريد أن تضاجعها، هناك شيء ما يثير قرفها، وهذا الصباح بالذات دفعتك بعنف، وكم كانت لطيفة بعد ذلك، وكم شدت نفسها إليك عندما فارقتك! وكيف أنها رتبت كل شيء لكي تقابلك مجدداً ولتذهبا معاً إلى إنغيان. وأنت، تركت سمة أسنانك على فمها، كنت تقبلها وعضضتها، وقد أنّت شاكيةً، دون أن تغضب، مندهشة قليلاً فقط. كنت تترنم بالحان شومان في دخيلتك، كنت تغني وأنت تعض الشفتين، أيتها البهيمة التي يرثي لها، و، هل تذكر؟ في الوقت ذاته كنت تصعد درجاً، هل تتذكر الآن؟ نعم، كنت تصعد درجاً، وكانت يدك تلامس بصورة عابرة الكرة الزجاجية في أسفل الدرابزين، لكن ميشالا قالت لك إنه لم تكن توجد كرة زجاجية في منزلها.

انزلق بيار على المقعد، وبحث عن سجائر. وميشالا هي أيضاً لا تعرف شيئاً كثيراً عنه، وهي ليست فضولية إطلاقاً، وإن كانت لها هذه الطريقة المنتبهة والرصينة في الاصغاء إلى الاعترافات، والمسارّات، وهذه القدرة على أن تقاسمك لحظة من الحياة ـ أية لحظة كانت ـ، قطٌ تحت باب العربات، وإعصار على المدينة، وورقة نَفَل، واسطوانة لجيرّي موليغان. إنها منتبهة، ومتحمسة، ورصينة في وقت معاً، تعرف على السواء الاستماع إليك، وتحملك على الاستماع إليها.

fb/mashro3pdf

على هذا النحو، من لقاء إلى لقاء، ومن حديث إلى حديث، انحرفا نحو وحدة الشخصين وسط المجموع، قليل من السياسة، ومن الروايات، والسينما، والقبلات الأكثر عمقاً كل مرة، ويده التي تهبط على طول عنقها، وتلامس ثدييها، وتكرر السؤال اللامنتهي، والبدون جواب، السماء تمطر، ويجب الاحتماء تحت باب عربات، الشمس محرقة، فلندخل إلى هذه المكتبة، غداً أقدمك إلى بابيت، إنها صديقة قديمة، ستعجبك. ثم يحدث أن صديق بابيت هو رفيق قديم، لكزافييه، الذي هو نفسه أفضل صديق لبيار. وتقفل الدائرة شيئاً فشيئاً، أحياناً في بيت بابيت ورولان، وأحياناً أخرى في مكتب كزافييه أو في مقاهي الحي اللاتيني، مساء. إن بيار يقدر كثيراً الصداقة التي يكنها رولان وبابيت لميشالا، والانطباع الذي يعطيانه عن حمايتها بصورة خفية. ومع ذلك فميشالا ليست بحاجة لحماية. ففي جماعتهم لا يجري الكلام كثيراً على الآخرين، وتفضل الموضوعات الكبرى، السياسة أو المحاكمات، وعلى الأخص تبادل النظر بهيئة راضية، وتبادل السجائر، والجلوس في المقاهي، والعيش وسط الإحساس بأنك محاط بأصدقاء. وكان من حسن حظ بيار أنه قُبِل وأنه أفسح له مكان في المجموعة، إنهم ليسوا سهلين، هؤلاء الأربعة، وهم يعرفون طرائق لا تخطىء في تثبيط همة المتطفلين المزعجين. «إنهم يعجبونني» هكذا قال بيار في نفسه، وهو يشرب بقايا كأس الجعة. لعلهم يعتقدون أنه أصبح فعلاً عشيق ميشالا، كزافييه على الأقل يجب أن يعتقد ذلك، إذ لن يسعه أن يفهم أن ميشالا قد امتنعت عليه هذا الزمن الطويل بدون سبب محدد. كانت ترفض، بكل بساطة، لكنها كانت تلتقيه مجدداً، وتخرج معه، وتتركه يتكلم، وتتكلم هي بدورها، المرء يعتاد على كل شيء، حتى على الشيء الغريب؛ ويتوصل إلى الاعتقاد بأن السر يجد تفسيره في ذاته، وينتهي بنا الأمر إلى أن نعيشه من الداخل، بقبولنا ما لا يُقْبَل، ونحن نقول لبعضنا «إلى اللقاء» عند زاوية الشوارع أو في المقاهي في حين كان يمكن أن يكون كل شيء بسيطاً، درجاً مع كرة زجاجية في أسفل الدرابزين المؤدي إلى اللقاء، اللقاء الحقيقي. لكن ميشالا قالت إنه لا توجد كرة زجاجية في منزلهم.

fb/mashro3pdf

كان كزافييه، الطويل القامة والنحيف، يبدو في هيئته في أيام العمل. إنه يتحدث عن اختبارات، عن البيولوجيا بصفتها سبباً للنزعة الشكوكية. ونظر إلى إحدى أصابعه المصفرَّة.

- هل يحدث لك أن تفكر فجأة في أشياء لا علاقة لها البتة في ما كنت تفكر فيه؟ سأل بيار.

- لا علاقة لها البتة، هذا افتراض للعمل، لا أكثر. أجاب كزافييه.

- إنني أحس بأنني غريب الشكل، في هذه الأيام. عليك أن تعطيني شيئاً ما، «شيئاً موضَّعاً»[1].

- شيئاً موضَّعاً»؟ هذا لا وجود له، يا صاحبي.

- أنا كثير التفكير في ذاتي. قال بيار.

هذه بلاهة.

- وميشالا؟ ألا «توضّعك»؟

- بالضبط، في الأمس، حدث لي أن فكرت في أن...

سمع نفسه يتكلم، ورأى كزافييه الذي كان يراه، رأى صورة كزافييه في مرآة، رقبة كزافييه؛ ورأى نفسه، هو، يتكلم لأجل كزافييه (ولكن لماذا علي دائماً أن أفكر في أنه توجد كرة زجاجية في أسفل الدرابزين؟). ومن حين إلى آخر، كان يسجل حركة رأس كزافييه، والحركة المهنية المضحكة جداً حين لا يكون في استشارة، وحين لا يكون الطبيب مرتدياً هذا المئزر الأبيض الذي يضعه على صعيد آخر ويمنحه سلطات أخرى.

- انغيان، قال كزافييه. لا تعذب نفسك لأجل هذا، أنا أيضاً أخلط دائماً بين لومانس ومانتون، وهذه بالتأكيد غلطة مدرّسة ما، في طفولتي البعيدة.

---

(١) الموضّع Objectivant : ما يجعل الشيء أو الشخص موضوعياً. (المترجم).

fb/mashro3pdf

دندنت ذاكرة بيار .

ـ إن كنت لا تنام جيداً، تعال لزيارتي، وسوف أعطيك شيئاً ما، قال كزافييه . وعلى كل حال فإن هذه الخمسة أيام في الفردوس ستكون كافية ستعيد إليك الثقة بنفسك . وليس هناك أفضل من المشاركة في وسادة . فهذا يوضح أفكارك . بل وأحياناً يلغيها تماماً، وهكذا تصبح هادئاً مطمئناً .

ولعله إذا عمل أكثر، وإذا تعب أكثر، وإذا دهن غرفته، أو إذا ذهب سيراً على الأقدام حتى الكلية بدلاً من ركوب الأوتوبيس، وإذا توجب عليه أن يكسب بعمله الستين ألف فرنك التي يرسلها إليه ذووه كل شهر. كان يستند إلى درابزين «الجسر الجديد»، ينظر إلى مرور القوارب ويحس شمس الصيف على رقبته وعلى كتفيه . ومرت جماعة من الصبايا الضاحكات، وكان يسمع خبب حصان، وسائق دراجة أصهب الشعر يصفر طويلاً عند التقائه بالصبايا اللواتي كن يضحكن بقوة أكبر، وفجأة كان كأنما سرب من الأوراق اليابسة يتواثب إلى وجهه ويفترسه بعضة واحدة فظيعة وسوداء .

فرك بيار عينيه، وأنهض جسمه ببطء . هذه لم تكن رؤيا، ولا مجرد كلمات، بل كانت شيئاً بين الاثنين، صورة مفككة بمقدار عدد أوراق الشجر على الأرض . الأوراق اليابسة التي ارتفعت لتضربه في صميم وجهه . ورأى يده المرتجفة على الدرابزين . شد قبضته وناضل لكي يسيطر على الهزة. لا بد أن كزافييه أصبح بعيداً الآن، ولا جدوى في الركض وراءه، وإضافة نادرة جديدة إلى هذه الجردة الحمقاء .

«أوراق يابسة، سيقول كزافييه، ولكن لا توجد أوراق يابسة على «الجسر الجديد» وكأن بيار لا يعرف معرفة تامة مثله أنه لا توجد أوراق يابسة على «الجسر الجديد»، وأن الأوراق اليابسة هي في أنغيان .

الآن، سوف أفكر فيك يا حبيبتي، فيك وحدك، وطول الليل . لا أريد أن أفكر إلاّ فيك . وهذه هي الطريقة الوحيدة لكي أحس بذاتي، ولأحتفظ بكِ

fb/mashro3pdf

في داخلي مثل شجرة، ثم لأنفصل شيئاً فشيئاً عن الجذع الذي يسندني ويقودني، ولأعوم حولك باحتراس، محساً الهواء بكل ورقة من أوراقي. دون أن أبتعد عنك، دون أن أسمح لهذا الشيء بأن ينزلق بينك وبيني، ودون أن أتلهى عنك، ودون أن أحرم من ثانية واحدة لأعرف أن هذه الليلة تتحول شيئاً فشيئاً إلى الصباح، وأنه هناك، في الجانب الآخر، هناك حيث تعيشين، هناك حيث أنت نائمة الآن، سيكون ليل من جديد حين سنصل معاً، حين سندخل إلى منزلك، حين سنصعد درجات المدخل، حين سنضيء الأنوار، حين سنداعب كلبك، حين سنشرب قهوة، حين سنتبادل النظر طويلاً قبل أن أقبلك (قبل أن تكوني في وسطي مثل شجرة) قبل أن أقودك نحو السلّم حين سنبدأ بالصعود، الباب مقفل، لكن المفتاح في جيبي. . .

قفز بيار من السرير وذهب ووضع رأسه تحت حنفية المغسلة. لا أفكر إلاّ فيك، لكن الأفكار الأخرى هي مثل رغبة صماء وغامضة لا تعود فيها ميشالا هي ذاتها ميشالا (أن تكوني في صميمي مثل شجرة)، حيث لم يعد يستطيع أن يحس بها ذات ثقل بين ذراعيه لدى صعود الدَرَج، ذلك لأنه ما كاد يضع قدمه على أوّل دَرَجة حتى رأى الكرة الزجاجية، وكان وحده، صعد الدرج وحده تماماً، وميشالا كانت هناك فوق، سجينة في حجرتها، إنها وراء هذا الباب، وهي لا تعرف أن لديه مفتاحاً آخر في جيبه، وأنه يصعد الدرج.

نشّف وجهه، وفتح النافذة على مصراعيها لطراوة الصباح. كان سكّير يناجي نفسه مناجاة ودية في الشارع ويتمايل كأنه يعوم في مياه كثيفة. كان يدندن أغنية ويروح ويجيء، قائماً بما يشبه رقصة معلّقة واحتفالية في الاكفهرار الذي كان يعض شيئاً فشيئاً بلاط الشارع، والبوابات المقفلة.

Als alle Knospen sprongen.

الكلمات ترتسم على شفتي بيار اليابستين وتختلط بدندنة تحت التي لا علاقة لها البتة بكل هذا، لكن كلمات هايني هي أيضاً لا علاقة لها البتة بأي شيء كان، إنها تبرز في ذهنه مثل سائر الأشياء، وتلتصق لحظة بإيقاع الحياة ثم تترك نوعاً من القلق مفعم بالضغينة، وثقوباً تستدير من حيث تخرج مزق

fb/mashro3pdf

تتعلق بأوّل حقيقة تعرض، بندقية صيد، كدسة من الأوراق اليابسة، السكير الذي يرقص، بإيقاع، رقصة قديمة غريبة مع انحناءات إجلال تنتشر في أكمام ممزقة، وخطوات عاثرة وأقوال غامضة.

الدراجة النارية تهرّ في شارع أليزيا. وبيار يحس بأصابع ميشالا تشد أكثر قليلاً قامته حين يمران تماماً قرب أوتوبيس أو حين يدرجان في منعطف. وحين توقفهما الأضواء الحمراء، يحني بيار رأسه إلى الوراء وينتظر مداعبة، قبلة على شَعْرِه.

- لست خائفة، تقول ميشالا. أنت تقود بصورة جيدة جداً. الآن، يجب الانعطاف نحو اليمين.

كانت الفيللا ضائعة بين عشرات من المنازل المشابهة على تلة فوق كلامارت. بالنسبة لبيار فإن تسميته «بيت صغير» تعني ملجأ، يقين زاوية هادئة ومنعزلة، وحديقة مع فوتيلات من القصب، وربما حباحب[1]، في الليل.

- يوجد حباحب في حديقتك؟

- لا أعتقد. إن لك أفكاراً غريبة!

من الصعب تبادل الكلام حين يكون شخصان على دراجة نارية، فحركة السير تجبرك على تركيز الانتباه، ثم إن بيار كان متعباً، فهو لم ينم إلا ساعتين هذه الليلة. يجب أن يفكر في تناول الأقراص التي أعطاها له كزافييه، لكنه سوف ينسى، بكل تأكيد، ثم، على كل حال، لن يحتاج إليها.

أحنى رأسه إلى الوراء وتذمر لأن ميشالا لا تقبّله على الفور، ضحكت ميشالا وأدخلت يداً في شعره. ضوء أخضر. «إنس كل هذه الحماقات». قال كزافييه مرتبكاً بصورة ملحوظة. سوف تزول هذه الحالة بالتأكيد، قرصان قبل النوم، وكوب ماء. كيف تنام ميشالا؟

---

(١) حباحب: ذباب ذو ألوان يطير في الليل وفي ذنبه شعاع كالسراج. (المترجم).

fb/mashro3pdf

- ميشالا، كيف تنامين؟
- جيداً جداً، قالت ميشالا. أرى أحياناً كوابيس، مثل جميع الناس.

بكل تأكيد، مثل الجميع، لكنها مع ذلك تستيقظ، هي، إنها تعلم انها تترك حلمها وراءها، وهو لن يختلط بأصوات الشارع، وبوجوه الأصدقاء، وأنه - الحلم - ليس هو هذا الشيء الذي يندس في مشاغل النهار، الأكثر براءة. لكن كزافييه قال أنه بقرصين سيكون كل شيء على ما يرام، وأنها ستنام ورأسها غائص في الوسادة. وركبتاها مثنيتان قليلاً، وهي تتنفس تنفساً خفيفاً، وسيراها عما قريب ممددة، سيضمها عما قليل إلى صدره، وهي نائمة، وسيسمع صوت تنفسها، وستكون عارية وبدون دفاع، حين سيمسكها بشعرها بيد، ضوء برتقالي، ضوء أحمر، قف.

شد المكبح بعنف بحيث أن ميشالا صرخت، ثم صمتت، وظلت بلا حراك وكأنها خجلت لصراخها. وضع بيار قدماً على الأرض، وأدار رأسه، وابتسم لشيء ما، ليس هو وظل هناك، نظره ضائع في المدى الغامض، وهو ما زال يبتسم، إنه يعرف أن الضوء سيتحول إلى الأخضر، ووراء الدراجة النارية كانت شاحنة وسيارة عادية، وزمّر أحدهم، مرتين، ثلاث مرات.

- ماذا يحدث لك؟ قالت ميشالا.

شتمه رجل السيارة لدى مروره وتقدم بيار بدراجته على مهل. كان في اللحظة التي سيراها فيها كما هي، عارية وبلا دفاع. لقد فكر في هذا، ووصل بالضبط إلى اللحظة التي رآها فيها تنام وهي عارية وبلا دفاع، ولم يكن هناك أي سبب للافتراض، حتى ولو للحظة واحدة، انه سيكون من الضروري... نعم، سمعت، أولاً على اليسار، ثم على اليمين. هل هذا السقف الاردوازي؟ هناك أشجار صنوبر، ما أجملها، ما أجمله منزلك، حديقة مع أشجار صنوبر وأهلك الذين ذهبوا إلى الريف، هذا بالكاد يمكن تصديقه، يا ميشالا، شيء كهذا بالكاد يمكن تصديقه.

الكلب «بوبي» الذي استقبلهما بنباح شديد جاء يشم بدقة بنطال بيار

fb/mashro3pdf

لانقاذ المظاهر. دفع بيار الدراجة إلى تحت السقيفة. كانت ميشالا قد دخلت إلى المنزل، وفتحت مصاريع النوافذ، وعادت إلى الرواق لاستقبال بيار الذي أخذ ينظر حوله ولاحظ أن هذا لا يشبه في شيء ما تصوره هو.

- كان ينبغي أن يكون هناك ثلاث درجات، قال بيار. وهذا الصالون كان ينبغي... ولكن بكل تأكيد... لا عليك، إن المرء يتخيل دائماً الأشياء بصورة مختلفة. أفلا يحدث هذا لك أنت أيضاً؟

- بلى، أحياناً، قالت ميشالا. بيار، أنا جائعة، لا، بيار، اسمع، كن لطيفاً، وساعدني، يجب إعداد شيء للأكل.

- يا حبيبتي، قال بيار.

- افتح هذه النافذة، ولتدخل الشمس. كن عاقلاً، سوف يظن «بوبي» أنك...

- ميشالا...، قال بيار.

- لا، دعني أصعد لأبدل ثيابي، اخلع سترتك إن كنت تريد، سوف تجد زجاجات خمر في خزانة الحائط، أمّا أنا فلا أعرف شيئاً عن ذلك.

رآها تفر، تصعد السلّم راكضة، وتختفي على قرص الدرج. كانت توجد زجاجات خمر في خزانة الحائط، إنها لا تعرف شيئاً عن ذلك. الصالون عميق ومعتم، ويد بيار تداعب أسفل الدرابزين. ومع ذلك فقد قالت له ميشالا، ولكن كان الأمر مثل خيبة أمل صمّاء، لم تكن هناك كرة زجاجية، ماذا!

عادت ميشالا، مرتدية بنطالاً عتيقاً وبلوزة عجيبة.

- إنك أشبه بنبتة فطر، قال بيار بالحنان الذي يحس به كل رجل أمام امرأة تلبس ثياباً واسعة جداً. ألن تريني المنزل؟

- إذا كنت تريد، قالت ميشالا. ألم تجد المشروبات؟ انتظر، إنك لا تصلح لشيء.

fb/mashro3pdf

حملا الكؤوس إلى الصالون وجلسا على الأريكة المواجهة للنافذة المفتوحة، وجاء بوبي للترحيب بهما، ورقد على السجادة، وراح ينظر إليهما.

- لقد تبناك على الفور، قالت ميشالا وهي تلحس حافة كأسها. هل يروق لك، منزلي؟

- لا، قال بيار. إنه معتم، وبورجوازي إلى درجة مميتة، ومليء بقطع أثاث فظيعة. لكنك أنت هنا، بهذا البنطال الفظيع.

راح يداعب عنقها، وشدها إلى صدره وقبلها على ثغرها. أخذا يتبادلان القبلات على الفم، وارتسمت حرارة يد ميشالا على قامة بيار، كانا يتبادلان القبلات على الفم، وانزلقا قليلاً، ثم أنَّت ميشالا وحاولت الفرار، وهمست بشيء لم يفهمه. وفكر بغموض أن أصعب شيء هو أن يقفل فمها، إنه لا يريد أن يغمى عليها. تركها فجأة وأخذ ينظر إلى يديه كما لو أنهما لم تكونا له، وسمع تنفس ميشالا السريع، ودمدمة «بوبي» الصمَّاء على السجادة.

- ستدفعيني إلى الجنون. قال بيار، وكانت الصفة المضحكة للعبارة أقل إيلاماً مما أحس به الآن. ومثل أمر، انتابته رغبة لا تقاوم في أن يقفل فمها، ولكن على الأخص يجب أن لا يغمى عليها. مد يده، وراح يداعب من بعيد خد ميشالا، وقال نعم لكل شيء، سوف نصنع وجبة مرتجلة، وسيختار النبيذ، هناك فعلاً حر شديد قرب هذه النافذة.

ميشالا تأكل على طريقتها، وهي تمزج الجبن بالسمك الصغير، والسلاطة بقطع السلطعون، بيار يشرب نبيذاً أبيض، وينظر إليها ويبتسم لها. لو تزوجها، فسوف يشربان كل يوم نبيذاً أبيض على هذه الطاولة، وسينظر إليها ويبتسم لها.

- هذا عجيب، إننا لم نتحدث أبداً عن سنوات الحرب.

- الأفضل عدم الكلام عنها، قالت ميشالا وهي تصب مرقاً في الصحن.

- أعرف لكن الذكريات تعود أحياناً. بالنسبة لي لم تكن تلك فترة سيئة،

fb/mashro3pdf

على كل حال لم نكن بعد إلا أطفالاً، إنني أذكر العطلات الطويلة جداً، وإحساساً بالعبث التام، المسلّي تقريباً.

- بالنسبة لي ليس هناك عطلات، قالت ميشالا. كانت السماء تمطر طول الوقت.

- كانت تمطر؟

- هنا، قالت وهي تلمس جبينها. أمام عيني، وراء عيني، كان كل شيء مبللاً، مخضلاً بالعرق ومبللاً.

- كنت تسكنين هنا؟

- في البداية، نعم. وبعد ذلك، أثناء الاحتلال، أرسلت إلى منزل عمي في أنغيان.

نسي بيار أنه يمسك بعود ثقاب مشتعل، فتح فمه، وهز يده وشتم. ابتسمت ميشالا، مسرورة لأنها تستطيع أن تتكلم عن شيء آخر. وحين نهضت لإحضار الفاكهة، أشعل بيار سيجارته وراح يبتلع الدخان وكأنه يختنق، لكن الأمر مر، كل شيء له تفسير إذا بحثنا عنه، كم مرة تحدثت ميشالا عن أنغيان أثناء اجتماعاتهما في المقاهي، هذه العبارات التي تبدو بلا معنى وغير ذات بال إلى اللحظة التي تصبح فيها الموضوع المركزي لحلم أو لتأمل. ثمرة دراق، نعم، ولكن مقشّرة. آه، إنه يأسف لكن النساء كن دائماً يقشرن دراقاته وهو لا يرى لماذا تكون ميشالا استثناء عن ذلك.

- النساء، قالت ميشالا، إذا كن يقشرن دراقاتك، فلأنهن كنّ حمقاوات، مثلي. وسيكون الأفضل أن تطحن البن.

- إذن، كنت تعيشين في أنغيان؟ قال بيار وهو ينظر إلى يدي ميشالا بهذا القرف الخفيف الذي كان يحس به دائماً وهو يرى تقشير الفاكهة ثم قال: ماذا يفعل والدك أثناء الحرب؟

- أوه، ليس الشيء الكثير. كنا ننتظر أن ينتهي ذلك.

fb/mashro3pdf

- ألم يزعجه الألمان أبداً؟

- لا، قالت ميشالا وهي تدير الدراقة بين أصابعها المبللة.

- هذه أوّل مرة تقولين لي إنك سكنت في أنغيان.

أجابت ميشالا: لا أحب الحديث في ذلك الزمن.

- لكن كان عليك بالتأكيد أن تحدثيني عن ذلك، مرة واحدة على الأقل. هكذا قال بيار وهو يناقض نفسه. لست أدري كيف، لكنك كنت أعلم بأنك سكنت في أنغيان.

سقطت الدراقة في الصحن وكانت قطع من القشرة تلتصق باللب. ونظفت ميشالا الدراقة بسكين وأحس بيار بالغثيان الخفيف يعود، وأخذ يدير مقبض المطحنة بكل قوته. لماذا لا تقول له ميشالا أي شيء؟ كانت تبدو وكأنها تتألم في حين كانت منصرفة إلى تنظيف الدراقة الفظيعة اللزجة. لماذا لا تتكلم؟ إنها تفيض بالكلام، يكفي النظر إلى يديها، وخفقان جفنيها العصبي، الذي ينتهي أحياناً بنوع من العرة[1]، قسم كامل من الوجه يرتفع قليلاً ثم يهبط. لقد سبق له أن لاحظ عندها هذه العرّة، مرة، على مقعد في حديقة اللوكسمبورغ، وهذا يطابق دائماً عندها تضايقاً أو صمتاً.

كانت ميشالا تعد القهوة، وهي تولي ظهرها لبيار الذي كان يشعل سيجارة من عقب آخر. وعادا إلى الصالون، مع فنجانين من الصيني بخطوط زرقاء. أنعشتهما رائحة القهوة. أخذا يتبادلان النظر مندهشين من هذه الهدنة ومن كل ما سبق ذلك، وتبادلا بضع كلمات في هذه المسألة وتلك، وشربا قهوتهما في سرور كما يحتسى شراب المحبة الذي يوحدكم إلى الأبد.

أقفلت ميشالا مغالق النوافذ نصف إقفال، وكان يصل من الحديقة نور حار، أخضر قليلاً، كان يغمرهما مثل دخان السجائر والكونياك اللذين كان يتلذذ بهما بيار، ضائعاً في استرخاء دافىء. كان بوبي راقداً على السجادة، تهزه

---

(١) العرة: تشنج عضلي وخاصة في الوجه. (المترجم).

fb/mashro3pdf

رعشات وتنهدات.

- إنه يحلم طوال الوقت، قالت ميشالا، وهو أحياناً يئن، ويستيقظ منتفضاً، وينظر إلينا وكأنه اجتاز ألماً هائلاً، وهو ليس بعد سوى جرو...

إنها لمتعة كبيرة أن يكون هنا، وأن يحس براحة كبيرة في هذه اللحظة، وأن يغمض العينين، وأن يتنهد مثل «بوبي»، وأن يمرر يده في شعره، مرة، مرتين، وأن يحس بيده التي تمر في شعره وكأنها ليست له، والرعشة الخفيفة حين يصل إلى الرقبة، والراحة. فتح عينيه ورأى ميشالا، وفمها منفرج، شاحبة جداً حتى ليخيل إليه انه لم يبق فيها نقطة دم واحدة.

نظر إليها دون أن يفهم، وتدحرجت كأس الكونياك على السجادة. كان بيار واقفاً أمام المرآة وأثار هذا فيه تقريباً رغبة في الضحك لرؤيته أن شعره مفروق من النصف مثل أبطال السينما الشبان العشاق. ترى لماذا تبكي ميشالا؟ إنها لا تبكي، لكن وجهاً مخفياً بين اليدين، يعني دائماً أن شخصاً يبكي. وأبعد فجأة يديها، وقبلها في عنقها، والتمس وجهها. الكلمات تولد، كلماتها، كلماتهم، مثل حيوانات صغيرة دافئة تبحث عن بعضها، لقاء يتأخر في مداعبات، ورائحة القيلولة، هذه، والمنزل الوحيد، والسلّم الذي ينتظر مع كرته الزجاجية في أسفل الدرابزين. كان بيار يريد أن يحمل ميشالا بين ذراعيه، وأن يصعد الدرج راكضاً، إن المفتاح في جيبه، سيدخل إلى الغرفة، ويتمدد لصقها، ويحس بها ترتجف، وسيبدأ في البحث بارتباك عن أزرار، ولكن لا توجد كرة زجاجية في أسفل الدرابزين، كل شيء فظيع وبعيد، وميشالا هنا، على مقربة منه تماماً، هي بعيدة جداً وتبكي، وجهها الذي يبكي هو بين أصابعها المبللة، وجسدها الذي يتنفس، يخاف، ويدفعه.

ركع وأسند رأسه إلى ركبتي ميشالا. مرت ساعات، دقيقة أو اثنتان مرتا، إن الزمن هو ضرب مليء باللعاب وبضربات سوط. أصابع ميشالا تداعب شعر بيار وهو يرى وجهها مجدداً، ظل ابتسامة، ميشالا تمشط شعره

fb/mashro3pdf

بأصابعها، وتؤلمه تقريباً لشدة إلقائها شعره إلى الوراء، ثم تنحني، تقبله وتبتسم.

ـ لقد اخفتني، خلال لحظة كنت تشبه... ما أشد بلاهتي، لكنك تغيرت كثيرا!

ـ من الذي رأيته؟

ـ لا أحد، قالت ميشالا.

شد بيار نفسه إليها، وأحس أن باباً يتحرك، وأنه سوف ينفتح. تنفست ميشالا بصوت مسموع، إنها تشبه السبّاح الذي ينتظر صوت صفارة الانطلاق.

ـ لقد خفت لأن.. لست أدري، لقد جعلتني أفكر في...

تحركت، الباب يتحرك، السبّاحة تنتظر الإشارة للغوص. الزمن يتمدد مثل شريط من المطاط؛ حينئذٍ مد بيار ذراعيه واحتضن ميشالا. ونهض حتى ثغرها وقبله بعمق، وبحث عن ثدييها تحت البلوزة، سمعها تئن وأنَّ هو أيضاً وهو يقبلها؛ تعالي؛ تعالي الآن، وحاول رفعها بين ذراعيه (هناك خمس عشرة درجة وباب على اليمين)؛ سمع شكوى ميشالا، واحتجاجها غير المجدي؛ ونهض مجدداً وهو يحملها بين ذراعيه، غير قادر على أن ينتظر أكثر من ذلك، المسألة الآن، في هذه اللحظة بالذات، وعبثاً سوف تتشبث بالكرة الزجاجية (ولكن ما من كرة زجاجية في أسفل الدرج)، سوف يحملها إلى الأعلى إزاء وضد كل شيء، وحينئذٍ، كما نحو كلبة، لم يعد سوى عقدة من العضلات، كما نحو كلبة كما أنت، سيعلّمك هذا، أوه! يا ميشالا، أوه! يا حبيبتي، لا تبكي هكذا، لا تكوني حزينة، يا حبيبتي، لا تدعيني أسقط مجدداً في هذه البئر السوداء، كيف أمكنني أن أفكر على هذا النحو، لا تبكي، يا ميشالا.

ـ دعني، قالت ميشالا بصوت منخفض، وهي تتخبط للافلات. أخذت تدفعه، ونظرت إليه لحظةً وكأنه ليس هو، وكأنها لم تتعرف إليه، وهربت،

fb/mashro3pdf

وأقفلت باب المطبخ، وسمع مفتاحاً يدور، وجعل «بوبي» ينبح في الحديقة.

عكست المرآة لبيار وجهاً أملس، غير معبّر، وذراعين تتدليان مثل خرقتين، وقسماً من قميصه خارجاً من البنطال. وبحركة آلية أعاد القميص، وهو ما زال ينظر إلى نفسه في المرآة. كان حلقه مشدودا بحيث أن الكونياك كان يحرق فمه، ورفض أن ينزل، يجب أن يقسر نفسه بعنف ويستمر في الشرب من الزجاجة جرعة لا نهاية لها. كف «بوبي» عن النباح، ساد صمت قيلولة، والنور في المنزل هو أخضر أكثر فأكثر. خرج بيار إلى تحت السقيفة، وسيجارة بين شفتيه الجافتين؛ نزل على الدرجات، ومر أمام الدراجة النارية، واتجه نحو عمق الحديقة. كان يحس بطنين النحل وبفرشه إبر الصنوبر؛ وفجأة أخذ «بوبي» ينبح بين الأشجار وكانت نباحاته موجهة إلى بيار؛ وبغته راح يدمدم وينبح دون أن يقترب، ولكن بشراسة.

أصابه الحجر في وَسَط ظهره، زمجر «بوبي» وفر، وعاد ينبح مجدداً في مكان أبعد قليلاً. صوّب بيار بعناية وأصاب إحدى قوائم «بوبي». اختفى «بوبي» وراء أجَمَات الشجر. «يجب أن أجد مكاناً، أفكر فيه» قال بيار في نفسه. «يجب أن أعثر فوراً على مكان أستطيع أن أختبىء فيه وأفكر». انزلق ظهره مقابل جذع صنوبرة، وارتمى على الأرض. كانت ميشالا تنظر إليه من نافذة المطبخ. مؤكد أنها رأتني أرمي الكلب بحجر، وهي تنظر إليّ كأنها لا تراني، هي تنظر إليّ ولا تبكي، هي لا تقول أي شيء، إنها وحدها تماماً في النافذة، يجب أن أقترب وأن أكون طيباً معها، أريد أن أكون طيباً، أريد أن أتناول يدها وأقبل أصابعها، كل اصبع إحداها بعد الأخرى، وبشرتها الناعمة جداً.

- في أي شيء نلعب نحن، يا ميشالا؟

- آمل أن لا تكون قد آلمته.

- لقد ألقيت عليه حجراً لكي أخيفه. ويبدو كأنه لم يعرفني، مثلك.

- لا تقل حماقات.

fb/mashro3pdf

- وأنت، لا تقفلي الأبواب بالمفتاح.

تركته ميشالا يدخل، وقبلت دون مقاومة الذراع التي طوقت قامتها. الصالون أكثر ظلاماً، ولم يعد يرى تقريباً أسفل السلّم.

- اعذريني، قال بيار، لا أستطيع أن أوضح لك. المسألة حمقاء تماماً.

رفعت ميشالا الكأس الساقطة وأقفلت زجاجة الكونياك. وكان الحر يتزايد، وكان يبدو أن المنزل يتنفس بصعوبة من فميهما. منديل تفوح منه رائحة الطحلب مسح العرق عن جبين بيار. أوه، يا ميشالا، كيف نستطيع أن نستمر على هذا النحو، دون أن نتحادث، دون أن نريد محاولة فهم هذا الشيء الذي يمزقنا بالضبط في اللحظة التي... نعم، يا حبيبتي، أريد أن أجلس قربك وسأكون هادئاً. سأقبّلك، سأضيع في شعرك، في عنقك، ويجب أن تفهمي أنه لا يوجد أي سبب لكي... نعم، يجب أن تفهمي أنني حين أريد أن أضمك بين ذراعي وآخذك معي، وأصعد إلى غرفتك دون أن أؤذيك، ورأسك على كتفي...

- لا، يا بيار، لا. ليس اليوم، أتوسل إليك.

- ميشالا، ميشالا.

- أتوسل إليك.

- لماذا؟ قولي لي لماذا؟

- لست أدري. سامحني. لا تؤاخذ نفسك على شيء. الذنب كله ذنبي. لكن لدينا وقتاً، كل الوقت.

- لا ننتظرنّ أكثر من هذا، ميشالا، الآن.

- لا يا بيار، ليس اليوم.

- لكنك وعدتيني، قال بيار بحماقة.

fb/mashro3pdf

لقد جئنا إلى هنا، منذ زمن طويل جداً، منذ زمن طويل جداً انتظر أن تحبيني قليلاً. إنني لا أعرف ما أقول، الكلمات تلوث كل شيء.

- لو كنت تستطيع أن تسامحني، لو أنني...

- كيف أستطيع أن أسامحك إذا كنت لا تتكلمين، وإذا كنت أعرفك بالكاد؟ ماذا هناك لكي أسامحك عليه؟

كان بوبي يهمهم تحت السقيفة. والحرارة تلتصق ببشريتهما، وبثيابهما، وبتكتكة بندول ساعة الجدار، وكان الحر يلصق الشعر على جبهة ميشالا.

- أنا أيضاً لا أعرفك كثيراً، ولكن ليست هذه هي المسألة... سوف تعتقد أنني مجنونة.

أخذ بوبي يهمهم مجدداً.

- كان ذلك قبل أعوام، قالت ميشالا وهي تغمض عينيها، كنا نسكن في انغيان. لقد سبق وقلت لك هذا. أعتقد أنني سبق وقلت لك إننا كنا نسكن في أنغيان. لا تنظر إليّ هكذا.

- إنني لا أنظر إليك، قال بيار.

- بلى، إنك تؤلمني.

هذا ليس صحيحاً، إنه لا يمكنه أن يؤلمها، وذلك ببساطة لأنه ينتظر كلماتها، لأنه ينتظر ساكناً أن تتابع كلامها، وهو ينظر إلى شفتيها المتحركتين بصعوبة، والآن سوف يحدث هذا، سوف تضم يديها وتتوسل، وتتفتح زهرة نعيم في حين هي، ميشالا، تتوسل، وتتخبط، وتبكي بين ذراعيه، زهرة ندية تتفتح، متعة أن يراها تتخبط عبثاً... دخل «بوبي» وهو يجر ساقه وذهب ليتمدد في زاوية. «لا تنظر إلي هكذا» قالت ميشالا وأجاب بيار: «إنني لا أنظر إليك» لكنها قالت بلى، إنك تنظر إليّ، وأن هذا يؤلمها أن تحس بأنه يُنْظر إليها على هذا النحو، في حين نهض بيار فجأة، ونظر إلى «بوبي»، ونظر إلى نفسه في المرآة، ومسح على وجهه بيده، وتنفس بأنين طويل، بصفير

fb/mashro3pdf

طويل، ووقع فجأة على ركبتيه أمام الأريكة؛ خبأ وجهه بين يديه، متشنجاً، لاهثاً، يحاول انتزاع الصور التي تلتصق بوجهه ـ مثل شبكة عنكبوت ـ مثل أوراق يابسة، تلتصق بوجهه المغمور بالعَرَق.

ـ أوه، بيار، قالت ميشالا بصوت ضعيف.

كانت الدموع التي لا يستطيع حبسها تمر بين أصابعه، وتملأ الهواء بمادة مرتبكة، وتتولد باصرار، وتستمر.

ـ بيار، بيار، قالت ميشالا. لماذا يا حبيبي، لماذا؟

أخذت تداعب شعره على مهل، ومدت له منديلها برائحة الطحلب.

ـ أنا أحمق مسكين، سامحيني. كنت تقولين لي... تقو... لين...

نهض، ثم ارتمى على الجانب الآخر من الكنبة. لم ير أن ميشالا قد انطوت فجأة على نفسها، وأنها تنظر إليه من جديد مثل المرة التي هربت فيها. كرر قوله: «كنت تقولين... لي...». بجهد. كان حلقه معقوداً، ولكن ما معنى هذا؟ عاد «بوبي» إلى الهمهمة. وميشالا الواقفة تراجعت، تراجعت دون أن تكف عن النظر إليه، ما معنى هذا، لماذا رد الفعل هذا الآن، لماذا تذهب، لماذا؟ ضجة الباب الذي انصفق تركته لامبالياً. ابتسم، رأى ابتسامته في المرآة، ابتسم أيضاً.

Als alle Knospen sprangen

هكذا أخذ يدندن، مشدود الشفتين، ساد صمت، ثم تكتكة الهاتف الذي يرفع، حرف، اثنان، ثلاثة حروف، الرقم الأول، ترنح بيار، وقال في نفسه بغموض أن عليه الذهاب ليتفاهم مع ميشالا، لكنه أصبح في الخارج قرب الدراجة النارية. «بوبي» يهمهم تحت السقيفة، والمنزل يعكس بشدة صوت إقلاع الدراجة النارية، السرعة الأولى، صعود الشارع، السرعة الثانية، تحت الشمس.

ـ كان ذلك هو نفس الصوت، يا بابيت، وحينئذٍ أدركت أن...

fb/mashro3pdf

- يا حمقاء، قاطعتها بابيت. أعتقد أنني لو كنت قربك إذن لانهلت بالضرب الشديد على قفاك.

- بابيت، ألا تستطيعين...

- ولكن لماذا؟ قالت بابيت، بكل تأكيد، سوف آتي، ولكن هذه حماقة.

- كان يتلعثم في كلامه، يا بابيت، أقسم لك... ليست هذه هلوسة، لقد قلت لك أنني قبلاً... كان ذلك وكأنّ من جديد... تعالي بسرعة، لا أستطيع أن أشرح لك في الهاتف... لقد سمعت صوت الدراجة النارية. لقد ذهب، أنا متألمة جداً حياله، كيف يستطيع فهم ما يحدث لي، لكنه هو أيضاً كان كالمجنون، ما أغرب هذا، يا بابيت!

قالت بابيت بصوت محايد: كنت أظنك قد شفيت من هذا كله، على كل حال بيار ليس أبله، سوف يفهم، وكنت أعتقد أنه عارف بالمسألة منذ زمن طويل.

- كنت على وشك أن أقول له، أردت أن أقول له، وفي تلك اللحظة بالذات... بابيت أقسم لك أنه أخذ يتلعثم في كلامه، وقبل... قبل...

- لقد سبق وقلت لي هذا. إن رولان هو أيضاً يغير تسريحته، لكن هذا لا يمنعك من معرفته، بحق الشيطان!

- والآن ذهب، كررت ميشالا بصوت رتيب.

- سوف يعود، قالت بابيت، حسناً، أعدّي شيئاً للأكل لرولان الذي يزداد جوعاً باستمرار.

- إنك تفترين علي، قال رولان من الباب. ماذا يحدث لميشالا؟

- فلنذهب، قالت بابيت، فلنذهب على الفور.

يقاد العالم باسطوانة من المطاط تمسك باليد؛ إذا أدرنا قليلاً نحو

fb/mashro3pdf

اليمين، لا تعود الأشجار كلها سوى شجرة واحدة ممدودة على طول الطريق؛ وإذا أدرنا قليلاً نحو اليسار، حينئذٍ يتفكك العملاق الأخضر إلى مئات من أشجار الحور التي تركض لملاقاتك، وتتقدم أبراج التوتر العالي على مهل واحداً بعد آخر، والمسيرة هي إيقاع سعيد تستطيع الكلمات أن تدخل فيه أخيراً، ومزق من الصور ليست هي صور الطريق، والاسطوانة المطاطية تدور نحو اليمين، وتتصاعد الضجة، وتتصاعد، ويمتد حبل الضجة بصورة لا تحتمل، لكنه لم يعد يفكر، كل شيء لم يعد سوى آلة، جسم ملتصق بالآلة وهواء شديد على الوجه مثل نسيان، كورباي، أرباجون، لينـاس، مونتليري، أشجار الحور من جديد، محرس[1] الشرطي، النور البنفسجي أكثر فأكثر، هواء طازج يملأ الفم المنفرج، إبطاء السير، إبطاء السير، عند هذا المفترق انعطف إلى اليمين، باريس على بعد ٨ كيلومترات، باريس على بعد ١٧ كيلومتراً، «ولم أقتل نفسي» هكذا فكر بيار وهو يأخذ، على مهل، الطريق اليسرى. «أمر لا يصدق أنني لم أقتل نفسي». التعب يثقل عليه وكأن راكباً يجلس وراءه، شيء أكثر فأكثر لطفاً وضرورة. أعتقد أنها ستسامحني، فكر بيار. نحن كلانا سخيفان، يجب أن تفهم هي، أن تفهم، أن تفهم، فنحن لا نعرف أي شيء بصورة صحيحة قبل أن نتحابب، أريد شعرها في يدي، وجسدها، أريده، أريده... الغابة تنتصب على جانب الطريق، والأوراق اليابسة تجتاح الطريق، تدفعها الريح. بيار ينظر إلى الأوراق اليابسة التي تفترسها الدراجة النارية وتحركها أمامها، والاسطوانة المطاط تعود للدوران نحو اليمين، أكثر فأكثر. وفجأة ها هي كرة زجاجية تلمع قليلاً في أسفل الدرابزين. لا لزوم لترك الدراجة النارية بعيداً عن الفيللا، لكن بوبي سوف ينبح، إذن فالأفضل إخفاء الدراجة النارية وراء الأشجار. وصل سيراً على الأقدام، عند آخر أضواء النهار، ودخل إلى الصالون لكن ميشالا لم تكن جالسة على الصوفا، لم يكن هناك سوى زجاجة الكونياك والكؤوس، وباب المطبخ ما زال مفتوحاً، وكان يصل منه ضوء

(١) محرس: كوخ الحراسة. (المترجم).

fb/mashro3pdf

محمّر، الشمس التي تغيب في عمق الحديقة، الصمت في كل مكان، الأفضل العودة نحو السلّم، مستهدياً بالكرة الزجاجية التي تلمع، لكن لا، إنها عينا «بوبي» الراقد على الدرجة الأولى من السلّم، «بوبي» الواقف الشعر، وهو يهمهم بصوت منخفض جداً، المرور من فوق بوبي، الصعود بلطف لكي لا تقرقع الدرجات، لكي لا يخيف ميشالا، الباب منفرج، كيف حدث أن الباب منفرج وأنه ليس لديه المفتاح في جيبه، ولكن إذا كان الباب منفرجاً فهو لا يحتاج إلى مفتاح، متعة حقيقية أن يمرر يده في شعره وهو يتقدم نحو الباب، يدخل وهو يدفعه قليلاً بقدمه اليمنى، وهو يدفع الباب بالكاد، فينفتح بلا صوت، وميشالا الجالسة على حافة السرير ترفع عينيها وتنظر إليه. إنها ترفع يديها إلى فمها، خيل إليه أنها ستصرخ، ولكن لماذا ليس شعرها محلولاً لماذا لا ترتدي قميص نوم أزرق، فهي ترتدي بنطالاً، وتبدو أكبر سناً، وفجأة ابتسمت، وتنهدت، ونهضت باسطة ذراعيها: «بيار، بيار». بدلاً من أن تضم يديها، وتتوسل، وتتخبط، لفظت اسمه وهي تنتظره، نظرت إليه وارتجفت قليلاً، من السعادة أو من الخجل، مثل الكلبة التي هي، كان يراها جيداً بالرغم من كثافة الأوراق اليابسة التي ما زالت تقفز إلى وجهه والتي ينتزعها بيديه ولكن في حين كانت ميشالا تتراجع، وتتعثر مقابل حافة السرير، وتنظر في يأس وراءها وتصرخ، المتعة التي تتصاعد وتغمره، إنها تصرخ، خذي، ها هو شعرها بين أصابعها، خذي، عبثاً تتوسلين، خذي، والآن يا كلبة خذي.

* * *

لكن هذه قصة قديمة، انتهى البحث فيها. منذ زمن طويل، قال رولان وهو ينعطف بصورة خطرة.

- هذا ما كنت أعتقده، ثم ها هي المسألة تبعث مجدداً، والآن بالضبط.

- ليس في هذا ما يدهش. أنا نفسي، أعود وأفكر في هذا أحياناً منذ بعض الحين. الطريقة التي قتل بها ذلك الشخص، لا يمكن أن تنسى بسهولة. على كل حال، ما كان يمكن القيام بشيء آخر في ذلك الحين، قال

fb/mashro3pdf

رولان وهو يضغط بشدة على دواسة البنزين.

- إنها لم تعرف أي شيء، قالت بابيت. فقط إنه قتل بعد ذلك بوقت قليل. كان ينبغي تماماً أن يقال لها هذا على الأقل، وكان هذا من العدل تماماً.

- بلا شك، لكنه هو، لم يبد له هذا من العدل إطلاقاً. أتذكر هيئته حين أخرجناه من السيارة في قلب الغابة.. لقد أدرك على الفور أن أمره قد انتهى، وأنه لا أمل له إطلاقاً، كان شجاعاً، هذا نعم.

قالت بابيت: من الأسهل دائماً أن يكون الشخص شجاعاً من أن يكون إنساناً. افتراس طفلة... حين أفكر في ما توجب علي القيام به لكي لا تنتحر ميشالاً... تلك الليالي الأولى... ولا يدهشني أن تعود كما كانت عليه، هذا شيء طبيعي تقريباً...

دخلت السيارة بأقصى سرعتها إلى شارع الفيللا.

- أجل، كان نذلاً، الآري النقي كما كانوا يقولون حينئذٍ. لقد طلب سيجارة، طبعاً، الاحتفال الكامل. لقد أراد أن يعرف أيضاً لماذا نصفيه، وأوضحنا له ذلك، طبعاً أوضحنا له ذلك. حين أفكر فيه، فذلك على الأخص في تلك اللحظة، أراه مجدداً، وهيئته المزدرية المندهشة، وطريقته الأنيقة تقريباً في التلعثم. وأتذكر كيفية سقوطه، ووجهه ممزق ألف مزقة بين الأوراق اليابسة.

- أرجوك، هذا يكفي.

- لقد استحق ذلك تماماً، ثم إننا لم تكن لدينا أسلحة أخرى. خرطوشة صيد، إذا صوبت جيداً... المنزل إلى اليسار، هناك، في العمق، أليس كذلك؟.

- نعم، إلى اليسار.

- آمل أن يكون هناك كونياك، قال رولان وهو يبدأ في كبح الفرامل.

* * *

fb/mashro3pdf

الراصد

لذكرى ش. ب
كن مخلصاً حتى الموت
سفر الرؤيا، ٢ - ١٠
هيا واصنع لي قناعاً

دايلان توماس

اتصلت ديديه بي هاتفياً لتقول لي إن جوني ليس في حالة صحية جيدة، فذهبت فوراً لزيارته.

وديديه وجوني يعيشان منذ بعض الحين في فندق بشارع «لاغرانج»، في غرفة بالطبقة الرابعة. ولمجرد رؤيتي باب الغرفة، عرفت أن جوني يعاني أسوأ درجات البؤس، والنافذة تطل على باحة سوداء، وفي الساعة الواحدة بعد الظهر، يجب إضاءة النور إذا أردت قراءة الصحيفة أو رؤية الشخص الذي تحدثه.

لم يكن الطقس بارداً لكنني وجدت جوني متدثراً بغطاء، وغاصاً في عمقِ فوتيل أجرب، تتدلى من جميع جوانبه ذوائب كبيرة من الكتان الأصفر. لقد شاخت ديديه، وهذا الفستان الأحمر لا يناسبها، إنه ثوب عمل صنع لأضواء المسرح؛ وفي غرفة الفندق هذه يصبح أشبه بجلطة حمراء منفرة.

- الصديق برونو هو مخلص مثل النَفَس الكريه، هكذا قال جوني بمثابة

fb/mashro3pdf

تحية، وهو يرفع ركبتيه حتى ذقنه. وقربت ديديه إليَّ كرسياً، وأخرجت أنا علبة سجائر «غولواز». كان لديّ في الحقيقة زجاجة «روم» لكنني لم أكن أريد إظهارها قبل أن أعرف قليلاً عن حالتهما. وكان أكثر ما يضايقني، كما أعتقد، هي اللمبة التي كانت تتدلى من السقف في نهاية سلك أسود من براز الذباب، مثل عين مُقْتَلَعَة. وبعد أن نظرت إلى اللمبة مرة أو مرتين واضعاً يدي كحاجز أمام عيني، سألت ديديه إذا لم يكن بالإمكان إطفاؤها، وما إذا لم يكن النور الآتي من النافذة كافياً. كان جوني يتابع كلماتي وحركاتي بانتباه كبير شارد، مثل قط ينظر إليك نظرة ثابتة لكنه يفكر بصورة ظاهرة في شيء آخر، هو شيء آخر، وانتهى الأمر بديديه أن نهضت وأطفأت النور. وفي ما بقي من ضوء النهار، وهو مزيج من الرمادي والأسود، تميزنا بعضنا بصورة أفضل، أخرج جوني إحدى يديه الطويلتين الهزيلتين من تحت الغطاء وأحسست بالسخونة الرخوة لبشرته. حينئذٍ قالت ديديه إنها سوف تحضر فناجين نيسكافيه. وقد سرني أن أرى أن لديهما على الأقل علبة نيسكافيه، فحين يكون لدى المرء علبة نيسكافيه، فذلك أنه ليس بعد في حالة بؤس تماماً، بل إنه ما زال لديه شيء يصمد به.

ـ منذ حين لم نتقابل. قلت لجوني. شهر على الأقل.

ـ كل ما تعرف أن تفعله، أنت، هو أن تقيس الزمن. أجابني بمزاج سيء. الأول، الثاني، الثالث، الحادي والعشرون: إنك تضع رقماً على كل شيء، أنت. والأخرى، هناك، هي مشابهة لك تماماً. اتعرف لماذا هي غاضبة؟ لأنني أضعت الساكسو[1] وهي على حق. لاحظ.

ـ ولكن كيف حدث أن أضعته؟ سألت، وأنا أعرف أن هذا هو بالضبط السؤال الذي لا ينبغي طرحه.

ـ في المترو، أجاب جوني. لأجل أمان أكثر، وضعته تحت مقعدي.

---

(١) المقصود الساكسوفون (أو «السكسكية»)، وهي آلة موسيقية معروفة، ومفضلة لدى عازفي الجاز الأحاديين، مثل بطل هذه القصة، جوني. (المترجم).

fb/mashro3pdf

كان الأمر هائلاً أن أسافر وأنا عارف أنه تحت ساقيَّ، في أمان تام.

ـ لقد أدرك أنه لم يعد لديه، وهو يصعد سلّم الفندق، قالت ديديه بصوت أبح بعض الشيء، وأنا اضطررت للانطلاق مثل مجنونة لابلاغ الشرطة.

ومن الصمت الذي تلا ذلك، فهمت أنهما لم يعثرا على الآلة. لكن جوني جعل يضحك كما يعرف هو وحده أن يفعل، بضحكة تتجاوز كثيراً الأسنان والشفتين.

قال: يوجد في هذه اللحظة بائس مسكين لا بد أنه يحاول أن ينتفع به في شيء ما. كان ذلك واحداً من أردأ الساكسو التي حصلت عليها في أي وقت من الأوقات.

كان ظاهراً أن دوك رودريغيز قد استعمله، فقد كان مشوهاً في جانب من روحه. ومن ناحية كونه آلية، لم يكن سيئاً، لكن رودريغيز قادر على أن يخرب كمان ستراديفاريوس بدوزنته فقط.

ـ أفلا تستطيع أن تحصل على ساكسو آخر؟

ـ هذا ما ننظر فيه حالياً. قالت ديديه.

ويبدو أن روري فريند لديه واحد. والمشكلة هي أنه مع عقد جوني...

قاطعها جوني وهو يقلد كلامها: العقد... العقد! أنت تقولين! يجب العزف، نقطة وانتهى. أنا ليس لدي لا ساكسو ولا نقود لشراء واحد، والاصدقاء كلهم في نفس الورطة، مثلي.

هذا، لم يكن صحيحاً وكنا نعرف ذلك نحن الثلاثة. فقط لم يعد أحد يجازف بإعارة آلة موسيقية لجوني: فهو إما أن يضيعه، أو يتلفه في أقل من يومين. لقد أضاع ساكسو لويس رولينغ في بوردو، وقد حطم وداس بقدميه الساكسو الذي اشترته له ديديه أثناء جولته في إنكلترا. ولا يعرف أحد كم من الآلات أضاع أو حطم أو رهن. لكنه عليها جميعاً كان يعزف كما يستطيع إلّه

fb/mashro3pdf

ولده أن يعزف على الساكسو ـ ألتو، على افتراض أنه ـ أي جوني ـ قد تخلى عن القيثارات والنايات.

ـ متى ستبدأ، يا جوني؟

ـ لست أدري. اليوم كما أعتقد. أليس كذلك، يا ديه؟

ـ كلا، بل بعد غد.

ـ الجميع يعرف المواعيد، ما عداي، هكذا دمدم جوني متذمراً وهو يرفع الغطاء نحو أذنيه. وأضاف: كان يمكن أن أقسم بأنني يجب أن أذهب هذا المساء للتمرين، أي بعد ظهر اليوم.

قالت ديديه: المسألة سيان. والمهم أنه ليس لديك ساكسو.

ـ كيف، الأمر سيان؟ هذا يغير كل شيء، بالعكس. فبعد غد هو بعد غد، والغد هو وقت لا بأس بطوله، بعد اليوم. واليوم، بالذات، هو بعد الآن، الآن ونحن ندردش مع الصديق برونو، وسأشعر بأنني في حالة أفضل بكثير إذا كنت أستطيع نسيان الزمن وأن أشرب شيئاً دافئاً.

ـ الماء سيغلي: انتظر قليلا.

ـ لم أكن أتكلم عن الحرارة بغليان الماء، قال جوني.

حينئذٍ أخرجت زجاجة الروم وكان الأمر فجأة كأنما أضيء النور؛ فتح جوني فمه على اتساعه، مندهشاً، وأخذت أسنانه تلتمع، وديديه نفسها لم تتمالك نفسها من الابتسام وهي تراه مندهشاً ومسروراً بهذا المقدار. الروم والنيسكافيه، كان لا بأس بهما معاً، وأحسسنا بأننا في حال أفضل بكثير نحن ثلاثتنا بعد سيجارة وكأس صغيرة. في هذه اللحظة بدأ جوني ينسحب إلى داخل ذاته وهو يواصل القيام بتلميحات إلى الزمن. هذا موضوع يشغله منذ البدء. وقليل هم الأشخاص الذين عرفتهم تحت هذا الهاجس الشديد إزاء كل ما يتعلق بالزمن. إنه هوس، وأسوأ حالات الهوس التي تعتريه، ويعرف الله كم لديه منها، لكنه يفسّره ويبرره بشكل غريب ومضحك بحيث لا يستطيع

fb/mashro3pdf

أحد أن يقاومه . وقد ذكرني جوني بتدريب قبل عملية تسجيل ، في سينسيناتي . كان ذلك في عام ٤٩ أو ٥٠ ، قبل عودته إلى باريس بزمن طويل . كان حينئذٍ بحالة جيدة من الاستعداد ، وذهبت إلى جلسة التسجيل لمجرد متعة سماعه ، هو ، ومايلس دايفس ، كانا كلاهما يرغبان في العزف ، وكانا كلاهما مسرورين ، وفي ملابس جيدة . (أتذكر هذا بلا شك بفعل التضاد ، فجوني هو الآن قذر جداً ورث الثياب) كانا يعزفان بمتعة ، دون نفاد صبر ، وكان مهندس الصوت يقوم بإشارات محبذة وراء زجاجة مثل قردح[1] مسرور . وفجأة ، في اللحظة التي بدا فيها جوني غارقاً في بهجته ، ها هو يتوقف ويلكم بقبضته مايلس قائلاً : «هذا ، أنا أقوم بعزفه غداً» ، توقف الفتيان تماماً ، هم أيضاً (اثنان أو ثلاثة استمروا في العزف خلال بضعة أنغام ، مثل قطار يكبح عجلاته قبل أن يتوقف ساكناً) وكان جوني يضرب على جبينه ، ويردد : «هذا سبق أن عزفته غداً ، هذا فظيع» يا مايلس ، هذا ، لقد سبق أن عزفته غداً . ولم يكن بالإمكان إخراجه عن هذا الموقف . وفشلت جلسة التسجيل . وراح جوني يعزف بدون اندفاع ، وكان يرغب في الانصراف . (لكي يتناول المخدرات ، هكذا قال مهندس الصوت ، الميت من الغضب) وحين رأيته - أي جوني - ينصرف ، مترنحاً ، ووجهه بلون الرماد ، رحت أتساءل إذا كان هذا يمكن أن يستمر زمناً طويلاً أيضاً .

- أعتقد أنني سأستدعي الدكتور برنارد ، قالت ديديه وهي تنظر من زاوية عينها إلى جوني ، الذي كان يشرب كأس الروم بجرعات صغيرة . أنت محموم ولا تأكل أي شيء .

قال جوني وهو يلحس كأسه : الدكتور برنارد ليس سوى أحمق . سوف يوصي لي بأسبرين وبعد ذلك سيقول إنه يحب الجاز كثيراً ، راي نوبل مثلاً . هل لاحظت ، يا برونو؟ لو كان لدي ساكسو لاستقبلته بإحدى هذه الموسيقات

---

(١) قردح Babouin : نوع من السعادين الأفريقية من فصيلة كلبيات الرأس . وتقال الكلمة أيضاً عن ولد مشاغب . (المترجم).

fb/mashro3pdf

التي ستجعله يهبط السلم على قفاه، وهو يقفز على كل درجة.

قلت وأنا أغمز ديديه بطرف عيني: على كل حال، لن يضرك أن تتناول قليلاً من الأسبرين. وإذا أردت، سأتصل هاتفياً بالطبيب لدى انصرافي، وهكذا لن تكون ديديه بحاجة للنزول. ولكن قل لي، وهذا العقد؟... إذا كنت ستبدأ بعد غد، أعتقد أنه سيمكن القيام بشيء ما. أستطيع أن أحاول استعارة ساكسو من روري فريند، وبوضع الأمور في أسوأ حالاتها... فقط، ما سيلزم أيضاً هو أن تعتني بنفسك.

قال جوني وهو ينظر إلى زجاجة «الروم»:

- ليس اليوم، بل غداً، حين سأحصل على السّاكسو. إذاً. لا ضرورة اليوم، للتحدث عن هذا الأمر، يا برونو، أنا أعتقد أن الموسيقى تساعد في فهم أفضل لهذه المسألة. أقصد، ليس في الفهم تماماً، ذلك في الأساس لأنني لا أفهم أي شيء من هذه المسألة. وكل ما أستطيع فعله هو أن ألاحظ بأن ثمة شيئاً ما. مثل هذه الأحلام، كما تعلم، حيث يحس المرء بأن الأمر سيكون مآله سيئاً، وحيث يكون خائفاً بعض الشيء بصورة مسبقة؛ ولكن نظراً لأننا لسنا واثقين من أي شيء، على كل حال، فإن الحلم يمكن أن يتحول تماماً، ويجد الشخص نفسه في السرير مع فتاة هائلة ويعتقد أنه يمسك الله عز وجل من قدميه.

كانت ديديه منهكة في غسل الفناجين والكؤوس في زاوية من الغرفة. إنهما ليس لديهما حتى الماء الجاري؛ ورأيت طشتاً مزيناً بأزهار وردية وإبريقاً جعلني أفكر في حيوان محنَّط. وتابع جوني كلامه، وفمه نصف مغطى بالغطاء، وهو أيضاً كان يبدو كأنه محنط، بركبتيه المرفوعتين حتى ذقنه، ووجهه الأسود والأملس الذي كان الروم والحمى يجعلانه لامعاً.

- لقد قرأت كثيراً من الأشياء حول هذه المسألة، يا برونو؛ هذا شيء غريب جداً، وصعب جداً... وأعتقد أن الموسيقى تساعدك قليلاً، أنت تعرف، لا في الفهم، ذلك، في الواقع، انني لا أفهم شيئاً.

fb/mashro3pdf

ضرب رأسه بقبضته المطبقة ورن رأسه مثل جوزة هند فارغة.

- لا يوجد هنا شيء. يا برونو، ما يسمّى شيئاً. هذا لا يفكر وهذا لا يفهم أي شيء. وأقول الحق إن هذا لم يشعرني يوماً بنقص، فأنا أبدأ بالفهم بواسطة العينين وكلما نزلت نحو الأسفل كلما فهمت بصورة أفضل، وإن كان لا يمكن أن يسمى هذا فهماً.

- سوف تسبب لنفسك ارتفاعاً للحمّى. قالت ديديه محتجةً من عمق الغرفة.

- أوه! لا بأس! . . . هذا صحيح، يا برونو، إنني لم يسبق لي أبداً أن فكرت، ما يسمى تفكيراً. إنني لا ألمح الأشياء إلاّ في ومضات كالبرق. لكن هذا لا يفيد في شيء، أليس كذلك؟ فماذا يفيد أن نعرف أننا فكرنا في شيء ما؟ هذا كما لو أن أحداً فكر نيابةً عنك. أنا، ليس أنا. إنني أستفيد مما أفكر (فيه) ولكن دائماً بعد ذلك، وهذا ما يدفعني إلى الغضب. آه! إن هذا صعب، صعب جداً. . . ألم تبق ولا قطرة واحدة؟

أعطيته آخر قطرات الروم وذلك بالضبط حين أضاءت ديديه النور مجدداً. لم تكن هناك رؤية في الغرفة تقريباً. كان جوني يرشح عرقاً لكنه ظل متدثراً بالغطاء. وبين حين وآخر كانت رعشة تهزّه وتسبب صرير الفوتيل.

- لقد وعيت هذه المسائل حين كنت صبياً صغيراً، منذ أن بدأت أعزف على الساكسو. وكانت هناك دائماً ضجة فظيعة في المنزل، ولم يكونوا يتكلمون إلاّ عن الديون والرهونات. هل تعلم ما هو الرهن؟ لا بد أنه شيء فظيع، كانت العجوز تنتف شعرها حين كان الشيخ يتكلم عن ذلك، وكان الأمر ينتهي دائماً بضربات. أنا كنت في سن الثالثة عشرة حينئذٍ. . . لكنك تعرف قبلاً القصة.

أصدقك أنني أعرفها وقد حاولت أن أرويها قدر استطاعتي في كتاب السيرة الذي ألفته عن جوني.

- لهذا السبب لم يكن الزمن ينتهي في المنزل. كنا ننتقل من شجار إلى

fb/mashro3pdf

شجار، دون أن نأكل أبداً، تقريباً؛ آه، يا صديقي، أنت لا تستطيع أن تعرف. وحين أعطاني المعلم آلة ساكسو، ساكسو كنت ستموت من الضحك لو رأيت، أعتقد أنني فهمت على الفور، كانت الموسيقى تخرجني من الزمن؛ أقصد، هذه طريقة للكلام، إذا كنت تريد أن تعلم ما كنت أحسه حقاً، أعتقد بالأصح أن الموسيقى كانت تضعني في الزمن. ولكن زمن لا علاقة له بـ. . . حسناً، بنا نحن، إذا شئت.

وإذا لم تكن هذه أوّل مرة يروي لي فيها جوني هلوساته، فقد كنت أصغي بهيئة انتباه ولكن دون أن أهتم كثيراً بما يقول. وكنت أتساءل في المقابل كيف استطاع أن يحصل على المخدرات في باريس. وسيكون علي أن أسأل ديديه، وأن أستبعد تواطؤها الممكن. إن جوني لن يصمد طويلاً في هذه الحالة. إن المخدرات والبؤس لا يتعايشان جيداً. وأخذت أفكر في الموسيقى التي ستضيع، وبعشرات الاسطوانات حيث سيتمكن جوني من أن يترك لنا فيها هذا الحضور، هذا التفوق المدهش الذي يحوزه إزاء أي موسيقي آخر. «أنا أقوم بعزف هذا غداً»، بدت لي فجأة واضحة جداً. إن جوني يقوم دائماً بالعزف غداً والآخرون هم دائماً متأخرون عنه، وفي أعقابه. في هذا اليوم الذي يقفز أمامه دون جهد منذ الأنغام الأولى.

إنني ناقد جاز حساس كفاية بحيث أحس بحدودي وأفهم أن ما أفكر فيه هو تحت المستوى الذي يحاول أن يتقدم فيه جوني المسكين بعباراته المبتورة، وتنهداته، وحالات غضبه المفاجئة، وبكائه. إنه لا يبالي، هو، في أن أجده عبقرياً وهو لم يستمد أبدا مجدا من موسيقاه التي تتجاوز كثيراً تلك التي يعزفها رفاقه. كنت أفكر في أسى بأنه هو في «بداية» آلته الساكسو، وأنني أنا «في النهاية». إنه هو، الفم، وأنا، الأذن، لكي لا أقول إنه هو الفم وأنا. . . إن كل ناقد، ويا للأسف، هو نتيجة لشيء بدأ مثل نكهة، مثل لذة العض والمضغ. والفم يتحرك مجدداً، ولسان جوني الكبير الشره يلتقط دفقة صغيرة من اللعاب كانت تسيل على شفتيه. ويداه ترسمان خطوطاً منحنية في الهواء.

fb/mashro3pdf

ـ برونو، لو أنك تستطيع أن تكتب يوماً كل هذا . . . لا من أجلي، أنت تفهم، فماذا يمكن أن يهمني هذا. ولكن يجب أن يكون هذا جميلاً، أنا أحس بأن هذا يجب أن يكون جميلاً. كنت أقول إنني منذ أن بدأت أعزف، وأنا بعد ولد صغير، لاحظت أن الزمن كان يتغير. وقد رويت هذا مرة لـ «جيم»، وقال لي إن الجميع يحسون بنفس الشيء منذ أن يبدأوا بالتجريد . . . هذا ما قاله «ما أن نبدأ بالتجريد». لكنني لا أتجرد، أنا، حين أعزف، إنني أُغير مكاني فقط. المسألة كما يحدث في المصعد: إنك فيه، وتتحدث مع أشخاص، ولا تحس بأي شيء خارق، وخلال هذا الوقت تتجاوز الطبقة الأولى، ثم العاشرة، ثم العشرين، وتبقى المدينة هناك، في البعد، وأنت تقوم بإنهاء العبارة التي بدأتها في الطبقة السفلى من البناية، وبين الكلمات الأولى والأخيرة يوجد اثنتان وخمسون طبقة. لقد فهمت، حين بدأت أعزف، أنني كنت أدخل إلى مصعد، لكنه كان مصعد الزمن، هل تفهم؟ لا تظن أنني نسيت عملية الرهن العقاري أو الدين. فقط، في تلك اللحظات، كان الرهن العقاري والدين مثل الملابس التي ليست على ظهورنا، أنا أعرف أن البذلة هي موجودة، في خزانة الحائط، ولكن لا تقل لي إنها موجودة حين أكون مرتدياً البيجامة. إن البذلة تكون موجودة حين أرتديها، والرهن العقاري والدين كانا موجودين حين كنت أتوقف عن العزف وحين كانت العجوز تأتي وشعرها مسدل على وجهها وتشكو من أنني أصدع رأسها بهذه الموسيقى الفظيعة، الشيطانية.

أحضرت ديديه لنا فنجاناً آخر من النيسكافيه، لكن جوني كان ينظر بحزن إلى كأسه الفارغة.

ـ إن مسألة الزمن هذه هي معقدة، وأنا لا أستطيع التخلص منها، وقد بدأت أفهم أن الزمن ليس محفظة نملأها كلما فرغت. ليس هناك سوى مبلغ معين من الزمن وبعد هذا، وداعاً. هل ترى حقيبتي يا برونو؟ يمكن أن نضع فيها بذلتين وزوجين من الأحذية؛ حسناً، تصور أنك تنزع هذه الأشياء وأثناء إعادتها إليها تلاحظ أنه لا يدخل فيها سوى بذلة واحدة وزوج أحذية واحد.

fb/mashro3pdf

ولكن ليس هذا هو الأفضل، بل الأفضل هو حين تفهم فجأة أنك تستطيع أن تضع حانوتاً كاملاً في الحقيبة، مئات ومئات من البذلات مثل كل هذه الموسيقى التي أضعها في الزمن، أحياناً، حين أعزف، الموسيقى وما أفكر به في المترو.

- في المترو؟

- نعم، نعم، يا صديقي، قال جوني بهيئة ماكرة، وأضاف: إن المترو ابتكار عظيم، فحين تركب المترو، تفهم كل ما يمكن أن يدخل في الحقيبة. ولعلني لم أفقد الساكسو في المترو بالذات.

أخذ يضحك، ويسعل، ونظرت إليه ديديه في قلق. لكنه هو، كان يظهر تكشيرات، ويضحك ويسعل، في وقت معاً، ويهتز تحت الغطاء مثل قرد شانبانزي؛ كانت الدموع تسيل من عينيه، وكان يشربها دون أن يكف عن الضحك.

وقال بعد فترة: الأفضل أن لا نخلط كل شيء. لقد أضعت آلة ساكسو، فلنكف عن الحديث بصددها. لكن المترو ساعدني في اكتشاف مسألة الحقيبة. أنت تعرف، قصة هذه الأشياء المطاطة، هذا شيء غريب جداً. كل شيء هو مطاط، يا صاحبي، والأشياء التي تبدو صلبة هي ذات مرونة...

وركز تفكيره.

- ... ذات مرونة مؤخرة، هكذا أضاف بصورة غير مأمولة، وتمت بحركة موافقة وإعجاب: مرحى، يا جوني.. بالنسبة لرجل يقول إنه عاجز عن التفكير! فظيع، جوني هذا! ها أنا في الحقيقة مهتم الآن، وقد أدرك ذلك وراح ينظر إليّ بهيئة أكثر مكراً من أي وقت مضى.

- هل تعتقد أن بإمكاني الحصول على ساكسو آخر لكي أعزف بعد غد، يا برونو؟

- نعم، ولكن يجب أن تنتبه.

fb/mashro3pdf

- بكل تأكيد، يجب أنْ أنتبه.

- عقد مدته شهر، أوضحت ديديه المسكينة، خمسة عشر يوماً في حانة ريمي، وحفلتان موسيقيتان، والاسطوانات. نستطيع أن نتدبر نفسنا جيداً جداً مع هذا.

- عقد مدته شهر - كان جوني يقلد كلامها وهو يقوم بحركات كبيرة - وحانة ريمي، وحفلتان موسيقيتان، والأسطوانات. بي، باتا، بوب، بوب، شوم. إن ما أحس به على الأخص هو العطش، العطش، العطش. ورغبة شديدة في التدخين...

ومددت إليه علبة «الغولواز» لكنني كنت أعرف جيداً أنه يفكر في المخدرات. كان الليل قد هبط، وفي الرواق بدأت تسمع أصوات ذهاب وإياب، وحوارات باللغة العربية، وأغنية، وخرجت ديديه، ولعلها ذهبت لشراء شيء لأجل العشاء. وأحسست بيد جوني على ركبتي.

- إنها فتاة طيبة، أنت تعرف. ولكن كفاني! منذ حين لم أعد أحبها، وما عدت أستطيع تحملها. إنها ما زالت تثيرني أحياناً، وهي تحسن ممارسة الحب مثل... - وشبك أصابعه على الطريقة الإيطالية... - ولكن يجب أن أتخلص منها وأعود إلى نيويورك.

- ولماذا؟ كانت الأمور أسوأ حالاً أيضاً هناك. إنني لا أتكلم عن العمل، بل عن حياتك أنت بالذات، ويبدو لي أن لديك أصدقاء أكثر، هنا.

- نعم، هناك أنت والماركيزة والأصحاب في النادي... ألم تمارس الحب أبداً مع الماركيزة، يا برونو؟ آه، يا صاحبي، إنه لشيء هائل... لكنني كنت أحدثك عن المترو ولست أدري لماذا غيرنا الموضوع. إن المترو هو ابتكار عظيم يا برونو. في أحد الأيام بدأت أحس بشيء ما، في المترو، ثم نسيت. لكن الأمر عاد مرتين أو ثلاث مرات بعد ذلك. وفي النهاية فهمت. ومن السهل الإيضاح، أنت تعرف، لأن هذا ليس هو الإيضاح الحقيقي في

fb/mashro3pdf

الواقع . والإيضاح الحقيقي تستطيع دائماً الركض في تقدمه . سيكون عليك أن تركب المترو وتنتظر أن يحدث ذلك لك، أنت أيضاً، وإن كنت أعتقد أن هذه الأشياء لا تحدث إلا لي أنا . الأمر تقريباً على هذا النحو، انظر . . . ولكن هل حقاً لم تمارس الحب أبداً مع الماركيزة؟ يجب أن تطلب إليها من كل بد أن تصعد على المقعد الصغير المذهب الموجود في زاوية غرفتها إلى جانب . . . حسناً، ها هي الأخرى قد عادت .

دخلت ديديه مع رزمة مغلفة بورق جرائد وأخذت تنظر إلى جوني .

ـ أنت مصاب بالحمى أشد مما كنت منذ قليل، وقد اتصلت هاتفياً بالدكتور، وهو سيأتي في الساعة العاشرة، وقال إن عليك أن لا تتنرفز .

ـ حسناً، اتفقنا، ولكن قبل ذلك سأروي مسألة المترو لبرونو . في اليوم الفائت فهمت تماماً ما كان يحدث، كنت أفكر في صديقتي القديمة، «لان»، وفي الأصحاب، وبعد فترة، نشأ لدي الانطباع بأنني أتنزه في حيّاً، وأنني أرى الغلمان الذين كانوا في ذلك العهد . لكن المسألة لم تكن تفكيراً بالضبط، وأعتقد أنني سبق أن قلت لك أنني لا أفكر أبداً . كان الأمر كأنني لو كنت منتصباً في زاوية الشارع وأنا أنظر إلى مرور ما أفكر فيه، ولكن دون أن أفكر في ما كنت أراه، هل تفهم؟ يقول جيم إن الأمر مماثل بالنسبة لجميع الناس، وأنه ما من أحد يفكر لحسابه الخاص . حسناً، فلنسلم بذلك؛ يبقى أنني ركبت المترو في «سان ميشال» ورحت أفكر في «لان»، وفي الأصحاب، وفي حيّاً. لكنني كنت ألاحظ في نفس الوقت أنني كنت في المترو، وأننا وصلنا إلى الأوديون، وأن الناس كانوا يدخلون ويخرجون، ثم واصلت التفكير في «لان» وعاودت رؤية صديقتي القديمة حين كانت تعود من المشتريات، لقد عاودت رؤيتهم جميعاً، كنت أحس تماماً بأنني معهم، هذا شيء هائل، ومنذ زمن طويل لم يحدث لي هذا . الذكريات هي دائماً شيء هائل، ولكن في هذه المرة، كان يسرني التفكير في الأصحاب وفي معاودة رؤيتهم . ولو أنني رويت لك كل ما رأيته، لما صدقت، ثم إن هذا سوف يستغرق بعض الوقت، حتى ولو صرفت النظر عن التفاصيل . مثلاً، ولكي

fb/mashro3pdf

أقتصر على الحديث عن هذا الأمر، كنت أرى «لان» وهي ترتدي ذلك الفستان الأخضر الذي كانت تلبسه لدى ذهابها إلى «النادي ٣٣»، حيث كنت أعزف مع «هامب»، كنت أرى البذلة مع البريمات، والقبة وهذا النوع من التطريز على قفا القماش. . . ما كنت أرى كل هذا في وقت معاً، لا، بل بالعكس، كنت أستمهل الوقت، وأحوم على مهل حول البذلة وأنظر إليها دون استعجال. وبعد ذلك تفحصت عن كثب رأس «لان»، ورؤوس الأصحاب وبعد ذلك تذكرت مايك الذي كان يعيش في الحجرة المجاورة، والقصة التي رواها لي. هذه الجياد الوحشية في الكولورادو.

- جوني، قالت ديديه من زاويتها.

- و، لاحظ، إنني لا أروي لك سوى جزء صغير جداً مما رأيت. كم استغرقني من وقت لأروي هذا الجزء الصغير؟

- لست أدري، فلنقل دقيقتين.

- فلنقل دقيقتين، ردد جوني وهو يقلد كلامي، دقيقتان ولم أرو لك سوى جزء صغير، ماذا لو رويت لك كل ما كان الأصحاب يفعلون في رأسي! كان هناك «هامب» الذي يعزف:

Save it. Pretty mamma

وكنت أصغي إلى كل نغمة، هل تسمعني، كل نغمة، ومع «هامب» يطول الأمر، أنت تعرف، إنه يصمد جيداً. وكان هناك أيضاً صديقتي القديمة التي أخذت تتقدم برجاء لا نهاية له، تتكلم فيه عن سلطة الخس، كما يبدو لي، وحيث كانت تطلب العذر لصديقي، ولي. حسناً، لو أنني رويت لك هذا كله، فسوف يستغرق أكثر من دقيقتين، أليس كذلك، يا رونو؟

- إذا كنت فعلاً قد سمعت ورأيت كل هذا، فلا بد أنه استغرق ربع ساعة، هكذا قلت له ضاحكاً.

fb/mashro3pdf

- ربع ساعة، هكذا يا برونو؟ إذن يجب أن تقول لي كيف أمكن أنني أحسست فجأة بالمترو يقف، وخرجت أنا من «لان»، من صديقتي القديمة وهلمجرا ورأيت أننا وصلنا إلى «سان جرمان دي بريه»، التي تبعد بالضبط دقيقة ونصف عن «الأوديون».

إنني لا آخذ، عادة، بجدية تامة، هذيانات جوني، ولكن هذه المرة وجه إلي نظرة أشاعت البرودة في ظهري.

- بالكاد دقيقة ونصف من وقتك ومن وقت المجنونة الأخرى، هناك، هكذا قال جوني في ضغينة. وأضاف: دقيقة ونصف من المترو ومن ساعة يدي، فليذهبوا وينفلقوا! حينئذٍ كيف يمكن أنني فكرت، أنا، طوال ربع ساعة، ماذا إذن، يا برونو؟ كيف يمكن التفكير ربع ساعة خلال دقيقة ونصف؟ أقسم لك بأنني في ذلك اليوم لم أدخن أية سيجارة، ولا أية قطعة صغيرة من... هكذا أضاف قائلاً مثل ولد يعتذر. وقد حدث لي هذا مراراً أخرى منذ ذلك الحين، والآن يحدث لي هذا حتى كل يوم. ولكن، أضاف بهيئة ماكرة، في المترو فقط أستطيع أن ألاحظ ذلك لأننا في المترو نكون كأننا في داخل ساعة حائط دقاقة. المحطات هي الدقائق، أنت تفهم، إنه وقتك أنت، وقت الآن، لكنني أعرف، أنا، انه يوجد وقت آخر، وقد فكرت، فكرت، فكرت...

أخفى وجهه بيديه وراح يرتجف. كنت أود أن أخرج، وما كنت أعرف كيف أستأذن جوني للانصراف دون أن أكدره؛ إنه حسّاس بصورة فظيعة إزاء أصدقائه. فإذا استمر يتكلم في هذا الموضوع، فسوف يصيبه الألم، مع ديديه على الأقل، لن يتكلم عن هذه الأشياء.

- يا برونو، لو كنت فقط أستطيع أن أعيش دائماً في تلك اللحظات أو مثلي حين أعزف. هل تدرك كل ما يمكن أن يحدث في دقيقة ونصف... سوف يمكن، ليس أنا فقط، بل هي، وأنت، وجميع الأصحاب، أن نعيش مئات الأعوام؛ لو عثرنا على الرابط لاستطعنا أن نعيش ألف مرة أكثر مما نعيش بمصيبتكم هذه في الساعات والدقائق وأيام بعد الغد...

fb/mashro3pdf

ابتسمت قدر استطاعتي، فاهماً بغموض أنه على حق. ولكن ما يحس به مسبقاً وما أحذره من إحساسه المسبق سوف يمحي، كما هي الحال دائماً، منذ أن أصل إلى الشارع وأستعيد الاتصال بحياتي العادية، حياة كل يوم. وفي الوقت الحاضر، أنا أعرف أن ما يقوله لي ليس عائداً فقط إلى واقع أنه نصف مجنون، وإن حقيقة الواقع تغيب عنه، وتترك له بدلاً عنها ما يشبه صورة محرّفة، ساخرة، يحولها هو إلى أمل. ولكن ليست هذه أشياء نجدها مجدداً سليمة دون مس، فيما بعد. فما أن نصل إلى الشارع، وبالكاد تكون ذكرى جوني وليس جوني ذاته هي التي تردد هذه الكلمات، وحين لا تعود تلك هذيانات متولدة من الماريجوانا، وتحركاً رتيباً (ذلك لأنه ليس هو الوحيد الذي يروي مثل هذه الأشياء، والشهادات من هذا النوع كثيرة) وحين يحل التململ محل الاندهاش، يكون لدي الانطباع تقريباً بأن جوني قد سخر مني. لكن هذا التململ، أحس به دائماً بعد، وليس أبداً في اللحظة التي يحدثني فيها جوني، ذلك لأنني أحس، في تلك اللحظة، بمثل فكرة تريد أن تشق طريقاً لنفسها، مثل نور يسعى للاتقاد، أو بالأصح مثل حاجة آمرة ملحة لشق جذع من الأعلى إلى الأسفل، مع إدخال إسفين فيه، والضرب عليه حتى يتفجر. لكن جوني لم تعد لديه كفاية من القوة لإعطاء ضربات مطرقة وأنا، لا أعرف إطلاقاً أية مطرقة يجب استعمالها ولا أي اسفين يجب وضعه.

وانتهى بي الأمر إلى توديعه ولكن قبل ذلك حدث شيء من تلك الأشياء... كنت أشد على يد ديديه، مولياً ظهري لجوني. وأحسست أنه كان يحدث شيء ما، ورأيت ذلك في عيني ديديه؛ واستدرت بسرعة، ربما لأنني أخاف قليلاً من جوني، هذا الملاك الذي هو مثل أخي، هذا الأخ الذي هو مثل ملاكي، ورأيت جوني الذي ألقى عنه الغطاء الذي كان متدثراً به، وهو جالس في فوتيله، عارياً تماماً، وساقاه مرفوعتان، وركبتاه على ذقنه، يرتجف ولكن ضاحكاً، عارياً مثل دودة في الفوتيل القذر.

ـ لقد بدأ الحر. قال جوني، يا برونو، انظر إلى هذه الندبة الموجودة بين ضلوعي.

fb/mashro3pdf

ـ غطِّ بدنك! قالت ديديه. مرتبكة دون أن تعرف ماذا تقول.

كنا نعرف بعضنا كفاية، ورجل عار ليس أبداً أكثر من رجل عار، لكن ديديه انتابها الخجل وما كنت أعرف ما العمل لكي لا أظهر أنني قد صُدِمْت. وفهم جوني الأمر وجعل يضحك فاتحاً فمه الهائل على اتساعه، وساقاه مرفوعتان بصورة بذيئة، وعضوه يتدلى على حافة الفوتيل، مثل عضو سعدان في حديقة الحيوانات، وبشرة ساقيه مكسوة ببقع غريبة الشكل، أفعمتني بقرف شديد جداً. حينئذٍ أمسكت ديديه الغطاء، وغَطّت جوني بسرعة. كان يضحك وقد ظهر عليه سرور شديد. قلت وداعاً بلهجة غامضة واعداً بأن أعود في اليوم التالي ورافقتني ديديه حتى قرص الدَرَج مقفلة الباب لكي لا يسمع جوني ما ستقوله لي.

ـ إنه هكذا منذ عودته من جولته في بلجيكا. ومع ذلك لقد عزف جيداً في كل مكان، وكنت مسرورةً جداً.

ـ أنا أتساءل كيف استطاع الحصول على المخدر؟ هكذا قلت وأنا أنظر إليها في عينيها مباشرة.

ـ لست أدري. إنه على الأخص شرب كثيراً من النبيذ والكونياك. لقد دخَّن أيضاً، هذا صحيح، ولكن أقل منه هناك.

هناك، يعني ـ بلتيمور ونيويورك، وهي الثلاثة شهور في مستشفى «بيل فو» للطب النفسي. والإقامة الطويلة في كاماريللو.

ـ هل صحيح، يا ديديه، أن جوني قد عزف بصورة جيدة في بلجيكا؟

ـ أجل، يا برونو، وأفضل منه في أي وقت مضى. لقد قابله الجمهور بابتهاج عظيم، إلى حد الهذيان، لقد قام جوني، بكل تأكيد، ببعض الأعمال الغريبة، ولكن ليس أبداً أمام الجمهور. بل إنني اعتقدت أنه هذه المرة... لكنك ترى، إنه مجدداً أسوأ منه في أي وقت مضى.

ـ ولكن ليس بمقدار ما كان في نيويورك، إنك لم تعرفيه في ذلك الحين.

fb/mashro3pdf

ديديه ليست بلهاء، إطلاقاً، ولكن ما من امرأة تحب أن تسمع الحديث عن الزمن الذي لم تكن قد دخلت فيه بعد إلى حياة رجلها، بالإضافة إلى أنها هي التي تتحمله في الوقت الحاضر، وجميع قصص ما قبل، إلى جانب ذلك، ليست سوى كلمات. لا أعرف كيف أقول لها، لا سيما وأنني لم تكن لي بها ثقة تامة، لكنني أخيراً قررت.

- أعتقد أنكم خالو الوفاض من النقود؟

- لدينا هذا العقد لبعد غد.

- وهل تعتقدين أنه سوف يستطيع أن يسجل ويعزف أمام الجمهور وهو في هذه الحالة؟

- أوه، نعم! قالت ديديه مندهشة بعض الشيء. وأضافت: يستطيع جوني أن يعزف عزفاً جيداً بصورة هائلة وذلك فقط إذا قطع له الدكتور برنارد الزكام المصاب به.

والمشكلة هي، بالأصح، الساكسو.

- سوف أهتم بهذه المسألة. خذي، يا ديديه، ولكن فقط... سيكون من الأفضل أن لا يعرف جوني أي شيء عن هذا.

- برونو...

أوقفت، بايماءة، الكلمات السهلة ورحت أنزل على السلم. وبعد أن انفصلت عنها بأربع أو خمس درجات، كان أسهل علي أن أقول لها:

- لكن على الأخص، يجب أن لا يدخّن قبل الحفلة الموسيقية الأولى، دعيه يشرب قليلاً ولكن لا تعطيه نقوداً لأجل الباقي...

لم تجب ديديه بشيء لكنني رأيت يديها تطوي وتعيد طي الأوراق المالية إلى أن غيبتها. أنا متأكد على الأقل من أن ديديه لا تدخّن. وتواطؤها الممكن لا يمكن أن يأتي إلاّ من الخوف أو من الحب. فإذا ما ركع جوني على ركبتيه

fb/mashro3pdf

كما رأيته يفعل في شيكاغو، وتوسل وهو يبكي . . . لكن هذه مخاطرة أقوم بها إلى جانب الكثير من المخاطرات مع جوني، وسيكون لديه على الأقل النقود للأكل وللعناية بنفسه. في الشارع، رفعت ياقة معطفي الغبردين لأن الرذاذ بدأ يتساقط ورحت أتنفس بشدة لدرجة آلمت رئتيّ؛ وبدا لي أن باريس تفوح منها رائحة النظافة، والخبز الساخن. وأدركت فجأة أن رائحة غرفة جوني لا بد أن تكون كريهة وكذلك جسد جوني تحت الغطاء. ودخلت إلى أحد المقاهي لشرب كأس كونياك لكي أغسل فمي وربما أيضاً ذاكرتي. كان ذهني يعود بلا انقطاع إلى ما قاله جوني، حول هذه الأشياء التي يراها، والتي لا أراها أنا، والتي في الأساس لا أريد رؤيتها. ورحت أفكر في يوم بعد غد، وفي الأساس كان هذا مثل تأمين، مثل جسر ملقى بين مكتب الحانة والمستقبل.

أفضل شيء، حين لا يكون المرء متأكداً من أي شيء، هو أن يوجد لنفسه واجبات بمثابة عوّامات. فبعد يومين أو ثلاثة، فكرت أن من واجبي الذهاب لأتأكد من أن الماركيزة ليست هي التي تؤمن الماريجوانا لجوني، وذهبت إلى محترفها، في حي المونبارناس. والماركيزة هي ماركيزة حقيقية والماركيز يرسل مالاً كثيراً جداً، رغم أنهما مطلّقان منذ بعض الحين بسبب الماريجوانا وتفاهات أخرى. ويعود تاريخ صداقتها إلى نيويورك، ربما في النادي الذي أحرز جوني فيه الشهرة بين صباح ومساء، وذلك فقط لأن أحدهم قد أتاح له إمكانية جمع أربعة أو خمسة فتيان يحبون أسلوبه، أي جوني، وحينئذٍ، لأوّل مرة في حياته، استطاع جوني أن يعزف كما يروق له، فأفحم بذلك الجميع. ليس هذا وقت القيام بنقد للجاز، والذين يهتمون بذلك يستطيعون الرجوع إلى كتابي حول جوني، والأسلوب الجديد في فترة ما بعد الحرب؛ لذلك اكتفي بالقول إنه كان من عام ٤٨ حتى العام ٥٠ ما يشبه انفجاراً في الموسيقى، لكنه انفجار بارد وصامت، انفجار ترك كل شيء في مكانه؛ فلا صرخات ولا خرائب لكن قشرة العادة انفجرت وتشظت في ألف شظية، والمدافعون عنها أنفسهم ـ في الفرق الموسيقية، وفي الجمهور ـ لم يعودوا يدعمونها إلاّ بدافع الكبرياء. ومنذ أن مر جوني على عزف الساكسو ـ ألتو لم يعد في الإمكان اعتبار الموسيقيين السابقين كعباقرة. ويجب النزول

fb/mashro3pdf

تماماً عند هذا النوع من الرضوخ الذي يسمى الحس التاريخي والقول إن هؤلاء الموسيقيين كانوا مرموقين في زمنهم. لقد مر جوني من هناك مثل يد تطوي صفحة، ولم يعد لأحد حيلة.

إن الماركيزة التي تملك اذناً حساسة جداً في كل ما يتعلق بالموسيقى، كانت دائماً شديدة الإعجاب بجوني وفريقه. وأتصور أنها أعطته مقداراً غير قليل من الدولارات في عهد «النادي ٣٣»، حين كان أغلب النقاد ينظرون باستعلاء إلى تسجيلات جوني ويحكمون على اسلوبه تبعاً لمعايير أكثر من متعفنة. وربما في ذلك العهد أيضاً بدأ جوني يضاجع الماركيزة بين حين وآخر ويدخن معها (الماريجوانا). وكثيراً ما رأيتهما معاً قبل جلسات التسجيل أو أثناء فترات الاستراحة في الحفلات الموسيقية وكان يبدو على جوني أنه سعيد جداً مع الماركيزة، رغم أن «لان» والأصحاب كانوا ينتظرونه في المنزل أو في مقصورة أخرى. لكن جوني لم تكن لديه أية فكرة عما يعنيه الانتظار وهو لا يتصور أيضاً أن أحداً يمكن أن ينتظره، هو. إن طريقته في تركه «لان» فجأة، مثلاً، تصفه بكامله. لقد رأيت البطاقة البريدية التي أرسلها إليها من روما بعد غياب أربعة شهور (لقد تسلق طائرة مع شابين آخرين من الزمرة، دون أن يقول أي شيء لـ «لان»). كانت البطاقة تمثل رومولوس و ريموس[1]، اللذين كان جوني دائماً يجد تسلية بذكرهما، (وقد أطلق اسميهما على أحد تسجيلاته) وقد كتب البطاقة البريدية تلك: «أنا وحيد بين حالات حب عديدة» وهو بيت شعر لدايلان توماس الذي يعود جوني إلى أشعاره كثيراً. إن مديري أعمال جوني، في الولايات المتحدة، قد تدبروا الأمور لكي يرسلوا جزءاً من الأرباح إلى «لان» التي فهمت سريعاً أنها حققت عملاً مربحاً حين تخلّصت من جوني. وقد قيل لي إن الماركيزة قد أرسلت من يوصل المال بصورة سرية إلى «لان» وهذا لا يدهشني،

(١) رومولوس وريموس Romulus et Remus : شقيقان تدعى الأسطورة أنهما وجدا في مكان مدينة روما، وأن ذئبة أرضعتهما، ثم أسس أولهما (رومولوس) مدينة روما، وكان أوّل ملك لها، وقد قتل أخاه ريموس. (المترجم).

fb/mashro3pdf

فالماركيزة هي ذات طبية صاخبة، وهي تفهم العالم بعض الشيء مثل فهمها لصحون العجة التي تصنعها في محترفها حين يأخذ أصدقاؤها في التوافد إليه بالعشرات؛ إنه نوع من العجة الدائمة تضيف إليها أشياء كثيرة وتقوم بالتقطيع منها أولاً بأوّل مع وصول الأصدقاء.

وجدت الماركيزة في صحبة مارسيل لوروا وأرت بوكايا. كانوا منهمكين في الحديث بحماسة عن التسجيلات التي قام بها جوني عشية الأمس، وهبوا لمعانقتي وأخذي في أحضانهم، وكأنهم رأوا ظهور رئيس الملائكة. وقد أخذت الماركيزة تلثمني حتى الإنهاك، وربت الاثنان الباقيان على ظهري عازف كونترباس وساكسو ـ باريتون. واضطررت للاحتماء وراء أحد الفوتيلات والدفاع عن نفسي جهد المستطاع. كل هذا لأنهم علموا بأنني أنا واهب الساكسو الممتاز الذي قام جوني عليه بتسجيل أربع أو خمس من أفضل قطعه المرتجلة. وقالت الماركيزة على الفور أن جوني هو جرذ مجرور قذر؛ كانا قد تشاجرا، هذا صحيح (لم تقل لماذا) لكن جرذ المجرور القذر كان يعرف جيداً أنه بالاعتذار إليها كان سيحصل على التشيك الضروري لشراء ساكسو. طبعاً إن جوني لم يشأ أن يعتذر منذ عودته إلى باريس (يبدو جيداً أن المشاجرة قد حدثت في لندن قبل ذلك بشهرين) وهكذا لم يكن أحد يستطيع أن يعرف أنه أضاع آلته الساكسو اللعينة في المترو، إلخ. حين تروي الماركيزة شيئاً ما يتساءل المرء إذا لم يكن أسلوب ديزّي Dizzi وقد أثر في لغتها؛ إنه سلسلة غيرّ منقطعة من التنويعات على الموضوعات غير المتوقعة إطلاقاً إلى أن تضرب الماركيزة، فجأة، ضربة شديدة على ساقيها، وتفتح فمها مثل فرن وتستغرق في الضحك وكأنه تجري دغدغتها حتى الموت. وهنا، راح أرت بوكايا يروي لي بالتفصيل جلسة البارحة التي لم أستطع حضورها بسبب زوجتي التي أصيبت بذات الرئة.

ـ إن تيكا شاهدة، قال أرت وهو يشير إلى الماركيزة التي كانت تتلوى من الضحك. وأضاف: إنك لا تستطيع أن تكون لنفسك فكرة، يا برونو،

fb/mashro3pdf

عما كانت جلسة البارحة مساء. فلو أن الله كان في مكان ما، بالأمس، فإنه كان بالتأكيد في هذا الاستوديو اللعين حيث كان تسود حرارة فظيعة، أقول هذا بصورة عابرة. هل تذكر أغنية «ويللو تري» («شجرة الصفصاف»، يا مارسيل؟).

- أجل أتذكر... إنه يسألني إذا كنت أتذكر، هذا الأبله... إنني موشوم بأغنية «ويللو تري» من رأسي حتى قدميّ.

جلسنا مع تيكا في مقاعد مريحة، لكي ندردش. وفي النهاية، لم يجر الحديث كثيراً عن عملية التسجيل، وأصغر موسيقي يعرف أنه لا يمكن الحديث عن تلك اللحظات، لكن القليل الذي قالوه في ذلك الصدد قد أعاد لي الأمل وفكرت في أن آلتي الساكسو ربما ستحمل السعد إلى جوني. صحيح أن هناك أيضاً النكات التي من شأنها تبريد هذا الجميل؛ وهكذا، فقد خلع جوني حذاءه بين تسجيلين وراح يتمشى بالجوارب في الأستوديو. لكنه في المقابل تصالح مع الماركيزة ووعد بالقدوم لتناول كأس من المحترف قبل الحفلة الموسيقية لهذا المساء.

- هل تعرف الفتاة التي برفقة جوني في هذه اللحظة؟ سألتْ تيكا.

وصفتها لها، بأكثر ما يمكن من الإيجاز، لكن مارسيل أكمل وصفي على الطريقة الفرنسية، مع كل أنواع التلاوين والمضمرات التي أمتعت الماركيزة، كثيراً. ولم يشر أحد أدنى إشارة إلى المخدرات، لكنني شديد الشك في هذا الصدد بحيث بدا لي أنني أشم رائحة المخدر في المحترف، وهذا بالإضافة إلى أن تيكا ضحكت بصورة أجدها أحياناً عند جوني وعند أرت والتي هي كاشفة جداً. وأنا أتساءل كيف استطاع جوني الحصول على الماريجوانا إذا كان متخاصماً مع الماركيزة... وانهارت ثقتي في ديديه فجأة هذا إذا كانت لي فيها ثقة في أي يوم من الأيام. وفي الأساس، كلهم متشابهون.

إنني أحسد بعض الشيء هذا التشابه الذي يقرب ما بينهم، والذي

fb/mashro3pdf

يجعلهم يحسون بالتواطؤ بكل هذه البساطة؛ إن طهرانيتي ـ أنا لا أخفي هذا، وجميع الذين يعرفونني يعلمون استفظاعي لكل اضطراب خلقي ـ تجعلني أعتبرهم بمثابة ملائكة مرضى، مثيرين للغضب لفرط كونهم غير مسؤولين لكنهم يدفعون ثمن الثقة الموضوعة فيهم بهدايا مثل اسطوانات جوني أو سخاء الماركيزة. وأنا لا أقول كل شيء: ففي الأساس، أنا أحسدهم. أنا أحسد جوني، جوني هذا الذي هو «من الجانب الآخر» رغم أنه لا أحد يعرف ما هو هذا «الجانب الآخر». أنا أحسده على كل شيء، باستثناء ألمه وعذابه، طبعاً. ولكن حتى في ألمه وعذابه يجب أن تكون هناك مقدمات شيء غير معطى لي. أنا أحسد جوني وفي الوقت نفسه أتميز غيظاً لأنه يدمر نفسه باستعماله مواهبه بكل هذا الشكل السيء، وبتكديسه جنوناً على جنون... لكن الحياة تخضعه لضغوط قوية جداً وأنا أعتقد أنه لو كان يستطيع أن يوجه هذه الحياة ـ دون أن يضحي لأجل ذلك بشيء، ولا حتى بالمخدر ـ وأنه لو كان يقود بصورة أفضل هذه الطائرة التي تحلق منذ خمس سنوات على غير هدى، فأعتقد أنه كان سيصل إلى الأسوأ، إلى الجنون المطبق، إلى الموت، ولكن ليس دون أن يبلغ قبل ذلك ما يبحث عنه في مناجياته الحزينة، وفي جرداته التي يقدمها عن تجارب مبهرة لكنها لا تصل إلى نتائج أبداً. كل هذا، يدفعني جبني الشخصي إلى قوله، لكنني في الأساس ربما كنت أتمنى أن ينتهي جوني مرة واحدة ونهائية مثل هذه النجوم التي تتفجر إلى مئة شظية وتترك الفلكيين مذهولين ومحتارين لمدة أسبوع. وبعد ذلك، يذهب كل واحد (منهم) للنوم، فغداً سيشرق النهار.

وكأنما أحس جوني بما كنت أفكر فيه. فقد وجه إلي تحية فرحة لدى دخولي وجاء على الفور تقريباً ليجلس قربي، بعد أن عانق الماركيزة وأدارها في الهواء وهو يقبلها، وبعد أن تبادل معها ومع «آرت» طقساً معقداً من الكلمات الصوتية[1]، أبهجهم جميعاً.

---

(١) الكلمة الصوتية Onomatopée كلمة يحاكي صوتها الشيء الذي تمثله مثل: «تكتكة» و «قعقعة» و «خرير» و «سقسقة» إلخ. (المترجم).

fb/mashro3pdf

- يا برونو، قال جوني وهو يجلس على أفضل أريكة، إن «خردتك» التي وهبتها لي هي أعجوبة مدهشة: آه لو عرفت أنت ماذا أخرجت أنا من بطنها البارحة. كانت تيكا تبكي بدموع ضخمة مثل اللمبات الكهربائية وليس ذلك لأنها مدينة بمال إلى خياطها، أليس كذلك يا تيكا؟

وأردت أن أعرف تفاصيل أكثر حول جلسة عشية البارحة لكن جوني كان قد انتهى من أقوال الكبرياء المزهوة. والتفت نحو مرسيل ليتحدث عن برنامج هذا المساء. كان جوني على أهبة الاستعداد فعلاً، وكنت أحس جيداً أنه منذ بضعة أيام لم يعد يدخن كثيراً، ولكن فقط بالمقدار اللازم لكي يعزف بمتعة.

في هذه اللحظة، وضع جوني يده على كتفي وانحنى ليقول:

- لقد قالت لي ديديه انني لم أكن لائقاً معك في ذلك اليوم.

- ياه! إنك حتى لا تذكر ذلك.

- بلى. إنني أتذكر جيداً. وإذا كنت تريد رأيي، فإنني تصرفت بصورة جيداً جداً إزاءك. وكان عليك أن تكون مسروراً، وأنا ما كنت لأفعل هذا أمام شخص آخر سواك، صدقني. وهذا يثبت كم أنا أقدرك. ويجب أن نتلاقى في مكان ما، للتحدث عن كثير من الأشياء، لأنّ هنا.. ومدّ شفته السفلى وضحك وهو يرفع كتفيه، كان كأنه يرقص على الأريكة، «يا برونو العجوز، بلا مزاح لقد قالت لي ديديه إنني أسأت التصرف كثيراً معك».

- كنت مصاباً بالزكام. هل أنت في حالة أفضل؟

- لم يكن ذلك زكاماً. لقد قالت لي ديديه إنك أعطيتها نقوداً.

- لكي تتدبر أمرك إلى أن تتلقى الأجر المنصوص عليه في العقد. إرو لي عن أمس مساء.

- كانت بي رغبة في أن أعزف، أنت تفهم، وأنا أستطيع أن أعزف حتى في هذه اللحظة، لو كان معي الساكسو، لكن ديديه لم تكن تريد أن تعرف أي

fb/mashro3pdf

شيء، وهي التي ستحضر الساكسو إلى المسرح، إنه ساكسو هائل. وأمس مساء، كان لدي الانطباع بأنني أمارس الحب حين كنت أعزف، وآه لو أنك رأيت مظهر تيكا! هل كنت تحسين بالغيرة، يا تيكا؟

وجعلوا يقهقهون بالضحك مجدداً. ثم راح جوني يركض عبر المحترف وهو يقوم بوثبات واسعة، وأخذ هو و«آرت». يركضان بلا موسيقى رافعين ومسدلين حواجبهما لتحديد الإيقاع. من المستحيل أن يفقد المرء الصبر مع جوني أو مع «آرت». كما أنه لا يمكن أن نغضب ضد الريح التي تطير قبعتك. وتبادلنا، تيكا ومارسيل وأنا بصوت منخفض تقديراتنا حول الحفلة الموسيقية لهذا المساء، وكان مارسيل متأكداً من أن جوني سيحرز نفس النجاح الهائل الذي أحرزه عام ١٩٥١، المرة الأولى التي جاء فيها إلى باريس. وبالنظر إلى جلسة أمس، فقد كان متأكداً من أن كل شيء سيجري بصورة ممتازة. كنت أتمنى أن أكون متأكداً من ذلك، مثله.

على كل حال، أنا متأكد على الأقل من أن جوني لم يتناول مخدراً كما فعل في أمسية بلتيمور. وحين قلت هذا لتيكا شدت على يدي وكأنها موشكة على السقوط في الماء. وذهب أرت وجوني نحو البيانو، وأطلع أرت جوني على قطعة موسيقية جديدة، فهز جوني رأسه ودندن. كانا أنيقين جداً كلاهما في بذلتيهما الرماديتين ولكن خسارة أن يكون جوني قد اكتسب بدانة كبيرة في الآونة الأخيرة.

تكلمنا تيكا وأنا عن أمسية بلتيمور، حيث أصيب جوني بنوبته الأولى. ونظرت إلى تيكا في عينيها مباشرة، وكنت أريد التأكد من أنها فهمتني، وأنها لن تستسلم هذه المرة. فإذا ما شرب جوني كثيراً من الكونياك، أو إذا تعاطى ولو قليلاً من المخدر، فستكون الحفلة فاشلة، وسوف ينهار كل شيء. إن باريس ليست كازينو في الريف، وإن جمهوراً عارفاً بالموسيقى ستكون عيونه مركزة على جوني. كان في فمي ما يشبه الطعم المر، ويداخلني نوع من الغضب الذي لا يتوجه إلى جوني أو إلى الأشياء المحيطة به بل بالأصح نحو الأشخاص الذين هم مثلي، الماركيزة ومارسيل مثلاً. وفي

fb/mashro3pdf

الأساس، نحن لسنا سوى أنانيين؛ وبحجة السهر على جوني، لا نقوم إلاّ بحماية الفكرة التي لدينا عنه، ونحن نتأهب لتلقي المتع التي سيعطينا إياها، ونحن نقوم بتلميع التمثال الذي استطعنا اكتشافه ونتأهب للدفاع عنه مهما كلف الأمر. وسيكون الأمر سيئاً جداً بالنسبة لكتابي (الذي سيصدر عما قريب باللغتين الإنكليزية والفرنسية)، أن يقابل جوني بانتقادات سيئة هذا المساء. إن أرت ومارسيل يحتاجان إلى جوني لكسب معيشتهما، والماركيزة، لا يمكنك أن تعرف ماذا تجد الماركيزة في جوني زيادة عن موهبته. كل هذا لا علاقة له بجوني الآخر، ورحت أتساءل فجأة ما إذا لم يكن هذا هو الذي أراد أن يقوله لي حين انتزع غطاءه، وأظهر عريه التام. جوني بدون الساكسو، جوني بدون لباس وبدون مال، جوني المؤرق بشيء ما، لا يتوصل ذكاؤه المسكين إلى فهمه، لكن هذا الشيء يطفو ببطء في موسيقاه، ويداعب بشرته، وربما سوف يدفعه إلى القيام بوثبة مباغتة لن نستطيع فهمها أبداً. وذهبت إلى قاعة بلابل لحضور حفلة جوني. سوف أكتب غداً بكل تأكيد، تقريراً عن الحفلة الموسيقية لمجلة «جاز ـ هوت». ولكن هنا، في هذه القاعة، مع ملاحظات الاختزال التي أكتبها بسرعة على ركبتي، لا أرغب إطلاقاً في أن أكتب كناقد. لماذا أنا عاجز عن أن أفعل مثل جوني، لماذا أنا عاجز عن أن أهجم ضارباً رأسي بالحائط؟. إنني أقابل بدقة الكلمات بالواقع الذي تدعي وصفه، واحتمي وراء اعتبارات وشكوك ليست سوى جدلية بلهاء. ويبدو لي أنني أفهم لماذا تريد الصلاة أن نركع غريزياً على ركبتينا. إن تغير الوضع هو رمز تغير في الصوت، تغير في ما سنقوله، في ما يقال. حين أصل إلى هذه النقطة من الفهم، تُشْحَن الأشياء التي بدت لي اعتباطية قبل ثانية بمعنى عميق، وتتبسط بصورة هائلة وفي الوقت نفسه تتجوف. ولم يفهم أرت ولا مارسيل أنه ليس بمجرد جنون خلع جوني أمس حذاءه في ستوديو التسجيل. لقد كان بحاجة، في تلك اللحظة، لأن يحس بالأرض تحت قدميه، ولأن يلمس الأرض التي تؤكدها موسيقاه بدلاً من أن تفر منها. ذلك لأنني أحس هذا أيضاً في جوني، إنه لا يفر من أي شيء، وهو لا يتعاطى المخدر للفرار مثل أكثرية متعاطي المخدرات، وهو لا يعزف الساكسو

fb/mashro3pdf

للاحتماء وراء الموسيقى، ولا يقضي عدة أسابيع في مستشفيات الطب النفسي للاحتماء من ضغوط يعجز عن تحملها. إن اسلوبه بالذات، الذي هو الشطر الأكثر صدقاً من ذاته، يثبت أن فنه ليس إبدالاً ولا طريقة لإكمال الذات. لقد تخلى جوني عن الأسلوب الـ Hot [1] لأن هذه اللغة الغرامية الشهوانية بصورة عنيفة كانت سلبية جداً بالنسبة له. وعنده تتعارض الرغبة مع اللذة وتحبطها لأن الرغبة تجبره على المضي إلى الأمام وتمنعه من أن يعتبر بمثابة جسارات لقُيات الجاز التقليدية. لأجل هذا، كما أعتقد، لا يحب جوني كثيراً الـ «بلوز» (Blues) ، أو المازوخية وحالات الحنين . . . لكنني تحدثت عن هذا كله في كتابي، وقد بينت كيف حمل التخلي عن المتعة الفورية جوني إلى صياغة لغة جديدة يقوم بدفعها اليوم، بالاشتراك مع موسيقيين آخرين، حتى معاقلها الأخيرة. إنه جاز ينبذ كل نزعة غرامية شهوانية سهلة، كل فاغنرية إذا صح التعبير، والذي يضع نفسه على صعيد مفارق (متجرد عن الجسد) حيث تتحرك الموسيقى أخيراً بكل حرية مثل فن الرسم الذي تحرر من التمثيلي (التصويري، أو تمثيل الأشياء الواقعية) والذي استطاع أخيراً أن لا يكون سوى فن رسم. ولكن ما أن يسيطر على هذه الموسيقى التي لا تسهل رعشة اللذة النهائية ولا الحنين، هذه الموسيقى التي أحب أن أستطيع تسميتها ميتافيزيقية، فإن جوني يبدو أنه يريد أن يستخدمها لكي يستكشف نفسه بالذات، لكي يمسك بهذه الحقيقة الواقعية التي تفلت منه أكثر قليلاً كل يوم، في هذا تكمن المفارقة الرفيعة لأسلوبه، وفعاليته العدوانية. إنه وهو العاجز عن إرضاء نفسه، مهماز دائم، وبناء لامتناه لا يجد لذته في الاكتمال بل في الاستكشاف المستعاد بلا انقطاع، واستخدام قدرات تزدري ما هو بشري بصورة مباشرة دون أن تفقد شيئاً من انسانيتها. وحين يضيع جوني، شأنه هذا المساء، في الخلق المستعاد بلا نهاية لموسيقاه، فأنا أعرف جيداً جداً أنه لا يفر من أي شيء. إن الذهاب إلى موعد لقاء ليس فراراً، حتى ولو كنا نبعد في كل مرة مكان اللقاء؛ أمّا ما يبقى

(١) Hot باللغة الإنكليزية تعني الحار أو النشيط. (المترجم).

fb/mashro3pdf

إلى الوراء، فجوني يجهله أو يزدريه بكل سيادة. الماركيزة، مثلاً، تعتقد أن جوني يخاف البؤس، وهي لا تفهم أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يخافه جوني هو أن لا يجد قطعة لحم الخروف في متناول سكينه حين يكون راغباً في أكل واحدة، أو أن لا يجد سريراً حين يحس بالنعاس، أو أن لا يجد مئة دولار في محفظته حين يكون راغباً في إنفاقها. إن جوني لا يتحرك في عالم من المجردات مثل عالمنا، ولهذا فليس في موسيقاه الرائعة، هذه الموسيقى التي سمعتها منذ قليل، أي شيء تجريدي، لكنه هو وحده الذي يستطيع أن يضع حساباً لما جناه وهو يعزف؛ لكنه أصبح عليه أن يفكر في شيء آخر، وأن يضيع في تخمينات جديدة، في افتراضات جديدة. إن فتوحاته ومكاسبه هي أشبه بأحلام، وهو يفقدها حين يستيقظ، حين يعيده تصفيق الجمهور من حيث كان، بعيداً جداً، من هناك حيث مدة الدقيقة والنصف تساوي ربع ساعة.

كان ذلك كأن المرء يعيش معانقاً دافعة صواعق في إبان الإعصار، مقتنعاً بأنه لن يحدث شيء بعد ذلك بأربعة أو خمسة أيام، التقيت بـ آرت بوكايا في مقهى «دوبون» بالحي اللاتيني، وحتى قبل أن يحييني رفع عينيه نحو السماء وأبلغني الأنباء السيئة. وعلى الفور، أحسست لذلك بارتياح أنا مضطر لوصفه بالخبيث: كنت أعرف جيداً أن الهدوء لا يمكن أن يدوم طويلاً. ولكن بعد ذلك، حين فكرت في العواقب، أحسست بضربة في صدري وشربت كأسي كونياك أفرغت كلاً منهما بجرعة واحدة في حين كان آرت يروي لي ما حدث. لقد حدد دولوناي جلسة تسجيل لتقديم خماسية[1] جديدة بقيادة جوني وتضم مارسيل آرت وشخصين من هنا، ممتازين، أحدهما على البيانو، والآخر على الطبل، الخ. وكان عليهم أن يبدأوا في الساعة الثالثة وأن يستمروا طوال فترة بعد الظهر وقسم من السهرة لكي يحموا قبل تسجيل عدد من الأشياء. «وهل

(١) خماسية Quintette : مقطوعة موسيقية معدة لخمس آلات أو لخمسة أصوات ـ أو مقطوعة موسيقية ذات خمسة أجزاء ـ وقد تعني الكلمة أيضاً فرقة من خمسة مغنين. (المترجم).

fb/mashro3pdf

تعرف ما أفضل شيء يفعله جوني؟» إنه يبدأ بالوصول في الساعة الخامسة، وأمام دولوناي الذي كان يغلي من نفاد الصبر يسقط على كرسي قائلاً إنه ليس في حالة جيدة، وانه لم يأت إلاّ لكي لا يتخلى تماماً عن الأصحاب، لكنه ليست لديه أية رغبة في العزف.

لقد حاولنا، مارسيل وأنا، إقناعه بأن يرتاح أولاً، وأننا بعد ذلك سوف نرى، لكنه كان لا يقوم إلا بالتحدث عن حقول ملأى بمرامد، وقد قضينا أكثر من نصف ساعة نستمع إلى حديثه عن المرامد، وبعد ذلك، أخرج من جيوبه كدسة من الأوراق التي التقطها من إحدى الرياض. وبعد مضي خمس دقائق، كان يخيل إلينا أننا في حديقة نباتات، وكان التقنيون ينظرون إلينا بأبواز مائلة، ومع كل هذا، لم نكن قد سجلنا «أي شيء». لست أدري إن كنت تلاحظ أن مهندس الصوت قد أمضى ثلاث ساعات وهو يدخن في غرفته وبالنسبة لفرنسي كان هذا شيئاً له حسابه.

«وأخيراً استطاع مارسيل أن يقنع جوني بأن من الأفضل أن يحاول العزف قليلاً». وأخذا يعزفان كلاهما معاً، ونحن كنا نتابعهما عن بعد، لمجرد أن نفعل شيئاً ما، وكنت قد أدركت، منذ فترة، أن جوني كان مصاباً بما يشبه التشنج في ذراعه اليمنى، وحين بدأ بالعزف، أقسم لك أن منظره كان جميلاً. الوجه رمادي، وبين حين وآخر كان كل جسده يختلج بارتعاشات فظيعة، وكنت أتوقع اللحظة التي سأراه فيها منبطحاً على طوله.

وفجأة، ها هو يطلق صيحة، وينظر إلينا جميعاً، أحدنا بعد الآخر، على مهل، وهو يسألنا ماذا ننتظر لكي نعزف قطعة «أموروس»، أنت تعرفها، وهي من تأليف «الامو»، حسناً، لقد أومأ دولوناي بإشارة إلى التقني، وبدأنا جميعاً بأفضل ما نستطيع، وانتصب جوني على ساقيه المتباعدتين كأنه على سفينة متمايلة وأخذ يعزف عزفاً لم يسبق لي أبداً أن سمعت مثله في حياتي، أقسم لك. واستمر ذلك ثلاث دقائق، وبعد ذلك أطلق أمامنا إحدى تلك النغمات النشاز «غاق، غاق!» التي يرتعد لها الله الأب نفسه، ثم ذهب وجلس في زاوية تاركاً إيانا نتدبر أمرنا بأنفسنا.

fb/mashro3pdf

ولكن ليس هذا كل شيء؛ فحين انتهينا، أخذ جوني يقول ان التسجيل كان رديئاً جداً، وأنه يجب أن لا يؤخذ في الحسبان، طبعاً، لم يصغ إليه دولوناي لأنه لحن جوني الأحادي، بالرغم من جميع نواقصه، كان أفضل بألف مرة من الألحان التي سبق لك أن عرفتها. لم يكن ذلك اللحن يشبه أي شيء، ولا أعرف كيف أوضح لك. . . وسوف ترى أنت بنفسك، وهكذا ترى جيداً أنه لا دولوناي ولا التقنيون سوف يتلفون شيئاً كهذا.

«حينئذٍ انتاب جوني غضب مجنون، وهدد بتحطيم زجاج الغرفة إذا لم نثبت له أن التسجيل قد ألغي. انتهى الأمر بالمهندس بأن أراه اسطوانة ما، لأجل تهدئته، واقترح جوني حينئذٍ تسجيل قطعة «ستربتومايسين» التي سارت بصورة أفضل بكثير من «أموروس»، إن شئت، وبصورة أسوأ بكثير أيضاً؛ إنها قطعة كاملة لا عيب فيها، هي أولاً، ذات لحمة واحدة، ولكن ينقصها ذلك الشيء الهائل الذي وضعه جوني في «أموروس».».

أفرغ آرت كأسه بتنهيدة كبيرة ونظر إلي نظرة كئيبة. وسألته عما فعل جوني إثر ذلك. حسناً، إنه ـ جوني ـ بعد أن صدع رؤوسهم جميعاً بقصصه حول الأوراق والحقول الملأى بالمرامد، لم يقبل العودة إلى العزف، وخرج من الأستوديو مترنحاً، وأخذ مارسيل منه الساكسو لكي لا يفقده أو يحطمه، واقتاده الفرنسيان إلى فندقه.

لم يكن علي أن أفعل سوى شيء واحد، وهو أن أذهب على الفور لزيارة جوني. لكنني أجلت زيارتي إلى اليوم التالي، وفي صباح اليوم التالي وجدت ذكر جوني في حوادث محليات صحيفة «الفيغارو»؛ ويبدو أنه أثناء الليل أشعل النار في غرفته بالفندق، وخرج راكضاً وهو عار تماماً، عبر الأروقة. لم تصب يديه وهو بأذى، لكن جوني نقل رغم ذلك إلى المستشفى حيث وضع قيد المراقبة. وأطلعت زوجتي على النبأ لتسليتها في نقاهتها، وسارعت نحو المستشفى حيث لم تفدني بطاقتي الصحفية شيئاً. وكل ما استطعت معرفته هو أن جوني يهذي بلا وعي، وأن في جسمه شحنة من الماريجوانا قادرة على أن تفقد عشرة أشخاص صوابهم. إن يديه المسكينة لم تستطع مقاومته. إن

fb/mashro3pdf

جميع نساء جوني ينتهي بهن الأمر إلى أن يصبحن متواطئات معه. ولا شيء سينزع من ذهني الفكرة بأن الماركيزة هي التي أوصلت إليه المخدر.

وباختصار سارعت إلى منزل دولوناي للاستماع إلى «أموروس» ومن يدري إذا لم تكن «أموروس» هي وصية جوني المسكين، وفي هذه الحالة فإن من واجبي المهني . . .

ولكن لا، ليس بعد. واتصلت ديديه بي هاتفياً بعد ذلك بخمسة أيام لتقول لي إن حالة جوني تحسنت كثيراً وأنه يريد أن يراني، وقد تخليت عن توجيه التأنيبات له، أولاً لأن هذا سيكون إضاعة لوقتي، ثم لأن صوت المسكينة ديديه كان يبدو خارجاً من إبريق شاي مشقوق. ووعدت بالمرور فوراً على المستشفى وأضفت أنه ربما كان يمكن تنظيم جولة في الأقاليم حين يتماثل جوني للشفاء تماماً. وعلقت السماعة حين بدأت ديديه في البكاء.

كان جوني جالساً على سريره، في غرفة تضم مريضين آخرين، كانا لحسن الحظ نائمين حينئذٍ. ودون أن يترك لي وقتاً لأقول أي شيء، أمسك رأسي بين يديه الكبيرتين وقبلني عدة مرات على الجبهة وعلى الخدين. كان نحيلاً بصورة فظيعة، وإن كان قد أكد لي أن له شهية جيدة وأنهم قد قدموا له طعاماً كثيراً. وفي الوقت الحاضر، كان أكثر ما يشغله هو معرفة ما إذا كان الأصدقاء غاضبين منه، وما إذا كانت النوبة التي أصابته قد ألحقت ضرراً بأحد ما. وما فائدة الرد عليه، فهو يعرف جيداً أن الحفلات الموسيقية قد ألغيت وأن مارسيل وأرت والآخرين أصبحوا بلا عمل، لكنه يسألني ذلك أملاً في أن يكون حدث سعيد قد تحقق في تلك الأثناء ليغير وجه الأمور. ولم يؤثر في هذا. أنا أعرف جيداً أنه في أساس كل هذه الاهتمامات، يوجد لامبالاته المسيطرة كلياً، فجوني لا يهتم إطلاقاً بأن يكون كل شيء قد غرق، وأنا أعرفه جيداً جداً بحيث أكون متأكداً من هذا.

ـ ماذا تريد أن أقول لك يا جوني؟ كان يمكن أن تسير الأمور بصورة أفضل، ولكن لديك اللباقة بأن تفسد كل شيء.

fb/mashro3pdf

أجاب جوني بصوت متعب: نعم، أنا لا أستطيع أن أقول العكس، وكل هذا بسبب المرامد.

تذكرت ما قال أرت، ونظرت إلى جوني.

- إنها حقول ملأى بالمرامد، يا جوني. أكوام من المرامد غير المرئية، المدفونة في حقل شاسع الأبعاد. كنت أسير عبر هذا الحقل، ومن حين إلى آخر أتعثر بشيء ما. طبعاً، ستقول لي إنني حلمت. أنظر، لقد حدث الأمر هكذا: بين حين وآخر، كانت قدمي تصطدمان بمرمدة، ثم لاحظت، شيئاً فشيئاً، أن الحقل مليء بالمرامد، بآلاف وآلاف من المرامد، وفي كل منها كان يوجد رماد أحد الموتى. حينئذٍ انحنيت وأخذت أحفر الأرض بأظافري ونبشت إحدى المرامد، نعم، أنا أتذكر. أتذكر بأي شيء فكرت: «هذه المرمدة، هي فارغة بالتأكيد، ذلك لأنها مرمدتي». ولكن لا، لقد كانت مليئة بمسحوق رمادي مثل رماد المرامد الأخرى، التي كنت أعرفها دون أن أكون قد رأيتها إطلاقاً. وحينئذٍ... وحينئذٍ في تلك اللحظة بدأ تسجيل «أموروس»، كما يبدو لي.

بدأت هيئة جوني، وهياجه، يثيران قلقي. وأصبح من الصعب أكثر فأكثر جعله يتحدث عن الجاز، وعن ذكرياته، وعن مشاريعه، وإعادته إلى الواقع، (إلى الواقع... ما كدت أكتب هذه الكلمة حتى أثارت لدي القرف إن جوني على حق، الواقع لا يمكن أن يكون إلا هذا، لا يمكن أن يكون الواقع أن يكون الشخص ناقد جاز، وإلاّ فهناك شخص يسخر بنا، ولكن من جهة أخرى، إذا قبل المرء بأن يتبع جوني، فسوف ينتهي به الأمر إلى المستشفى).

لقد أغفى، أو على الأقل أغمض عينيه وتظاهر بالإغفاء، إنني أدرك، مرة أخرى، كم أن من الصعب معرفة ماذا يفعل جوني، وما هو. إذا كان ينام، إذا كان يتظاهر بالنوم، إذا كان يعتقد أنه ينام، إنني أحس بنفسي دائماً أكثر بعداً عن جوني من أي صديق آخر له. إنه، ظاهرياً، مبتذل كأكثر ما يكون الابتذال، عادي، تسيطر عليه ظروف حياته المسكينة، وهو في متناول

fb/mashro3pdf

الجميع . وأنا الذي ظللت طوال حياتي أعجب بالعباقرة، أمثال بيكاسو، وأينشتاين، وغاندي، وكل القائمة المقدسة التي يستطيع أي شخص كان أن يضعها في خمس دقائق، أنا مستعد للإقرار بأن هذه الظاهرات تعيش في عالم على حدة، وأنه معها لا ينبغي الاندهاش من أي شيء. إنهم «مختلفون»، يجب دائماً العودة إلى هذا الأمر. وفي المقابل، فإن الفرق بين جوني وبيننا هو غير ملحوظ، ومثير للغضب لأنه غامض، سري، ولأنه لا يمكن تفسيره. ليس جوني عبقرياً، إنه لم يكتشف أي شيء، بل هناك أشخاص لا يحبون عزفه. باناسييه، مثلاً، يجد جوني سيئاً بصراحة، ومع أن باناسييه هو السيء بصراحة، فإنه يوجد هنا مجال للمجادلة. وباختصار، كنت أسعى لكي أفهم لماذا كان ما يجعل جوني مختلفاً عنا لا يمكن تفسيره، ولماذا لا يمكن هنا في فروقات مرئية. ويبدو لي أيضاً أنه هو أوّل من يتألم لذلك، وأن هذا يمسه أكثر مما يمسنا . . . إن لدينا تقريباً رغبة في القول إن جوني هو مثل ملاك بين الناس، لكن نزاهة أولية ترغمنا على قلب العبارة، والإقرار بأن جوني، بالأصح، هو إنسان بين الملائكة، وحقيقة واقعة، بين كل هذه اللاحقائق التي هي نحن.

لحسن الحظ أن مسألة الحريق قد تمت تسويتها. وكما كان منتظراً، فقد قدمت الماركيزة يد المساعدة في هذا الشأن. وقد جاءت ديديه وآرت لزيارتي في الصحيفة، وذهبنا ثلاثتنا إلى محل «فيكس» للاستماع إلى تسجيل «أموروس» هذه القطعة التي أصبحت مشهورة، لكنها ما زالت سرية. وفي السيارة، روت لي ديديه من طرف الشفاه كيف أخرجت الماركيزة جوني من المشكلة؛ ولكن بعد كل شيء، اقتصر الحريق على فراش تحول إلى رماد، وعلى هلع فظيع أصاب جميع الجزائريين الذين يعيشون في فندق شارع لاغرانج. وبعد الغرامة (التي دفعت) وفندق آخر (دفع أجره أيضاً) ها هو جوني الآن يقضي فترة النقاهة في سرير واسع جداً وجميل جداً ويشرب كل ما يشاء من الحليب ويطالع «الباري ـ ماتش» و «النيويوركر»، دون نسيان كتابه الصغير الأجرب الذائع الصيت الحاوي لقصائد دايلان توماس، المليء بالتعقيبات والتعليقات.

fb/mashro3pdf

مزودين بهذه الأنباء، وبكأس من الكونياك شربناه في مقهى الزاوية، جلسنا في قاعة الاستماع للاصغاء إلى «آموروس» وإلى «ستربتومايسين». وطلب آرب إطفاء الأضواء ورقد على الأرض لكي يستمع بصورة أفضل. وحينئذٍ وصل جوني وانتابته نوبة غضب لمدة ربع ساعة. أنا أفهم أن فكرة نشر «آموروس» يمكن أن تثير غضبه، فالنواقص فيها يمكن أن ترى بالعين المجردة، واللهاث الذي يرافق بعض النهايات مسموع تماماً، وعلى الأخص لحن النشاز في ختام القطعة، هذا اللحن الأبكم والوجيز الذي جعلني أفكر في قلب ينفجر، وفي سكين تدخل في رغيف. ولكن ما لن يدركه جوني حسياً، والذي هو جميل ورائع بصورة لا تقاوم، هو هذا القلق الشائع في القطعة، والذي يبحث عن مخرج في هذه الموسيقى الارتجالية التي تفر من جميع الجهات، إلى جميع الجهات والتي تسأل وتتخبط بيأس وإصرار. إن جوني لا يستطيع أن يفهم: إن ما يبدو له إخفاقاً هو بالنسبة لنا طريق أو على الأقل بداية طريق. وستبقى «آموروس» إحدى أهم لحظات الجاز. إن الفنان الذي في جوني سوف يجن من الغضب كلما سمع هذا الكاريكاتور لرغبته، لكل ما أراد قوله وهو يصارع، ويترنح، في حين يسيل اللعاب من فمه في الوقت نفسه مع الموسيقى، وهو الأشد وحدة من أي وقت مضى تجاه ما يتابعه، ما يفر منه بمقدار ما يطارده هو. هذا غريب، لقد توجب علي أن أسمع «آموروس» لكي أفهم، مع أنه كانت ثمة مؤشرات أخرى، أن جوني ليس ضحية، وليس مضطَهداً (بفتح الهاء) مسكيناً، كما يظنه الجميع. أنا أعرف الآن أن هذا غير صحيح. ليس جوني هو المطارَد (بفتح الراء) بل هو المطارِد (بكسر الراء)، وكل ما يحدث له في الحياة هي إخفاقات صياد وليس إخفاقات حيوان مطارد. لا أحد يعرف ماذا يطارد جوني، لكن الأمر هو هكذا، في «أموروس» وفي الماريجوانا، في مخاطباته العبثية، وفي انتكاساته، وفي كتيب دايلان توماس، وفي هذه الكيفية بأن يكون صعلوكاً مسكيناً التي ترفع جوني فوق ذاته، وتجعل منه عبثية حية، صياداً بلا ساقين ولا ذراعين، أرنباً برياً يركض وراء نمر راقد. وأرى نفسي ملزماً بالقول إن «أموروس» في الأساس، قد أحدثت لدي رغبة في التقيؤ، كأنما لكي أتحرر من هذه

fb/mashro3pdf

الموسيقى، من كل ما يركض، في هذه الأسطوانة، ورائي ووراء الجميع، هذه الكتلة السوداء وعديمة الشكل، التي بدون يدين ولا قدمين، هذا الشانبنزي المجنون الذي يمر بأصابعه على وجهي ويبتسم لي بحنو.

وقالت لي ديديه وهي تودعني:

- تعال لزيارتنا حين تستطيع، إنه يحب كثيراً التكلم معك.

* * *

من جهة جوني، كان كل شيء على ما يرام في الوقت الحاضر. ولكن مما يثير الفضول، والقلق أيضاً أنني أحس بسرور عظيم منذ أن تكون الأمور على ما يرام عند جوني. ولست بريئاً كفاية لكي أعتقد بأنه مجرد شعور دافعه الصداقة. بل هو بالأصح حكم مؤجل التنفيذ، وتنهدة ارتياح. ويثير غيظي الشديد أنني الوحيد الذي يحس هذا، وأتألم منه بلا انقطاع. ويثير غيظي الشديد أن تيكا وديديه وأرت بوكايا لا يفهمون أنه في كل مرة يتألم جوني، أو يدخل السجن، أو يحاول الانتحار، أو يضرم النار في فراش أو يركض عارياً تماماً في أروقة فندق، فإنه يدفع عنهم، ويموت من أجلهم. دون أن يعرف ذلك. إنه ليس من أولئك الذين يلقون خطاباً في أسفل المشنقة أو يؤلفون كتباً للتنديد بآلام البشرية، أو يعزفون على البيانو كأنما ليغسلوا العالم من خطاياه. وهو دون أن يدري، عازف الساكسوفون المسكين، مع كل ما تحويه هذه الكلمة من شيء مضحك وحري بالاهمال، عازف ساكسوفون زيادة، بين كثير من العازفين الآخرين. والمشكلة هي أنني إذا تابعت على هذا النحو فسوف أتكلم عن نفسي أكثر مما أتكلم عن جوني. وسوف أشبه مؤلفاً انجيلياً، وهذا لا يروق لي إطلاقاً. ولكي أستعيد شيئاً من الثقة فكرت بوقاحة لدى عودتي إلى منزلي في أنني في كتابي عن جوني لم أقم إلا بتلميح غامض إلى الجانب المَرَضي (بفتح الراء) من الشخصية. إنني لم أر من الضروري أن أوضح للناس أن جوني يعتقد أنه يسير في حقول ملأى بالمرامد أو أن الرسوم واللوحات تتحرك حين ينظر إليها؛ إنها مجرد رؤى سرابية عائدة إلى الماريجوانا وأن علاجاً جيداً لإزالة التسمم سوف يزيلها. ولكن يخيل

fb/mashro3pdf

إلي أن جوني كان يترك لي هذه الهلوسات بمثابة رهن لديّ، وأنه يدسها في جيبي مثل مناديل بسيطة منتظراً اللحظة لكي يستعيدها.

لقطات متتالية. لست أجد طريقة أخرى للتعبير، فجأة، تنطلق في حياة إنسان لقطات متتالية رهيبة أو بلهاء، دون أن نعرف أي قانون، خارج القوانين المعروفة، يقررها. وهكذا ففي هذا الصباح، حين كنت لا أزال أحتفظ بالبهجة لمعرفتي بسعادة جوني كارتر وبأنه في أفضل صحة، اتُصل بي هاتفياً في الصحيفة. كانت تيكا هي التي اتصلت بي لتقول لي إن «بي»، أصغر بنت لـ «لان» وجوني، قد توفيت مؤخراً في شيكاغو، وأن جوني، بالطبع، أصبح بسبب ذلك نصف مجنون وأنني أحسن صنعاً بأن أذهب لمؤاساتهما قليلاً. صعدت سلماً آخر لفندق (هناك فنادق كثيرة في قصة صداقتي مع جوني) لأجد تيكا تتناول الشاي، وديديه تبلل فوطة، وآرت ودولوناي وبيب راميريز يتحدثون بصوت منخفض عن آخر أنباء ليستر يونغ، وجوني، ساكناً في سريره، وعلى جبهته فوطة، وهو هادىء المظهر تماماً وبهيئة شبه مزدرية. وتخليت فوراً عن مظهر المناسبة الذي كنت قد اتخذته واكتفيت بالشد بقوة على يد جوني، واشعال سيجارة والانتظار.

ـ برونو، إن هذا يؤلمني، هنا، هكذا قال جوني بعد فترة، وهو يمسّ الموضع المفترض للقلب. برونو، لقد كانت مثل حجرة بيضاء في يدي. وأنا لست سوى حصان أصفر مسكين، ولا أحد، أبداً، سوف يستطيع أن يمسح دموعي.

كل هذا قيل بنبرة رصينة، وكأنه يتلو نصاً. ونظرت تيكا إلى آرت وكلاهما قاما بحركات تدل على التسامح لأن جوني لم يكن باستطاعته رؤيتهما. أنا شخصيا، تثير العبارات الرخيصة قرفي، هذا بالإضافة إلى أنه سبق لي أن قرأت هذه العبارة في مكان ما؛ وقد حسبت أنني أسمع قناعاً يصدر عنه صوت أجوف. جاءت ديديه لتغيير الفوطة واستطعت أن ألحظ وجه جوني؛ كان ذا لون رمادي مرمد، وفمه ملتو، وعيناه مزويتان لشدة إطباقه على مقلتيه. وكما هي الحال مع جوني، انقلبت الأشياء بصورة غير متوقعة، وكان بيب راميريز

fb/mashro3pdf

الذي كان يعرفه بالكاد كان لا يزال تحت تأثير اندهاش مصدوم، ذلك لأن جوني جلس بعد فترة على سريره وأخذ يشتم على مهل، وهو يمضغ كل كلمة، ثم يطلقها مثل خذروف[1]، وراح يشتم المسؤولين عن تسجيل «أموروس»، دون النظر إلى أحد، لكن البذاءة الفظيعة لعباراته كانت تسمّرنا جميعاً مثل حشرات على كرتونة؛ واستمر ذلك دقيقتين مليئتين، ومر الجميع بشتائمه، آرت، ودولوناي، وأنا بالذات (رغم أنني . . .) وفي النهاية ديديه، والمسيح الكلي القدرة وأمنا العاهرة، كلنا جميعاً وبدون استثناء. كان ذلك، في الأساس، مع الحجر الأبيض، هو تأبين «بي» التي توفيت في شيكاغو بذات الرئة.

سوف تمضي خمسة أيام فارغة؛ جبل من العمل، مقالات، وزيارات، وهي خلاصة أمنية لحياة ناقد، هذا الرجل الذي لا يستطيع أن يعيش إلاّ بالاستعارات. وفي مساء أحد الأيام، سنكون، تيكا، وبابيي لينوكس، وأنا في مقهى «فلور» ندندن بابتهاج أغنية: Out of nowhere ، ومتحدثين قطعة أحادية للبيانو من تأليف بيلي تايلور، كنا قد أحببناها نحن الثلاثة، ولكن خصوصاً بابيي لينوكس التي اتخذت الآن اسلوب «السان جرمان دي بريه»، الذي يناسبها بصورة مدهشة، وسترى بابيي ظهور جوني، وستتابعه بعينيها مع كل الحب الكبير الذي تلهمها به أعوامها العشرون، وسينظر إليها جوني ولكن أن يراها وسيعبر طريقه؛ سيذهب للجلوس وحده إلى طاولة أخرى، سكران تماماً أو نائماً. . . وستضع تيكا يدها على ركبتي:

- أترى، لا بد أنه دخن مجدداً في الأمس، أو بعد ظهر اليوم، إن هذه المرأة. . .

وسأجيبه من أطراف الشفاه بأن ديديه لم تكن أكثر ذنباً منها، مثل، التي دخنت عشرات المرات مع جوني والتي ستعيد الكرة متى شاءت، وسأحس

---

(١) الخذروف أو البلبل، لعبة الأطفال المعروفة. (المترجم).

fb/mashro3pdf

فجأة برغبة في الانصراف وفي أن أكون وحدي في كل مرة لا أستطيع الاقتراب من جوني، وحيث لا أستطيع أن أكون معه، في نفس الجانب معه، وسأراه وهو يرسم رسوماً على الطاولة بإصبعه، وينظر طويلاً إلى خادم المقهى الذي يسأله ماذا يريد أن يشرب، ثم يرسم أخيراً في الهواء ما يشبه القوس ويسنده بيديه الاثنتين وكأن هذا القوس ثقيلاً جداً؛ وسيأخذ الأشخاص حول الطاولات المجاورة بالتسلي خفية بالمنظر، كما يليق بجمهور الـ «فلور». وحينئذٍ ستقول تيكا: «اللعنة!»، وستذهب نحو جوني وتحدثه في أذنه بعد أن تطلب شيئاً ما من خادم المقهى. وبديهي أن بايبي سوف تغتنم الفرصة لتسر إلي بأحب آمالها، لكنني سأجيبها بأنه في هذا المساء يجب ترك جوني وشأنه، وأن الفتيات الصغيرات العاقلات يذهبن إلى النوم في ساعة مبكرة، وإذا أمكن برفقة ناقد جاز. وستضحك بايبي بلطف، وستداعب يدها شعري، ثم سنجمد ساكنين ونحن ننظر إلى مرور الفتاة التي طلت وجهها بأبيض الاسبيداج ومقلتيها وحتى فمها باللون الأخضر، وستقول بايبي إن الأمر ليس سيئاً جداً بعد كل شيء، وأنا سأطلب منها أن تغني إحدي تلك الأغاني «البلوز» التي أخذت تكسبها الشهرة في لندن أو في ستوكهولم. ثم سنعود إلى أغنية Out of Newhere التي تلاحقنا هذا المساء، بلا نهاية، مثل كلب أبيض اسبيداج هو أيضاً، بعينين خضراوين.

وسيمر بقربنا شابان من أعضاء خماسية جوني الجديدة وسأغتنم الفرصة لأسألهما كيف سارت الأمور أمس؛ وسأعلم أن جوني كان بالكاد يستطيع العزف لكن أنغامه القليلة كانت أفضل من جميع ارتجالات جون لويس. وسوف أتساءل إلى متى سوف يستطيع جوني الصمود وعلى الأخص الجمهور الذي يؤمن بجوني. وسوف ترهقني بايبي بالأسئلة وسينتهي بي الأمر إلى أن أوضح لبايبي[1]، التي تستحق لقبها بالتأكيد، بأن جوني مريض وضعيف، وأن الفتيان أعضاء خماسيته يزدادون يأساً أكثر فأكثر، وأن الأمر سينهار في

(١) بايبي Baby باللغة الإنكليزية تعني «الطفلة». (المترجم).

fb/mashro3pdf

أحد هذه الصباحات الأربعة كما انهار قبلاً في سان فرانسيسكو، وفي بالتيمور وفي نيويورك، نصف دزينة من المرات.

وسيدخل عازفا ساكسوفون من الحي ويوجهان التحية إلى جوني، لكنه سينظر إليهما ببلاهة فظيعة، وكأنما من بعيد جداً، بعينين نديتين ولطيفتين، وفم منفرج ومليء باللعاب. وأمر مسل هو النظر إلى لعبة تيكا وبايبي المزدوجة. سوف تستخدم تيكا التأثير الذي تعرف أنها تملكه على الرجال لكي تبعد عازفي الساكسوفون بإيضاح سريع وابتسامة. وستهمس بايبي في أذني إعجاباً بجوني وتقول إنه ينبغي أخذه دون تأخير إلى عيادة لشفائه من التسمم، وذلك فقط لأنها تحس بالغيرة، وأنها تحب أن تضاجع جوني هذا المساء بالذات، وهذا مستحيل بصورة ظاهرة ويحدث لدي سروراً ملحوظاً. وسأقول في نفسي، مثلي في كل مرة ألتقي فيها ببايبي، إنه سيكون من اللذيذ مداعبة فخذيها وسأكون على أهبة أن أقترح عليها الذهاب لشرب كأس في مكان أكثر هدوءاً (إنها لن تريد على كل حال، ولا أنا أيضاً لأن هذه الطاولة، هنا، تحجزنا إلى كرسينا، والقلب متكدر). وفجأة ودون أن نستطيع معرفة ماذا سيحدث، سنرى جوني ينهض على مهل، وينظر إلينا، ويعرفنا، ويأتي نحونا ـ أو بالأصح نحوي، لأن بايبي لا يحسب حسابها ـ، وينحني بصورة طبيعية جداً، مثل شخص يريد أن يأخذ قطعة بطاطا مقلية من الصحن، ويركع أمامي، دائماً بصورة طبيعية جداً، ثم ينظر إلي مواجهة، وسأرى أنه يبكي، وسأحزر أن ذلك بسبب الصغيرة «بي».

أردت أن أنهض جوني، وتلافي أن يصبح مضحكاً وفي النهاية أنا الذي أصبحت مضحكاً، ذلك لا شيء ادعى إلى الرثاء من رجل يجهد لجر رجل آخر يجد أنه مرتاح جداً حيث هو، ويحس بأنه مرتاح تماماً في الوضع الذي يريد اتخاذه، بحيث أن رواد الـ «فلور» ـ الذين لا يتأثرون لسبب بسيط ـ قد أخذوا ينظرون إلي نظرة غير لطيفة إطلاقاً ـ علماً بأنهم لم يكونوا يعرفون أن هذا الرجل الأسود الراكع كان جوني كارتر ـ ينظرون إليّ كما يمكن النظر إلى شخص أحمق أو طائش، يصعد إلى مذبح في كنيسة، ويشد المسيح من قدمه

fb/mashro3pdf

لانزاله عن الصليب، وجوني أيضاً قد لامني، واكتفى بأن رفع عينيه نحوي ونظر إلي وهو يبكي في صمت؛ حينئذٍ لم يبق أمامي إلاّ أن أفعل شيئاً واحداً، وهو أن أجلس مجدداً تجاهه لكنني كنت أحس بالضيق أكثر منه، وكنت أفضل أن أكون في أي مكان كان بدلاً من أن أكون على هذا الكرسي وأمام جوني الراكع على ركبتيه. . . ومرت دهور قبل أن يتحرك أحد، وقبل أن تتوقف الدموع عن السيلان على وجنتي جوني، وقبل أن تتلافى عيناه عيني، وأنا كنت أحاول أن أقدم له سيجارة، وأن أشعل واحدة لي، وأن أقوم بإشارة تواطؤ إلى بابيي التي كانت على وشك الفرار راكضة أو الانخراط في البكاء، هي أيضاً. وكما هي الحال دائماً، فإن تيكا هي التي أعادت الأمور إلى نصابها، حين جاءت للجلوس إلى طاولتنا بهيئتها الهادئة؛ وقربت كرسياً من جوني ووضعت يدها على كتفه، دون أن تجبره على شيء، ولكن في النهاية انتصب جوني قليلاً وانتقل من ذلك الوضع الفظيع إلى الوضع الصحيح لصديق جالس إلى طاولة مع أصدقاء. وتعب حضور الـ «فلور» من النظر إليه، هو يبكي ونحن نحس بأننا بؤساء مثل كلاب.

وفجأة فهمت الحنان الذي يحس به بعض الرسامين نحو الكراسي؛ وظهرت لي أقل كرسي في «الفلور» فجأة مثل شيء مدهش، زهرة، عطراً، الأداة الكاملة للنظام والحشمة في الحاضرة.

وخرجت مع جوني، وحدنا إلى الشارع. وقادنا شارع «لاباي» شيئاً فشيئاً إلى ساحة فورستنبرغ التي تذكر بصورة خطرة جوني بمسرح أهداه إليه عرابه حين كان، أي جوني، في الثامنة من عمره. وحاولت أن أقوده إلى شارع جاكوب، خوفاً من أن تعيده هذه الذكريات إلى «بي»، ولكن يبدو أن هذا الباب أغلق لهذا المساء، كان جوني يسير مترنحاً (كثيراً ما رأيته يترنح، حتماً دون أن يكون ثملاً؛ هناك شيء مختل في ارتكاسات الأعصاب)، إن حرارة الليل، وصمت الشوارع قد أراحانا نحن الاثنين. كنا ندخن سجائر «غولواز»، وتقدمنا نحو «الساين» وأمام إحدى العلب الحديدية لمكتبة على رصيف «كونتي» أعاد النغم الذي كان أحد الطلبة المارين يصفره إلى ذاكرتنا

fb/mashro3pdf

قطعة لفيفالدي فأخذنا نغني بإحساس وحماسة، وقال جوني بأنه لو كان معه الساكسو لقضى الليل وهو يعزف ألحان فيفالدي. وقد وجد، هذا مبالغاً فيه بعض الشيء.

قال جوني متسامحاً: حسناً، سوف أعزف أيضاً قليلاً من باخ وقليلاً من شارل إيف. لست أدري لماذا لا يحب الفرنسيون شارل إيف. هل تعرف أغانيه؟ أغنية «الفهد» على الأخص، يجب أن تتعلم أغنية «الفهد»: آه، أيها الفهد...

وها هو ينطلق في الغناء عن الفهد بصوته الصادح (تينور) الرفيع. وغني عن القول إن أغلب العبارات التي كان يغنيها ليست إطلاقاً من شارل إيف، لكن هذا كان بالنسبة له سيّان، المهم أنه كان يغني اللحن الذي يروق له. وفي النهاية جلسنا على الدرابزين أمام شارع «جي ـ لو ـ كور» ورحنا ندخن سيجارة أخرى لأن الليل جميل. وكنا نعلم أن التدخين سيرغمنا بعد قليل على الذهاب لشرب الجعة في أحد المقاهي، وكان هذا يسرنا مسبقاً. وأنا لم ألاحظ في تلك اللحظة أوّل تلميح قام به إلى كتابي لأنه عاد فوراً للكلام عن شارل إيف؛ وعن ألحان شارل إيف التي تسلى باستعادتها عدة مرات في اسطواناته ـ أي جوني ـ لأن أحداً لا يلاحظ ذلك (ولا حتى إيف، كما افترض) ولكن بعد فترة تذكرت التلميح الذي قام به عن كتابي وحاولت أن أعيده إلى هذا الموضوع.

ـ أوه، لقد قرأت بضع صفحات منه فقط. وقد تكلموا كثيراً عند تيكا عن كتابك، لكنني أنا ما كنت أفهم حتى عنوانه، ولحسن الحظ، فقد أحضر لي آرت أمس الطبعة الإنكليزية واستطعت أن أقرأ قليلاً منها. إنه جيد جداً، كتابك. اتخذت الموقف المعتاد في مثل هذه الحالات، بهيئة نصف متجردة، ونصف مهتمة كما لو أن رأيه سوف يكشف لي، أنا المؤلف، عن الحقيقة حول عملي.

ـ الأمر كما في مرآة. في البدء اعتقدت أن قراءة ما يكتب عنك هو، إلى حد ما، كما لو أن المرء يرى نفسه، ولكن ليس في مرآة. إنني معجب كثيراً

fb/mashro3pdf

بالكتّاب، وهائلة هي الأشياء التي يقولونها. كل هذا القسم حول أصول الـ «بي ـ بوب[1] be - bop . . .

ـ أنت تعرف، انني لم أفعل سوى أنني نقلت حرفياً ما رويته لي في بلتيمور، هكذا قلت وأنا أدافع عن نفسي، دون أن أدري لماذا.

ـ نعم، في الواقع، لقد وجدت كل شيء مجدداً، ولكن مع ذلك كأنما في مرآة، عاد جوني يقول، بإصرار.

ـ ماذا تريد أكثر من ذلك؟. إن المرايا أمينة.

ـ تنقص بعض الأشياء، يا برونو. إنك ضليع أكثر مني بكثير، ولكن يبدو لي أنه تنقص أشياء. نعم، لقد قلت لك إنه تنقص أشياء. اسمع، لا ينقص فقط فستان «لان» الأحمر. . . بل إنه . . . هل هي حقاً مرامد، يا برونو؟ لقد رأيتها مجدداً مساء الأمس، حقل شاسع، لكنها لم تعد مدفونة في الأرض. كان بعضها يحمل كتابات، ورسوماً، وكان يرى عليها عمالقة بخوذات، يمسكون بأيديهم هراوات ضخمة كما في السينما. والأمر فظيع أن أسير بين هذه المرامد وأن أعلم أنه لا يوجد أحد سواي، وأنني وحدي أبحث في هذا الحقل. ولكن لا تحزن، يا برونو، فلا أهمية لكونك نسيت أن تضع شيئاً من هذا كله في كتابك، فقط ـ ورفع إصبعاً لا ترتعش ـ لقد نسيت أنت مع ذلك شيئاً آخر: أنا.

ـ جوني، إنك تبالغ.

ـ تماماً، يا برونو، أنا. ولكن ليست غلطتك إذا كنت لم تستطع أن تكتب ما أعجز، أنا أيضاً، عن عزفه. حين تقول، مثلاً، إن سيرة حياتي الحقيقية هي في اسطواناتي، وأنا أعرف أنك مقتنع بذلك، ثم ان هذا القول له رنين جيد، لكنه غير صحيح، ولكن، بما أنني لم أتوصل أنا نفسي لأن

---

(١) الـ بي ـ بوب be - bop : ضرب من موسيقى الجاز. أو رقصة سريعة على موسيقى الجاز. (المترجم).

fb/mashro3pdf

أعزف كما كان ينبغي، أن أعزف ما أنا هو حقاً . . . أنت ترى جيداً، يا برونو، ما كان باستطاعتي أن أطلب معجزات. الحر شديد هنا في الداخل، فلننصرف.

تبعته في الشارع واجتزنا بضعة أمتار إلى أن اعترض سبيلنا قط أبيض. حينئذٍ توقف جوني وانحنى لمداعبته، فترة طويلة. حسناً، هذا كاف لهذه المرة. وفي ساحة «سان ميشال» سأجد سيارة تاكسي تقله إلى فندقه وأعود إلى منزلي. لم يكن الأمر رهيباً جداً، وبعد كل شيء، خفت لحظة من أن يكون جوني قد صاغ نقيضاً لكتابي وأنه قد جرت تأثيرات هذا النقيض علي قبل أن يعلن ذلك جهاراً هنا وهناك. مسكين جوني وهو آخذ بمداعبة قط أبيض! وفي الأساس فإن الشيء الوحيد الذي قاله هو أنه لا أحد يعرف أي شيء عن أحد، وهذا ليس شيئاً جديداً. فكل سيرة حياة مكتوبة تضمر ذلك كنقطة انطلاق، وهذا لا يمنع كاتبها من المضي قدماً. هيا، يا جوني، لنعد، لقد تأخر الوقت.

ـ لا تعتقد أن هذا هو كل شيء هكذا كان وهو ينتفض فجأة وكان كأنة يعرف ما أفكر فيه. وأضاف: هناك الله، يا صديقي. وفي هذا الصدد، أستطيع القول إنك لم تفهم شيئاً.

ـ هيا، يا جوني، فلنعد، لقد تأخر الوقت.

ـ ربما كان يوجد في كتابك ما تسميه أنت وأولئك الذين يشبهونك، الله. أنبوب معجون الأسنان للصباح، يسمونه الله، ودلو النفايات يسمونه الله. والخوف من أن ينفجروا، يسمونه الله، ألا تحس بالخجل لأنك زججتني في هذه القذارة؟ لقد كتبت بأن طفولتي وأسرتي ولست أدري أية عوامل وراثية عن أسلافي. . . كومة من البيض الفاسد وأنت جاثم فوقها، تقوقيء، مفتوناً بلقيتك. لا أريد إلهك هذا، فهو لم يكن أبداً إلهي.

ـ الشيء الوحيد الذي قلته هو أن الموسيقى الزنجية . . .

ـ لا أريد إلهك، كرر جوني قائلاً.

لماذا فرضته علي في كتابك. أنا لا أعلم، من جهتي، إذا كان يوجد إله،

fb/mashro3pdf

إنني أعزف ـ موسيقاي، وأصنع إلهي الذي لي، ولست بحاجة إلى اختلاقاتك، دع هذا لـ ماهاليا جاكسون وللبابا؛ سوف تحذف هذا المقطع من كتابك، وعلى الفور.

قلت، لكي أقول شيئاً ما: إذا كنت تحرص على ذلك بالتأكيد، في الطبعة الثانية...

ـ أنا وحيد مثل هذا القط، بل وأكثر وحدة بكثير لأنني أعرف هذا، وهو لا. القذر، إنه يغرس أنيابه في يدي. يا برونو، إن الجاز ليس هو موسيقى فقط، وأنا لست فقط جوني كارتر.

ـ هذا بالضبط ما أردت قوله حين كتبت إنك تعزف أحياناً كما...

ـ كما لو أنها تمطر في قفاي... هكذا قال جوني وهذه أوّل مرة في السهرة أحسه غاضباً. وأضاف: لا يمكن الإنكار، إنك تعبر عن هذا فوراً في لغتك القذرة، وإذا كنت ترى ملائكة حين أعزف فهذا ليس ذنبي. وإذا كان الآخرون يظلون فاغري الأفواه ويقولون انني أبلغ الكمال فهذا أيضاً ليس ذنبي؛ وهذا هو أسوأ ما في الأمر، يا برونو؛ وهذا هو على الأخص ما نسيت أن تقوله في كتابك، وهو أنني لا أساوي شيئاً؛ إن ما أعزفه، وما يصفق له الناس، ليست له أية قيمة، أية قيمة إطلاقاً.

وعاودنا السير في الشارع، ودفعت جوني قليلاً نحو الساحة. وكان الوقت قد تأخر كثيراً، ولحسن الحظ كان لا يزال هناك سيارة تاكسي.

ـ إن إلهك الطيب على الأخص هو الجاثم على صدري، قال جوني هامساً. لا تأت وتنهق أمامي حول هذا الموضوع، فلن أسمح بهذا. وإذا كان موجوداً حقاً في الجانب الآخر من الباب، فهذا لا يهمني إطلاقاً. فليس لك أي فضل إذا مررت إلى الجانب الآخر من الباب، إذا كان هو الذي يفتح لك. آه، لو كان يمكن تحطيمه برفسات بالقدم، هذا الباب نعم، فسيكون هذا شيئاً مهماً. تحطيم الباب برفسات بالقدم، قذف المني على الباب، البول طوال يوم على هذا الباب.. في ذلك المساء، في نيويورك، ظننت أنني

fb/mashro3pdf

فتحته بموسيقاي، ولكن توجب علي أن أتوقف، وحينئذٍ أقفله النذل في وجهي، كل هذا لأنني لم يسبق لي أبداً أن صليت له، ولأنني لن أصلي أبداً. أنا، لا أريد أن أعرف أي شيء، عن هذا البواب في الزي الرسمي، عن هذا الحاجب الذي يفتح الأبواب إذا دسست في يده بخشيشاً، عن هذا...

مسكين جوني، إنه يشكو بعد ذلك من أنني لا أريد ترديد هذه الأشياء في كتاب، ها قد أصبحت الساعة الثالثة صباحاً.

عادت تيكا إلى نيويورك، كما عاد إليها جوني، (بدون ديديه، التي سكنت في منزل لويس بيرون، الذي يعد كنافخ في المترددة «بوق ذو انبوبين). وكانت بابيي لينوكس قد عادت هي أيضاً إلى نيويورك، ولم يكن الموسم جيداً جداً في باريس، وقد أسفت لغياب أصدقائي. وكان كتابي عن جوني يلاقي رواجاً في جميع البلدان، ويتحدث سامي بريتزال عن إمكانية اقتباسه لهوليود، وهو اقتراح طريف وملائم إذا فكرنا في سعر الدولار. وكانت زوجتي ما زالت غاضبة بسبب قصتي مع بابيي لينوكس، ومع ذلك فليس في الأمر شيء خطير، فقد كانت بابيي عاهرة كلياً إلى درجة أن امرأة ذكية يجب أن تفهم أن هذه الأمور لا تؤثر في التوازن الزوجي، لا سيما وأن بابيي كانت قد عادت إلى نيويورك مع جوني. لقد سمحت لنفسها بأن تتنعم بركوب نفس الباخرة مع جوني. ولا بد أنها الآن تدخن الماريجوانا مع جوني، يا لها من فتاة مسكينة، ضائعة مثله. وخرجت «أموروس» في باريس في نفس اللحظة حيث يجري إعداد الطبعة الثانية من كتابي وحيث يدور الحديث حول ترجمته إلى اللغة الألمانية. لقد فكرت كثيراً في تعديلات ممكنة لهذه الطبعة الثانية. كانت استقامتي (الكبيرة بمقدار ما تسمح لي به مهنتي) تدفعني إلى التساؤل ما إذا كان لا ينبغي أن أظهر في ضوء آخر شخصية جوني. وقد تناقشنا حول هذا الأمر عدة مرات، دولوناي، وهودابر وأنا؛ والحقيقة أنهما لم يكونا يعرفان سوى أن يقدما النصيحة لي، وكانا يجدان أن كتابي مرموق، وعلى كل حال فهو يروق للجمهور كما هو - أي الكتاب - وقد بدا لي أنهما يخافان كلاهما من تلويث أدبي، ومن أن ينتهي بي الأمر إلى أن أدخل في عملي

fb/mashro3pdf

تلاوين لا علاقة لها بموسيقى جوني، على الأقل كما كنا نفهمها، هما وأنا. وقد بدا لي في النهاية أن رأي الاختصاصيين (ورأيي أنا أيضاً، بالطبع، وسيكون من الحماقة إنكار ذلك) يبرر قراري بترك الطبعة الثانية بدون تغيير. إن مجلات الجاز الأميركية الشمالية (أربعة ريبورتاجات حول جوني، محاولة انتحار جديدة، بصبغة اليود هذه المرة، ثم حفلة موسيقية في بالتيمور، كأن شيئاً لم يكن) التي قرأتها بانتباه كانت كافية لطمأنتي، بالرغم من الألم الذي أحدثه لي هذه النكسات المحزنة. ولم يقم جوني بأية إشارة تسيء إلى كتابي. مثال (مأخوذ من مجلة «ستومبنغ أروند»)، في مقابلة أجراها تيدي روجرز مع جوني: «هل قرأت ما كتبه برونو ف... عنك؟ - نعم. إنه شيء جيد جداً - أليس لديك ما تقوله حول هذا الكتاب؟ - كلا، ما عدا أنه جيد جداً. وأن برونو شخص عظيم». بقي أن نعرف ماذا يمكن أن يقول جوني حين يكون سكران أو مخدراً، ولكن حتى الآن على الأقل، لم يواجه عملي بأي تكذيب. وقررت أن لا أغيّر في الطبعة الثانية، وأن أترك جوني كما كان في الأساس: شخص مسكين، ذو ذكاء متوسط بالكاد، يملك مثل الكثير من الموسيقيين والكثير من لاعبي الشطرنج والكثير من الشعراء، موهبة خلق أشياء رائعة دون أن يعي أبعاد عمله (وعلاوة على ذلك، كان يملك اعتزاز الملاكم الذي يعرف أنه قوي). لم أكن أنوي أن أوجد تعقيدات مع جمهور يحب الجاز كثيراً، ويحب قليلاً جداً التحليلات الموسيقية أو النفسية، وهو لا يبحث إلا عن متعة اللحظة، الواضحة والمرسومة جيداً، وأيديه تضرب على الإيقاع، ووجوهه تنفرج بغبطة، والموسيقى تسري في جلده وتتجذر في دمه، وفي أنفاسه، ولكن بعد هذا، الوداع، «على الأخص لا ينبغي تصديع رؤوسنا».

لقد وصلت البرقيات أولاً (واحدة لي وواحدة لـ دولوناي، وتحدثت صحف المساء عن المسألة مع تعليقات بلهاء)، وبعد ذلك بعشرين يوماً، تلقيت رسالة من بايبي لينوكس التي لم تنسني. «لقد عومل مثل أمير في مستشفى «بيلفو» وقد ذهبت لمرافقته لدى خروجه. إن مايك روسولو الذي كان يقوم بجولة في النروج قد أعطانا شقته. وكانت حالة جوني جيدة جداً؛ ولم يكن

fb/mashro3pdf

يريد أن يعزف أمام الجمهور، لكنه قبل بتسجيل بعض الأسطوانات مع فتيان «نادي ٢٨»، وفي الأساس، أستطيع تماماً أن أقول لك أنت، أن جوني كان ضعيفاً جداً (بعد مغامرتنا في باريس، أستطيع أن أتصور ما تعنيه بايبي بهذا القول) وفي الليل كان يتنفس بصعوبة ويشكو بحيث أنني أحسست بالخوف. والشيء الوحيد الذي كان يعزيني ـ أضافت بايبي بصورة لطيفة ـ هو أنه مات مسروراً ودون أن يدرك (أنه يموت). كان يشاهد التلفزيون وفجأة سقط عن كرسيه. وقيل لي إن الموت كان فورياً». ويستنتج من هذا أن بايبي لم تكن معه في تلك اللحظة. وقد علمنا إثر ذلك في الواقع، أن جوني كان يعيش حينئذٍ عند تيكا، وأنه منذ خمسة أيام كان مهموماً ومنهاراً، وأنه كان يتحدث عن ترك الجاز، والانسحاب إلى الريف قرب مكسيكو (جميعهم ينتهي بهم الأمر إلى أن يريدوا الانسحاب إلى الريف، وهذا يفتقر إلى الطرافة). وكانت تيكا تعنى به وتفعل كل ما في وسعها لتهدئته وحمله على التفكير في المستقبل (هذا على الأقل ما كتبته تيكا إلي، وكأن جوني أو هي كان لديهما أدنى فكرة عما يمكن أن يكون المستقبل). وفي أثناء مشهد تلفزيوني كان يسليه كثيراً، أخذ يسعل، وانطوى فجأة إلى اثنين، إلخ. وأنا لست متأكداً مثلهما ـ أي تيكا وبايبي ـ أن جوني قد مات على الفور. وهذا ما صرحت به تيكا للشرطة لكي تنقذ نفسها من الورطة غير المعقولة التي أوقعها فيها موت جوني في منزلها، والماريجوانا التي عثر عليها عندها ونتائج التشريح غير المقنعة (ويمكن أن نتصور كل ما يستطيع طبيب أن يعثر عليه في رئتي جوني وكبده) «لا تستطيع أن تعلم كم أن موته قد أربكني (مع أنني أستطيع أن أروي لك أشياء كثيرة في هذا الصدد) هكذا أضافت بلطف، بايبي هذه الغالية، ولكن حين ستكون لدي شجاعة أكثر، سوف أكتب إليك كل ما ينبغي أن تعرفه، أنت الذي كنت أفضل صديق له»، وتلت بعد ذلك صفحة كاملة من الشتائم الموجهة إلى تيكا، التي هي، حسب قول بايبي، ليس فقط مسؤولة عن موت جوني، بل أيضاً عن الهجوم على «بيرل هاربور». وأنهت هذه المسكينة بايبي رسالتها قائلة: «حسب ما أعتقد، ففي أحد الأيام، في مستشفى «بيلفو»، كان يريد بلهفة أن يراك، وكان يخلط بعض الشيء بين الأمور، وكان يعتقد أنك في

fb/mashro3pdf

نيويورك، وأنك لا تريد زيارته، وكان يتكلم دائماً عن حقول ملأى بأشياء لست أدري ما هي، ثم إنه كان يناديك وانتهى به الأمر إلى شتمك، المسكين. أنت تعرف كيف يكون شخص وهو في بحران الحمى. وقد قالت تيكا لجون كاراي ان آخر كلمات جوني كانت شيئاً مثل: «أوه، اصنع لي قناعاً» لكنك تتصور أنه في مثل هذه الحالة... (لا تتصور أنني أتخيل...) «كان قد أصبح ضخم الجثة جداً، أضافت بايبي في نهاية رسالتها، وكان يجد صعوبة في المشي، وكان يلهث...». كان ينبغي تماماً توقع مثل هذه التفاصيل، من جانب امرأة بمثل رقة بايبي لينوكس.

كل هذا حدث بالضبط لدى صدور الطبعة الثانية من كتابي عن جوني. وأتيح لي لحسن الحظ الوقت لادراج لمحة حول وفاة جوني، كتبت على عجل، ونشر صورة الدفن حيث يرى جمهور من شخصيات الجاز. كانت سيرة حياة جوني التي كتبتها، على هذا الأساس، أكثر... كمالاً، كما نقول وربما سيبدو من القسوة أن أقول هذا، لكنني أقف طبعاً على صعيد جمالي. وقد حدثوني أيضاً عن ترجمة أخرى لكتابي، إلى اللغة النروجية أو السويدية، كما أعتقد. وقد سرت زوجتي كثيراً لهذا النبأ.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

ذاكرة الشعوب

المحرر: الياس خوري

صدر منها

١ ـ فرديناند أيونو:	الصبي الخادم	كاميرون
٢ ـ كين كيسي:	طيران فوق عش الوقواق	الولايات المتحدة
٣ ـ جاك رومان:	سادة الندى	هاييتي
٤ ـ ب ترافن:	انتفاضة المشانق	المكسيك
٥ ـ غينوا أتشيبي:	الأشياء تتداعى	أفريقيا
٦ ـ كامارا لاي:	الولد الأسود	غينيا
٧ ـ كمالا ماركاندايا:	رحيق في غربال	الهند
٨ ـ بيتر أبراهامز:	فتى المنجم	أفريقيا الجنوبية
٩ ـ اريش ماريا ريمارك:	ثلاثة رفاق	ألمانيا
١٠ ـ غابرييل أوكارا:	الصوت	أفريقيا
١١ ـ ريجيس دوبريه:	غير المرغوب فيه	فرنسا
١٢ ـ عبداللطيف اللعبي:	مجنون الأمل	المغرب
١٣ ـ اريش ماريا ريمارك:	ليلة لشبونة	ألمانيا
١٤ ـ كارلوس فوانتس:	موت أرتيميو كروز	المكسيك
١٥ ـ غينوا أتشيبي:	مضى عهد الراحة	نيجيريا
١٦ ـ جورج لمينغ:	في قلعة جلدي	الكاريبي
١٧ ـ استورياس:	السيد الرئيس	غواتيمالا
١٨ ـ دوميتيلا دوشنغارا:	دعوني أتكلم	بوليفيا
١٩ ـ صنبين عثمان:	الحوالة	السنغال
٢٠ ـ الكسندرا كولنتاي:	حب عاملة النحل	الاتحاد السوفياتي

fb/mashro3pdf

٢١ ـ مجموعة :	قصص من أميركا اللاتينية	أميركا اللاتينية
٢٢ ـ وليامز ساسين :	مذبحة ويريامو	الموزامبيق
٢٣ ـ سنان حساني	الريح والبلوط	يوغوسلافيا
٢٤ ـ فريدريك دوغلاس	مذكرات عبد أميركي	الولايات المتحدة
٢٥ ـ وول سوينكا	المفسرون	نايجيريا
٢٦ ـ صنين عثمان	أطراف الغابة	السنغال
٢٧ ـ نغوجي واثيونغو	تصفية استعمار العقل	كينيا (دراسة)
٢٨ ـ كنزَ بورو أوي	مسألة شخصيّة	اليابان
٢٩ ـ خوليو كورتاثار	الأسلحة السرية	الأرجنتين

fb/mashro3pdf

قصص من الأرجنتين

الأسلحة السرية

ولد الكاتب الأرجنتيني خوليو كورتاثار في بروكسل عام ١٩١٤، وأمضى طفولته وسني شبابه في الأرجنتين. ثم أقام في فرنسا منذ عام ١٩٥١، حتى وفاته. كتب قصصاً وروايات وقصائد ودراسات عدة حول أدباء من بينهم جون كيتس وادغار آلن بو. لكن عمله الأدبي الرئيسي هو في ميداني القصة والرواية.

عرف كورتاثار أن يوازن بشكل دقيق بين ما هو واقعي وما هو خيالي، مما جعله واحداً من الأدباء الطليعيين في عالم اليوم.

من مؤلفاته في القصة القصيرة: «مصارع الضواري» (بونيس ايرس، ١٩٥١)، «نهاية اللعبة» (مكسيكو ١٩٥٦)، «الأسلحة السرية» (١٩٥٩)، من إحدى قصص هذا الكتاب استوحى المخرج الإيطالي أنطونيوني فيلمه بلو آب، «كلّ النار، النار» (بونيس ايرس ١٩٦٦)، «نحب غلندا كثيراً» (مدريد ١٩٨١).

من رواياته: «الجوائز» (بونيس ايرس ١٩٦٠)، «ماريولا» (١٩٦٣)، «دورة النهار في ثمانين عالماً» (مكسيكو ١٩٦٧)، «كتاب مانويل» (١٩٧٤ نال جائزة مديسيس الفرنسية للأدب الأجنبي عام ١٩٧٤).

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ٥٧-٥-١٣ (شوران) بيروت - لبنان

fb/mashro3pdf